أسرجوا خيل السباق للسباق

الدكتورة مها قنوت
وزيرة الثقافة

أستسمحُ البيانَ عذراً... فربّما سقطَ البيان... إذ يحاول المبينون ولاجدوى... عفوَ الكلماتِ والمداد.!! كيف ضاعت من يدي المفردات فجأةً... وبتُّ أبحثُ عن عبارةٍ... فلا أجد. أَوَ أستعيرُ من الماضي بياناً لايرقى إلى حزنِ الجموع؟ أَمْ أنني اتركُ لدمعِ المآقي حديثاً، عبثاً نحاول إخفاءَه أو مداراته ويأبى إلاَّ أن يكون!!.

هي لحظةُ الخبرِ الذي يقعُ على أهدابنا كما التيَّار... ترتجُّ له أوصالُنا والعروق: لقد رحلَ السيد الرئيس!! لحظةُ الخبر مرفوضةٌ.. كما الأعماق تبحث في الحقائق عن وعدٍ

الأكاذيب.. لا .. ربَّما هي شائعةٌ مُغْرِضة.. ربَّما إذاعةٌ معادية.. ربَّما خطأٌ يُصَحَّحُ بعد قليل. وتشتدُّ أعصابُ الجسد.. وتسرعُ خفقاتُ القلب.. بل هي الحقيقةُ المُرَّة.. لقد تَرَجَّل الفارسُ العظيم.

هل ترجَّلْتَ حقاً عن حصانك الذي فتحتَ به الدنيا وقبلَها القلوب؟! يومَ قلتَ لبوابات العالم...: إنَّ الوجهَ العربيَّ لا يغيب.. يومَ ارتَفَعَتْ فوق بساط مجدكَ أقواسُ النصر في كل مكان.. يومَ بَسَطَتْ لكَ الشعوبُ دِرَاجَها الأحمرَ.. تستقبل الفاتحَ والناصحَ والحكيم؟ يومَ أنصَتَتْ مسامعُ الكونِ إلى كلماتكَ الهادئة الحاسمة.. تغذِّي الشعوبَ بِنَسْغ الكرامة كيف يكون.. وترسمُ للحريات ملامحَ البقاء.. وتطبعُ في صفحةِ النضال بَصْمَةً.. تُعَلِّمُ الأجيالَ.. كيف تقتدي.. كيف تهتدي.. كيف تستعيدُ ما قد يعتدي فيه الزمان.. ويبقى الأغلى.. هو المكان.. يا صاحبَ الأرض ياسيِّد الأوطان!! أمَا كُنتَ تتمهَّلُ قليلاً كي ترى جنيَ الثمار.!!؟ أَمْ أنَّكَ مرهونٌ بالتعبِ جهداً وإنهاكاً.. يا مَن لو تُفتدى عيناه.. افتدينا.. وقد أبكى العيون.

لِمَنْ بعد هذا اليوم أنسجُ قافيتي؟.. لِمَنْ أُحيكُ جدائلَ الشمسِ أزاهيرَ غارٍ وأكاليلَ نصر؟.. لِمَنْ أُطْلِقُ يَراعي يغازلُ أشرعةَ البلاغة تتبخترُ في بحرِ مجدكَ وتزهو على الجبال؟ أَمَا كنتَ البطلَ لكلِ ملاحم البطولة.. أما كنتَ العروضَ الذي أجمع على إيقاعه الشعراء كالسيف تجتمع على حدَّيه أهدابُ البطولة.. أما كنتَ الصورةَ التي ارتجاها أكبرُ الأدباء، كي يخطُّوا عَصْفَ دماغهم وسحرَ كنوزهم، وهم يعلمون أنَّ البطلَ

يختصرُ الجميع... عهدَ الراشدين وسيفَ الفاتحين.. حضارةَ التاريخ والرسالةَ الخالدة!!

ويمن نلوذُ حينَ تحومُ المِحَنْ؟.. وقد كنتَ العباءةَ التي يحتمي خلفها الجميع؟ وكيف نبدِّدُ الإعصارَ إنْ كانَ يوماً... وقد كُنتَ الجبالَ التي تردُّ عن سهولِنا ذئابَ الريح ولَسْعَ الصقيع... ومَنْ للعينِ التي تعوَّدت الرقادَ، مَنْ لها بحارسٍ يجلس وحيداً في وجه العاصفة.. ويردُّ الطاغوت كيفما كان..؟!

فهل أنعيكَ أَمْ أنعي العروبةَ والشموخ... يا حارسَ الحلم العربي... وكم أبى لونَ الخضوع... مَنْ للعروبةِ مِنْ معلم.. يفتح للقومية أبواباً... ويلوّحُ بيده البيضاء للأجيال أنّي سأمضي فاتبعيني!! لِمَنْ تركتَ أجيالَكَ في نصفِ الطريق... فبعضُهم مكلومٌ ينوح.. وبعضُهم يسعى إليك، وبعضُهم يسمع منكَ عن بعيد.. وبعضهم يقرأُ صوتَكَ في السطور، وبعضُهم ضلَّ الطريق..!!

يا منارةَ العربِ.. كيف أخليتَ المنارْ...؟ وهذي المراكبُ تسألُ عن ربّانها... تنظرُ التوجيه والتسديد... فقد غاب النهارْ.

أَوَ نملكُ إلاَّ أَنْ نخضع... أَوَ نملكُ إلاَّ أَنْ نرضخ.. ونحن على يقين، أنَّ الأمرَ لو كان اختيارَكَ لاخترتَ أن تظلَّ حارسَنَا الأمينَ في ليلِ الصقيع... لاخترتَ خمسينَ عاماً من الكفاح... نهارُها نهار... وليلُها نهار... وكنَّا ننامُ ملءَ العين... وأنتَ ساهرٌ... ويطلعُ النهار!! ومِنْ نهاراتٍ صنعتَها.. ومن نهاراتٍ تركتَها...

يخرج البشّار... أسرجوا خيلَ السباق للسباق... فالنهجُ نهجُهُ.. والطريقُ طريقُـــه... وعند كلِ منعطفٍ.. نقطةُ عَـــلاّمٍ على الطريق... لن نضلَّ وبيننا الكشّـاف مَنْ جاور الخـبـيـر يغـدو خبيرا... ومَن يصنع النورَ لايخشى فجأةَ الظلام.!!

ما تـزال الدمعـةُ تسبقُ المداد... خفِـيَـةً عن الآخـرين.. مُعْلَنَةً في حنايا الصدور.. تنوح في وجداننا.. ما بقِـينا وَظَلَّ الزمان.

ما تزال الغصَّةُ أقوى من القافية... والدمعةُ حارقةٌ تجرحُ المآقي.. تحـول دونَ السطـور.. فَعَفْـوَ البيـانِ عن عجـزِ البيـان.. وعَـفْـــوَ السـطـور من دمــع النحـور.. مـصــابُنا الأليـم... وحـزنُنا العظيم.. فالآن لا حولَ ولا اقتدار.. وأفضلُ العزاء.. إنَّا لله وإنَّا إليه.. راجعون.

* * *

الدراسات والبحوث

فلسفة المعنى في التحليل اللغوي المعاصر «فتجنشتين» نموذجاً

رشيد الحاج صالح *

لقد اصطدمت النظريات التي تناولت «المعنى» بصعوبات كبيرة، من أهم هذه الصعوبات عدم الوصول إلى معنى ثابت ومحدد للكلمات أو الجمل. إذ لاحظ فتجنشتين قبل غيره هذا المأزق،

* رشيد الحاج صالح: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية. له عدة أبحاث في فلسفة المنطق.

لذلك فقد غير وبشكل كلي منهجه التحليلي في البحث عن المعنى، وذلك عندما بيّن أن المعنى ليس هو الثابت وإنما هو المتغير والمتبدل، وأن هذا التغير يكون بحسب طريقة استخدام الألفاظ المراد تحديد معناها. على هذا النحو يبدو أن البحث عن معنى ثابت إنما هو مجرد وهم وقد آن الأوان لكي نستفيق منه، هكذا حقق فتجنشتين وبضربة واحدة ثورة في «فكرة المعنى». أما الآن فلنحاول أن نتبين كيف توصلت نظريات المعنى الثابت إلى طريقها المسدود ولنأخذ مثالاً على ذلك نظرية المعنى عند مور.

ترتبط نظرية المعنى عند مور بمنهجه في التحليل، ذلك أن للتحليل عند مور خطوتين: هما التقسيم والتمييز ومعيار واحد هو التكافؤ المنطقي بين ما يراد تحليله والتحليل. المقصود بالتقسيم هو تقسيم «التصوير» موضوع التحليل إلى تصورات جزئية تؤلفه، وعلى ذلك فلا بد للتصور من أن يكون مركباً غير بسيط، مثال ذلك تحليل تصور «أخ» إلى تصوري «ذكر» و«الانحدار من أصل مشترك» أما المقصود بالتمييز فهو حصر كل الحالات التي تدل على هذا التصور والتوصل إلى عنصر مشترك يجمع كل الحالات، أما التكافؤ المنطقي فهو أننا عندما نحلّل تصوراً ما إلى تصورات أخرى فلابد من وجود تكافؤ منطقي بين الطرفين وإذا تحقق هذا التكافؤ نقول: إن للتصور والتوصل إلى عنصر مشترك يجمع كل الحالات، أما التكافؤ المنطقي فهو أننا عندما نحلّل تصوراً ما إلى تصورات أخرى فلابد من وجود تكافؤ منطقي بين الطرفين وإذا تحقق هذا التكافؤ نقول: إن للتصور والتصورات الجزئية المعنى نفسه. هكذا يتحدد -بحسب مور- المعنى الصحيح للألفاظ والعبارات، أي لابد من وجود تكافؤ منطقي أو ترادف بين الطرفين حتى نقول: إن لهما المعنى نفسه[1].

١- محمود زيدان: في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص٩٩. وأيضاً جورج مور: دحض المثالية ودفاع عن الإدراك الفطري، ترجمة ودراسة د. أحمد فؤاد كامل، دار الثقافة، ١٩٧٦، ص٣٣٢.

غير أن مور، واجه فيما بعد انتقادات عديدة لتحديده المعنى على هذا النحو. ومن هذه الانتقادات، أننا لانستطيع التوصل إلى التكافؤ المنطقي بين التصورات، ذلك أننا عندما نقسم التصور إلى تصورات أخرى تؤلفه فإن ذلك لا يحقق تكافؤاً منطقياً وإنما يحقق «تضمناً»، فنحن عندما نحلّل تصوراً أو قضية إلى ما يؤلفها من تصورات أو نستنبط ما يلزم عنها من قضايا، فإننا لانقوم بعملية إيجاد متكافئات بقدر ما نقوم بعملية استخراج القضايا المتضمنة في القضية المُحلَّلَة ولاتضمن في المنطق غير التكافؤ. على ذلك، وعلى اعتبار أنه لايوجد تكافؤ منطقي بين التصورات فإنه لايوجد هوية في المعنى بينهما، ذلك أن التصور هو نفسه معنى الكلمة وبالتالي فإن تحليله إلى تصورات أخرى يعني الإتيان بمعاني جديدة. من هنا يتضح لدينا أن بحث **مور** عن معنى ثابت ومحدد للكلمات أو التصورات لم يكن بحثاً موفقاً[٢].

نكتفي بهذه النظرية كنموذج للنظريات التي تقول بالمعنى الثابت، لننتقل إلى فيلسوفنا الذي لاحظ ما وصلت إليه هذه النظريات من طريق مسدود، ليقدم مشروعه الذي قلب فيه الموازين التقليدية لنظرية المعنى.

لقد ثار **فتجنشتين** أيضاً على نظرية في الرسالة* والتي تقول: بأن معنى القضية يتحدد بما يقابلها من وقائع، أما القضايا التي لامعنى لها فهي التي لا تقابل وقائع. فالمعنى هنا ثابت ومحدد أيضاً، وهذا المعنى الثابت هو من الأخطاء الكبرى التي أشار إليها **فتجنشتين** في مقدمة البحوث. على هذا النحو يمكن القول: إن الطريق المسدود الذي وصلت إليه نظريات المعنى الثابت، هو الذي أوحى **لفتجنشتين** بنظريته الجديدة في المعنى. إن معنى اللفظ لدى فيلسوفنا المتجدد، يتحدد باستخدامه، وطالما أن للكلمة الواحدة طرقاً عديدة للاستخدام -لايمكن حصرها-؛ فإن للكلمة -أيضاً- معاني

٢- محمود زيدان: في فلسفة اللغة، ص ص ١٠٠-١٠٢.

*- المقصود بالرسالة هو كتاب «رسالة منطقية فلسفية» الذي نشره فتجنشتين عام ١٩٢٢. غير أن فيلسوفنا -كما نلاحظ- تخلى فيما بعد عن أهم النظريات التي وردت فيه ولاسيما نظرية المعنى في التحقق.

عديدة. وهذا هو حال العبارات، فمعنى أي عبارة يتم تحديده بالسياق الذي ترد فيه وطريقة استخدامها والظروف التي قيلت فيها. يقول **فتجنشتين**: «إن المعنى هو الجو المحيط أو المصاحب للكلمة، والتي تحمله معها في كل أنواع الاستخدام... وإن السؤال عن المعنى هو سؤال عن الظروف المعينة التي تُستخدم فيها هذه العبارة بالفعل»[٣].

تكشف نظرية المعنى عند **فتجنشتين** عن طبيعة اللغة عنده، والتي هي طبيعة اسفنجية مطّاطة، ولعل هذه الصفات هي صفات اللغة العادية نفسها، لا بل يمكن أن نذهب إلى حد أن نظرية المعنى في الاستخدام متأثرة بطبيعة اللغة العادية، إذ وجد **فتجنشتين** أن لكل لفظ من ألفاظ اللغة العادية معاني مختلفة تتبدل بحسب السياق أو الاستخدام. ولذلك نجده يطرح شعاره المعروف: «لاتسأل عن المعنى وإنما اسأل عن الاستخدام»، **على اعتبار أن معرفتنا لاستخدام** كلمة ما يوصلنا **إلى معرفة** معناها. هكذا **نخلص إلى أن** اللغة العادية كانت -أيضاً- من العوامل التي أوحت لفيلسوفنا بنظريته الجديدة المعنى.

يضاف إلى ذلك، للمعنى في هذه النظرية، طابع «عيني»، **أي يُنظر** إليه من خلال الاستخدام. هنا لابد من الإشارة إلى أن **فتجنشتين** لايميل إلى البحث في العمليات العقلية بذاتها أو في طبيعة التصورات، وإنما يقول: إن هذه العمليات والتصورات إنما تتضح بشكل أفضل إذا عرفنا كيف نستخدم الألفاظ الدالّة عليها. وهذا هو شأن «المعنى» والسياقات المتعددة التي يرد فيها وما هي الظروف والملابسات والجو العام الذي يرافق هذا الاستخدام. يقول **فتجنشتين** في ذلك: «إن المصدر الرئيسي لفشلنا في الفهم هو أننا لانطلب الرؤية الواضحة والشاملة لاستخدام ألفاظنا. فقواعدنا النحوية ينقصها هذا النوع من الوضوح»[٤].

٣- لودفيج فتجنشتين: بحوث فلسفية، ترجمة د. عزمي اسلام، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٩١، فقرة ١١٧، ص١٠٨.

٤- البحوث، القسم الأول، فقرة ١٢٢، ص١٠٩.

ولكن هل يتم تحديد معاني جميع الكلمات في اللغة بوساطة معرفة طريقة استخدامها؟ هناك بعض الكلمات لايتحدد معناها بوساطة الاستخدام، مثل الأسماء التي يتحدد معناها بالإشارة إلى دلالتها، وهذا ما ذهب إليه أنصار المذهب الاسمي. **فتجنشتين** لا ينكر هذه الوظيفة للغة وإنما يجعلها إحدى الوظائف الكثيرة للغة. لنستمع إلى **فتجنشتين**: «بالنسبة لفئة كبيرة من الحالات التي تستخدم فيها كلمة «معنى» –وليس بالنسبة لها جميعاً– يمكن تعريف هذه الكلمة كمايلي: إن معنى الكلمة هو طريقة استخدامها في اللغة. و«معنى» الاسم يتم تفسيره أحياناً بالإشارة إلى حامله أو مسماه»[٥]. **فتجنشتين** لم يتحدث عن جميع استخدامات كلمة «معنى» بل عن معظمها ومرد ذلك أنه يضع بعين الاعتبار «الأسماء»، ذلك أن الأسماء لايتم تحديد معناها بناءً على طريقة استخدامها في العبارات، وإنما يتم تحديد معناها بالإشارة إلى مدلولاتها. هذا وسوف يرى معنا أن التعريف الإشاري أو تسمية الأشياء ليس بحد ذاته لعبة لغوية بقدر ما هو تمهيد لهذه الألعاب.

أخيراً، يرتبط المعنى «بالقصد»، ذلك أن ما نقصده بالعبارة هو ما يعطيها معناً معيناً، ونحن كثيراً ما نخلط في اللغة العادية بين المعنى والقصد، فنقول لشخص نريد أن نسأله عن معنى العبارة التي قالها: ماذا تقصد بعباراتك؟. يقول **فتجنشتين**: «لكن أليس مانعنيه (أو نقصده) بالعبارة هو ما يجعلها ذات معنى؟ (ويتصل بهذا بالطبع القول بأن الإنسان لا يستطيع أن يعني شيئاً بسلسلة لا معنى لها من الكلمات). وأن «المعنى» هو شيء في مجال الذهن. إلا أنه شيء خاص (أو حميم) أيضاً. إنه شيء ما لايدرك بالحواس ولايمكن مقارنته إلا بالوعي»[٦]. إن **فتجنشتين** متأثر في هذه الفقرة بقصدية **هوسرل**، الذي حلّل الشعور بوساطة المنهج الفينومينولوجي ووجد

٥- البحوث، القسم الأول، فقرة ٤٣، ص٧٢.
٦- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٥٨، ص١٩٤.

أنه دائماً مُسيَّر بقصد معين، وكما أن القصد عند **هوسرل** يحدد اتجاه الشعور فكذلك القصد عند **فتجنشتين** يحدد المعنى وبالتالي طريقة الاستخدام.

* * *

بعد أن تحدثنا عن نظرية المعنى الجديدة عند فيلسوفنا، وكيف تتحدّد فكرة المعنى عنده، فقد آن الآوان لنرى كيف يطبق **فتجنشتين ذلك**.

يبدأ **فتجنشتين** بحوثه بنقد نظرية المعنى عند **أوغسطين** والتي تقول إن معنى الكلمة هو الشيء الذي تشير إليه، ولتوضيح نظرية المعنى عند **أوغسطين** يقتبس **فتجنشتين** الفقرة التالية من كتاب الاعترافات «حينما كان يسمّي (من هم أكبر مني سناً) موضوعاً ما، ويتجهون تبعاً لذلك نحوه، كنت أرى ذلك، وأدرك أن الشيء إنما يسمى بذلك الصوت الذي ينطقون به عندما كانوا يقصدون الإشارة إليه.

وقد كنت أستنتج ذلك من حركاتهم الجسدية، التي هي اللغة الطبيعية لجميع الشعوب، مثل تعبير الوجه، وحركة العينين وبقية أجزاء الجسم، ونبرة الصوت التي تعبِّر عن حالتنا الذهنية في أثناء البحث عن أي شيء أو الحصول عليه أو رفضه أو تجنبه.

هكذا تعلمت بالتدريج عند سماعي للكلمات وهي تستخدم بطريقة مبتكرة في مواضعها الصحيحة في مختلف الجمل، أن أفهم الأشياء التي يعنونها أو يشيرون إليها. وبعد أن دربت فمي على تكوين هذه العلامات الصوتية، أخذت أستخدمها في التعبير عن رغباتي»[٧].

من هذا النص يمكن أن نحدد وظيفة اللغة عند **أوغسطين** بأنها شيئية أو تقريرية، بمعنى أنها تشير إلى الأشياء. كما نلاحظ أن هذه الوظيفة تشبه وظيفة اللغة في الرسالة. **فتجنشتين** ينقد هذا التحديد لوظيفة اللغة، ذلك أن **أوغسطين** عندما تحدث عن وظيفة اللغة في النص السابق لم يخطر في باله

٧- البحوث، القسم الأول، فقرة١، ص٤٧

إلا الألفاظ من قبيل «منضدة»، «كرسي»، «خبز»، «أسماء الأشخاص»، أي إنه لم يفكر في الاستخدامات الأخرى في اللغة، وبالتالي فإن هذا التحديد لوظيفة اللغة هو تحديد قاصر يتحدد في اللغة التي تشير إلى الأشياء وحسب، أما الاستخدامات الأخرى كالأمر، والاستفهام، والتعجب، والتحذير، والتذمر، والتنبيه، ووصف المشاعر. . . فلم يتناولها **أوغسطين** ولذلك يأخذ **فتجنشتين** على عاتقه توضيح تلك الاستخدامات.

تتلخص نظرية المعنى في الاستخدام في أن معنى أي كلمة أو عبارة يتمثل في طريقة استخدامها في سياق معين، وأن هذا الاستخدام هو الذي يحدد معنى الكلمة أو العبارة، وبالتالي فإننا عندما نقول عن أي شخص إنه يعرف معنى كلمة ما فإننا نعني أن هذا الشخص يعرف كيف يستخدم هذه الكلمة. أما كيف نتعلم هذه الاستخدامات؟ فإن ذلك يتحدد من خلال حياتنا الاجتماعية والاستعمال اليومي للغتنا العادية.

يزداد وضوح هذه النظرية إذا ما قمنا بشرح نظرية **فتجنشتين** عن «ألعاب -اللغة» فما المقصود بهذه الألعاب؟ يرى **فتجنشتين** أن اللغة لعبة مثلها مثل باقي الألعاب كلعبة الشطرنج وألعاب الكرات والورق والألعاب الأولمبية، وكما أن لكل لعبة قواعد هي التي تحدد طريقة اللعب، وبالتالي لا يجوز مخالفتها، فكذلك للغة قواعد ولابد من مراعاتها، وعلى ذلك فإننا إذا ما خالفنا هذه القواعد فإن اللغة تفسد ولا يعود لها معنى وهذا ما يسميه **فتجنشتين** بسوء استخدام اللغة.

إن ألعاب -اللغة هي صورة من صور الحياة، وما تتضمنها من أساليب كثيرة للكلام، حيث يتحدد معنى كل رمز لغوي في هذه الحياة بالاستعمال الذي نلجأ إليه، كما أن كل استعمال إنما يتحدد ضمن لعبة لغوية معينة. وما أكثر الألعاب في حياتنا، فهناك «إصدار الأوامر وإعطائها، وصف مظهر شيء ما أو ذكر مقاييسه، تكوين موضوع ما حسب الوصف (الرسم)، ذكر تقرير أو حادثة، ذكر احتمالات مختلفة عن حادثة معينة،

تكوين الفرض واختباره، تقويم نتائج التجربة في قوائم وأشكال، تأليف قصة وقراءتها، تمثيل مسرحية، إنشاء الأناشيد، حل الألغاز، تأليف نكته وإلقاؤها، حل مشكلة في الحساب التطبيقي، الترجمة من لغة إلى أخرى، السؤال، الشكر، اللعن، التهنئة، الصلاة. . .»[٨]. نخلص من هذا النص إلى أن معنى أي كلمة أو عبارة إنما يتحدد بحسب اللعبة -اللغوية التي ترد في هذه الألفاظ، وأنه لايجوز الحديث عن معنى لهذه الألفاظ إذا لم نأخذ بعين الاعتبار اللعبة اللغوية التي وردت فيها، كما أن طريقة الاستخدام إنما تتحدد بهذه اللعبة. يضاف إلى ذلك فإن هذه الألعاب ليست ثابتة بحيث تعرف لمرة واحدة وإلى الأبد، بل إن هذه الألعاب تتغير وتفنى، وهناك ألعاب جديدة تستحدث وكأن لألعاب اللغة حياة كاملة حيث تولد وتتطوّر وتدخل في حيّز النسيان. أما مرد ذلك فهو أن ألعاب اللغة، وكما أشرنا، صورة من صور الحياة فهي في تطور وتبدل مستمرين.

أمّا الآن فلنحاول استخراج بعض الأمثلة من كتاب البحوث لكيفية عمل الكلمات في اللغة العادية:

١- «آ» عامل بناء، «ب» مساعده، «آ» يبني مستخدماً أحجار البناء: فهناك «قوالب» و«قوائم» و«بلاطات» و«دعامات». على «ب» أن يناول «آ» أحجار البناء بالترتيب الذي يحتاجه، وهما يستعملان لهذا الغرض لغةً تتكون من الكلمات التالية «بلاطة» «قائمة» «دعامة». «آ» ينادي ويطلبها «ب» يحضر الحجر الذي تعلم أن يحضره عند سماع هذا النداء أو ذاك[٩].

هذه إحدى نماذج ألعاب -اللغة، ذلك أن كل الكلمات الواردة في اللعبة، لاتفهم إلا في السياق الذي وردت فيه، وأن هذه الكلمات قد تأخذ معان مختلفة خارج هذه اللعبة. لنفترض أن «ب» عاد إلى منزله وإذ بشخص يقابله في الطريق ويقول له: «بلاطة» فإنه لايفهم ما يريده هذا الشخص من

٨- البحوث، القسم الأول، فقرة٢٣، ص٦٠.

٩- البحوث، القسم الأول، فقرة٦٧و ص٨٧.

هذه الكلمة، أما في أثناء العمل مع «آ» فإنه يفهم ما تعنيه هذه الكلمة. لنفترض افتراضاً آخر وهو أن هناك شخصاً ثالثاً «ج» ينظر إلى «آ» و«ب» كيف يعملان ولنفترض أن «ب» تأخر في مناولة «آ» بلاطة في الوقت المناسب فإن «ج» قد يقول «بلاطة» ثم يقوم «ب» بمناولة «آ» البلاطة بالرغم من أن «ج» هو الذي قال «بلاطة»، أي إن «ب» فهم أن «ج» يقول له إن «!» بحاجة إلى بلاطة. نخلص مما تقدم: إن لكل كلمة استخداماً معيناً وسياقاً معيناً ترد فيه، وإننا بالتنبه إلى طريقة الاستخدام والسياق نستطيع معرفة معناها، وإننا إذا فهمنا معنى اللفظ فإن ذلك يحدد نوع الاستجابة التي نقوم بها لدى سماعنا هذا اللفظ.

٢ً- «آ» يطلب من «ب» أن يعد البلاطات الموجودة، فيعدها «ب» ويقول لـ«آ»: «خمس بلاطات». «آ» يطلب البلاطات الخمس قائلاً: «خمس بلاطات»، هناك بلا شك فرق بين «خمس بلاطات» عندما قيلت بشكل تقريري وبين «خمس بلاطات» عندما قيلت بشكل آمر، إن هذا الفرق هو ذلك الجزء من الدور الذي يلعبه نطق هذه الكلمة في لعبة -اللغة، فلا ريب في أن نغمة الصوت، وكذا النظرة أو الإيماءة اللتين تصحبان النطق، وأشياء أخرى كثيرة بالإضافة إلى ذلك، ستكون كذلك مختلفة[١٠].

على هذا النحو نجد أن الظروف والملابسات المرافقة لنطق الكلمة هي التي تساعدنا على تحديد الاستخدام الذي يريده المتكلم. الآن لنفترض أن هذه الظروف والملابسات لم تكن مختلفة على اعتبار أن التقرير والأمر قد يقالان بشكل متقارب، فإن الفرق يبقى قائماً، وإن هذا الفرق يتحدد في طريقة الاستجابة والتطبيق عند سماعنا للتقرير أو الأمر، أي إن الأمر استجابة معينة تختلف عن الاستجابة الخاصة للتقرير.

٣ً- «إنك سوف تفعل هذا»[١١]. هل قيلت هذه العبارة على سبيل

١٠- البحوث، القسم الأول، فقرة ٢١، ص٥٨.

١١- البحوث، القسم الأول، فقرة ٢١، ص٥٨.

التوقع أم على سبيل الأمر؟ ما الذي يعطي لهذه العبارة أحد المعنيين دون الآخر؟ إن طريقة إلقاء العبارة والظروف التي قيلت فيها والسياق الذي وردت فيه، هي التي تحدد أي المعنيين هو المقصود.

٤ – لنلاحظ الاستخدامات المختلفة لكلمة «هذا»: إن كلمة «هذا» ليست اسماً إلا أنها ترتبط بالأسماء فعن طريقها يتم شرح الأسماء.

١ – هل هذه الكتب كتبي؟

٢ – هل هذه القدم قدمي؟

٣ – هل هذا الجسد جسدي؟

٤ – هل هذا الإحساس إحساسي؟[١٢]

لكلمة «هذا» في العبارات السابقة استعمالات مختلفة، فهي في المثال الأول تشير إلى أشياء خارجية وهي الكتب، وفي المثال الثاني تشير إلى أحد أجزاء الجسد، أما في المثال الرابع فإنها تشير إلى شيء داخلي هو الإحساس. هكذا نجد أن معنى كلمة «هذا» في هذه الجمل يختلف من جملة إلى أخرى، كما أنه قد يكون لكلمة «هذا» في المثال الواحد معان مختلفة، ففي المثال الثالث قد يسأل أحدنا هذا السؤال وهو ينظر في المرآة، أو قد يعني فيما إذا كانت الملابس تلائم جسده؟ أو قد يعني هل يبدو جسدي على هذا النحو؟ أو قد يريد الإشارة إلى تغيرات طرأت على جسده. لذلك لابد لنا من التنبه إلى الطريقة التي تستخدم فيها الكلمات لأننا إذا تنبهنا إلى هذه الطريقة فإننا نستطيع تحديد المعنى بدقة، فالمعنى عند فتجنشتين «هو نوع من الفراسة»[١٣]. وعدم تفرسنا في استشفاف المعنى يوقعنا في الخلط بين الاستخدامات المختلفة للفظ الواحد.

١٢ – البحوث، القسم الأول، فقرة ٤١٠، ص ٣٠٧

١٣ – البحوث، القسم الأول، فقرة ٥٦٨، ص ٢٤٥

٥- كلمة «يكون» «is».

- الوردة تكون حمراء.

- اثنان في اثنين تكون أربعة[١٤].

يختلف معنى كلمة «يكون» في العبارتين السابقتين، وذلك لأن استخدامها في العبارة الأولى مختلف عنه في العبارة الثانية، ففي العبارة الأولى يشير الاستخدام إلى فعل الكون[١٥]، أما في العبارة الثانية فيشير إلى علاقة التساوي، ولذلك فإننا لانستطيع أن نضع بدلاً من كلمة «يكون» في العبارة الأولى علامة «المساواة، =» في حين نستطيع القيام بمثل هذا الاستبدال في العبارة الثانية. هنا لابدَّ من الإشارة إلى أن الاستخدام يتحدد بقواعد النحو، ذلك أنَّ هذه القواعد هي التي تسمح لنا باستخدام كلمة «يكون» بطريقتين مختلفتين، ولذلك نجد فتجنشتين يؤكد أهمية معرفة قواعد النحو في مواضع عدة.

٦- لنفكر في استخدام آخر لألعاب اللغة. أرسلُ شخصاً يشتري أشياء من السوق، أعطيه قصاصة من الورق مكتوبٌ عليها هذه العلامات «خمس تفاحات حمراء» يأخذ هذا الشخص الورقة إلى صاحب المتجر الذي يفتح الدرج المكتوب عليه علامة «تفاح» ثم يبحث عن كلمة «أحمر» في قائمة أمامه، ويجد نموذجاً لهذا اللون في مقابل تلك الكلمة، ثم ينطق بسلسلة من الأعداد الصحيحة -التي يُفترض أنه يعرفها عن ظهر قلب- حتى يصل إلى العدد خمسة وهو يتناول مع كل عدد يقوله تفاحة من الدرج لها نفس لون النموذج[١٦]. يقدم فتجنشتين هذا المثال لملاحظة كيفية استعمال

١٤- البحوث، القسم الأول، فقرة٥٥٨، ص٢٤٢.

١٥- لايظهر فعل الكون في اللغة العربية وإنما يكون مستتراً، أما في بعض اللغات الأجنبية فيظهر، ذلك أننا في اللغة العربية لانقول: «الوردة تكون حمراء»، وإنما نقول «الوردة حمراء»، وقد ذكرنا كلمة «يكون» في النص لأن اللغة الإنكليزية تُظهر فعل الكون ولكي يستقيم الشرح.

١٦- البحوث، القسم الأول، فقرة١، ص٤٨.

الأعداد وكيف نستخدم لعبة العد في حياتنا ، ذلك أن البائع كان يأخذ حذره فلايعد تفاحة واحدة مرتين أو يغْفل عن تفاحة فلا يعدّها ، بحيث يتساوى العدد الموجود في الورقة مع عدد التفاح الموجود في السلّة . ولو وضع البائع «ست تفاحات» أو أربع في السلة ، لقلنا : إنه لايعرف كيف يستخدم الأرقام أو اللعبة اللغوية الخاصة بالأرقام .

٧- يكتب أحد الأشخاص هذه السلسلة ، ١ ، ٥ ، ١١ ، ١٩ ، ويطلب من شخص آخر أن يكمل السلسلة بنفس النظام الذي تسير عليه ، يتفكر هذا الشخص بالسلسلة ثم يقول : أستطيع أن أكمل . ولكن ماذا حدث هنا؟ لقد قام هذا الشخص باستعمال خبراته المتعلقة بالرياضيات ، إذ وضع عدداً من الفروض التي تساعده على الاستمرار في السلسلة إلى أن توصل إلى الفرض الصحيح ، إذ قام بتجريب الصيغة التالية : (س= ن٢ +ن -١) ووجد أن العدد التالي يتفق مع الفرضية(١٧).

أما الآن وبعد أن استعرضنا بعض الألعاب اللغوية ، فلنحاول استخراج بعض السمات العامة لهذه الألعاب :

١- إن وظيفة اللغة في الرسالة هي التقرير ولذلك فإن كل العبارات اللغوية إنما تشترك بهذه السمة . أما بالنسبة للألعاب - اللغوية ، فليس هناك مثل هذا العنصر المشترك الذي يجعل كل الألعاب تشترك بصفة معينة نستطيع استخراجها من تأملنا بألعاب اللغة . لنأخذ الألعاب المختلفة ، فإننا لن نعثر على شيء مشترك يجمعها ، هناك -مثلاً- لعبتا الورق والطاولة «الزهر» ، نحن يمكن أن نعثر على عنصر مشترك يجمع بينهما ، ذلك أن

١٧- إن العدد التالي بحسب هذه الصيغة هو «٢٩» وهذا هو العدد الخامس في السلسلة ، ذلك لأننا لو وضعنا العدد «٥» مكان «ن» لأصبح على النحو التالي س=٥^{٢} + ٥-١ =٢٩ ، أما إذا عوضنا بـ«ن» العدد «٦» لأصبحت الصيغة س=٦^{٢} +٦ -١ =٤١ . . وهكذا تصبح السلسلة ١ ، ٥ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٥ ، . . بحيث يكون التالي أكبر من فرق التالي السابق بـ٢ ، أي ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، . . . راجع ، البحوث ، هامش المترجم رقم ٧٩ ، ص١٢٢ .

اللعبتين تعتمدان على «الحظ»، لكن ماذا لو أدخلنا إلى هذه المقارنة لعبة الشطرنج؟ سنجد أن الشطرنج لا يعتمد على الحظ. لنأخذ سمة أخرى للألعاب وهي سمة الربح والخسارة، تشكل هذه السمة العنصر المشترك للألعاب الثلاث السابقة، لكن هناك ألعاب لايدخل الربح أو الخسارة في حساباتها، وذلك عندما ننظر إلى طفل يلعب مع نفسه، إذ يقذف الكرة إلى الحائط ثم يعود فيمسكها. على هذا النحو، نجد أننا كلما حاولنا إيجاد عنصر مشترك بين الألعاب فإنه سرعان ما يفلت منا. هذا الأمر، أي فقدان العنصر المشترك هو ما لاحظناه بالنسبة للألعاب اللغوية أيضاً، فقد وجدنا أن لعبة الأعداد تختلف عن اللعبة اللغوية الخاص بكلمة «يكون»، واللعبة اللغوية الخاصة بكلمة «يكون» تختلف عن تلك اللعبة الخاصة بكلمة «هذا»، وهذه الأخيرة تختلف بدورها عن اللعبة اللغوية التي وجدناها بين عامل البناء ومساعده.

غير أنه، وإذا لم يكن هناك أي عنصر مشترك بين هذه الألعاب، فإن هناك على الأقل ما يسميه فتجنشتين «بالتشابهات الأسرية»، إذ نجده يقول: «أعتقد أنني لاأكاد أجد تعبيراً يحدد هذه التماثلات أفضل من القول بأنها تشابهات عائلية. لأن أوجه التشابه العديدة بين أفراد العائلة الواحدة مثل: البنْية، والملامح، ولون العينين، وطريقة المشي والمزاج تتداخل وتتقاطع بنفس الطريقة»[١٨]. يريد فتجنشتين أن يقول: إنه وبالرغم من عدم وجود عنصر مشترك بين الألعاب اللغوية بشكل خاص، فإن هناك ملامح عامة تجمع بين هذه الألعاب، وهذه الملامح العامة تشبه التماثلات الموجودة بين أفراد الأسرة الواحدة. وهنا يمكن أن نشير إلى أن كل الألعاب اللغوية هي في النهاية ألعاب وهذه إحدى الملامح المشتركة، كما أن كل الألعاب اللغوية إنما تعتمد على طريقة استخدام الألفاظ وهذا ملمح آخر.

٢- نخطئ إذا ما اعتقدنا بأن هناك «مظهراً موحداً للكلمات»[١٩]، إن

١٨- البحوث، القسم الأول، فقرة٦٧، ص٨٧.

١٩- البحوث، القسم الأول، فقرة١١، ٥٣.

هذا الخطأ يشبه مانراه في غرفة القاطرات، حيث يوجد مقابض كثيرة وكلها متشابه بدرجات متفاوتة، غير أن لكل من هذه المقابض وظيفة أو وظائف معينة، فهناك مقبض خاص بالوقوف، ولهذا المقبض عدة حركات ولكل من هذه الحركات دور معين في عملية الوقوف، كما يوجد مقابض أخرى خاصة بالتحويل، وثالثة خاصة بالمضخة، ورابعة خاصة بتنظيم الصمام[٢٠]. وهذا هو حال الكلمات فنحن يجب ألا نعتقد بأن للكلمات في ألعاب اللغة مظهراً واحداً وبالتالي وظيفة واحدة، وإن عدم تنبهنا لهذه الوظائف المختلفة، كثيراً ما يوقعنا في الملابسات التي تنشأ عنها المشكلات الفلسفية.

إن الكلمات في وظائفها العديدة تشبه «الأدوات الموجودة في صندوق عددٍ أو آلات: فهناك مطرقة، وكمّاشة، ومنشار، ومفك، ومسْطرة، ووعاء للغراء، ومسامير...»[٢١]. إن وظائف ألعاب اللغة تختلف كما تختلف وظائف هذه الأشياء، كما أن لكل واحد من هذه الأشياء والألعاب، وظائف عديدة تقوم بها.

٣- نخلص مما سبق إلى إن حل المفارقات الفلسفية لايتم عن طريق تعريف الكلمات، وإنما بوساطة معرفة طريقة استخدام تلك الكلمات في الألعاب اللغوية. ذلك أن الكلمة، إذا كانت معرّفة فإن ذلك لايحل مشكلاتنا الفلسفية. لأن معنى الكلمة لايتحدد بوساطة التعريف بل بوساطة معرفتنا لكيفية استخدامها في سياقات وألعاب لغوية مختلفة. وهذه هي طريقة فتجنشتين لحل التناقضات والمفارقات الفلسفية. ذلك أن التعريفات كثيراً «ما تفشل في حل المفارقات»[٢٢]. على هذا النحو يغدو التعريف عند فيلسوفنا غير قادر على الإلمام بغنى الألفاظ والإحاطة بكل استخداماتها، ولذلك فإن التعريف يشبه السجن الذي يحاول أن يحد من حرية الكلمات

٢٠- البحوث، القسم الأول، فقرة١٢، ص٥٣.
٢١- البحوث، القسم الأول، فقرة١٢، ٥٣.
٢٢- البحوث، القسم الأول، فقرة١٨٢، ص١٤٢.

ويمنعها من القيام بمهمات كثيرة. ولذلك نجد فتجنشتين يهاجم «التعريف» ويعده قاصراً عن الولوج إلى حقيقة الكلمة. هكذا يبدو أنه من العبث البحث عن «تعريف» لكلمات لايمكننا حصر استخداماتها.

ذلك أن الكلمات، تكتسب حياتها ومعناها بالاستخدام، فنحن نتكلم وننطق بالكلمات، ثم بعد ذلك تنشأ لدينا صورة عن حياة الكلمات[٢٣]. «إن كل كلمة تبدو بذاتها -شيئاً ميتاً. ما الذي يمنحها الحياة؟ إنها تحيا بالاستخدام. هل دبّتْ فيها أنفاس الحياة حينئذ؟ أم أنّ الاستخدام نفسه هو حياتها؟»[٢٤]. من ذلك يبدو أن الاستخدام هو الذي يمنح الحياة للكلمات وفتجنشتين يشبه الكلمات بالسهام، فالسهم ليس له معنى وإنما هو عبارة عن خط ميت، مكتوب على ورقة لايرقم بأي شيء، ولكن يكتسب هذا الخط معناه عندما نستخدمه للإشارة إلى مكان معين، فهو لايشير إلى شيء إلا حين يستخدمه الكائن الحي[٢٥]. وهذا هو حال لسان الكلمات.

قبل أن ننهي حديثنا عن ألعاب اللغة، لابد من التوقف عند دور التعريف الإشاري بالنسبة لألعاب اللغة. إن التعريف الإشاري ليس حركة من حركات الألعاب اللغوية، وإنما هو بمثابة إعداد لهذه اللعبة، ذلك أن تسمية الأشياء أو الإشارة لها يشبه وضع قطع الشطرنج في مكانها الصحيح على الساحة استعداداً للّعب. على هذا النحو، فإن تسمية الأشياء كالمنضدة، أو الكرسي، أو الكتاب، ليس لعبة لغوية بقدر ما هو تأهب للّعبة، وكما أن لعبة الشطرنج لا يمكن أن تتم إلا إذا وضعنا القطع في مكانها الصحيح، فكذلك ألعاب اللغة لا تتم، إلا إذا قمنا بتسمية الأشياء كحركة إعدادية

٢٣- البحوث، القسم الثاني، ص٣١٥.
٢٤- البحوث، القسم الأول، فقرة٤٣٢، ص٢١٣.
٢٥- البحوث، القسم الأول، فقرة٤٥٤، ص٢١٨ -٢١٩.

للعبة. يقول فتجنشتين: «إن تسمية شيء ما يشبه وضع بطاقة على الشيء، ويمكن القول بأن هذا بمثابة تأهب لاستخدام كلمة ما»[٢٦].

يمكن أن نعقد مقارنة بين بنية اللغة في المرحلة الأولى متمثلةً بالرسالة وبين بنية اللغة في المرحلة المتأخرة متمثلةً بألعاب اللغة وطريقة استخدام الكلمات. ففي الرسالة كانت اللغة تتألف من قضايا أما بنيتها فتتكون من ترابطات الأسماء فيما بينها وهذه البنية تتغير بتغير أو تبدل هذه الترابطات، أما في البحوث فإن بنية اللغة تتغير بتغير استخدام الكلمات واللعبة اللغوية التي ترد فيها هذه الكلمات. في الرسالة كان هناك ثلاثة أنواع للقضايا فهي إما قضايا تقريرية أو تحصيل حاصل أو تناقض، أما في البحوث فهناك عبارات لا حصر لها، تتعدد بتعدد طرق استخدامها. يعود ذلك إلى أن فتجنشتين وفي الرسالة كان يقول بوظيفة واحدة للغة وهي الوظيفة التقريرية، أمّا في البحوث فإن وظائف اللغة لم تعد تنحصر في عدد معين. ولذلك نجد أن العبارة في الرسالة لها معنى واحد، أما في المرحلة المتأخرة فلها معان عديدة. مصدر هذا الغنى في المرحلة المتأخرة هو اللغة العادية، ذلك أن فتجنشتين، في الرسالة، لم يكن يحلل اللغة العادية أي لغة الحياة اليومية، وإنما كان يحاول إيجاد لغة مثالية منطقية أي إنه كان يحلّل هذه اللغة المنطقية فقط.

كما يمكننا القول: إن فتجنشتين لم يرفض الوظيفة التقريرية للغة أو وظيفتها في تسمية الأشياء، لكنه يضيف للّغة وظائف عديدة. لننظر إلى الكلمات التالية: «أوه!، النجدة!، لا!» بعيداً!»[٢٧]. لاشك في أن القول بأن لهذه الكلمات مسمّيات خارجيةً هو كلام يخرج اللغة عن طبيعتها. يقول فتجنشتين: «إن المفارقة لن تختفي إلا حين نتخلّى بطريقة جذرية عن الفكرة التي مؤداها أن اللغة تعمل دائماً بطريقة واحدة أو تخدم دائماً نفس الغرض»[٢٨].

٢٦- البحوث، القسم الأول، فقرة٨٧، ص٩٨.
٢٧- البحوث، القسم الأول، فقرة٢٧، ص٦٢.
٢٨- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٠٤، ص١٧٩.

من الاختلافات الأخرى التي يمكن تلمّسها بين الرسالة والبحوث، هناك فكرة معيار الصدق، فمعيار الصدق لقضايا الرسالة هو مطابقتها للوقائع التي تمثلها، أما تحصيل الحاصل فإن معياره هو الاتساق الذاتي. أما في البحوث فالوضع مختلف، ذلك أن معيار صحة استخدام ألفاظ اللغة هو طريقة استخدامها في اللغة الجارية. هذه اللغة لغة صحيحة تماماً -عند فتجنشتين- ولذلك فإنها تصلح لأن تكون معياراً نقيس به مدى صحة استخداماتنا اللغوية. إن هذه الطريقة في القياس وجدناها عند مور الذي كان يقيس أقوال الفلاسفة باللغة العادية، فإذا وجدها متوافقة مع هذه اللغة، فإنه يعدها صحيحة، أما إذا لم تكن كذلك، فإنها مضلّلة ولا بد من إعادة النظر فيها. حتى لايختلط الأمر، لابد من القول إن فتجنشتين ليس لديه مقياس نموذجي نقيس بوساطته صحة ألعاب اللغة، وإنما صحتها تكمن بمقارنتها باللغة العادية. وهذا يعني أنه لايوجد استخدام لكلمة أفضل من استخدام آخر، أو استخدام أصدق من استخدام آخر[٢٩]. ذلك أن الاستخدامات كلها صحيحة إذا ما جاءت وفق الاستخدام العادي للكلمات.

أما الآن، فلنتبين كيفية تناول نظرية المعنى في الاستخدام لكل من الميتافيزيقا والحالات النفسية والعمليات العقلية بالإضافة إلى تناولها للعلاقة بين اللغة والفكر، وبعبارة أخرى كيفية تناول نظرية المعنى في الاستخدام للفلسفة ومشكلاتها.

أولاً- الميتافيزيقا

يشكل نقد المفاهيم الميتافيزيقية إحدى المهام الأساسية التي ألقاها فتجنشتين على عاتق «البحوث». حيث نجده يبين كيفية نشوء هذه المفاهيم ذات الطابع الوهمي.

٢٩- محمود زيدان: في فلسفة اللغة، ص١١٠.

ترتبط مشكلات الميتافيزيقا في البحوث بسوء استخدام اللغة، وهذا أمر لاحظناه في الرسالة، إذ كانت اللغة ذات طابع تقريري تشير إلى وقائع، وقضايا الميتافيزيقا هي التي لا تشير إلى وقائع، وبالتالي فلا معنى لها، لأن وجود الوقائع هو الذي يمنح القضايا المعنى. فتجنشتين المتجدد رفض أيضاً الطابع الميتافيزيقي للألفاظ بحجة أن هذا الطابع ناشئ عن سوء استخدامنا للّغة وعدم تنبهنا إلى كيفية عمل هذه اللغة.

من الألفاظ الميتافيزيقية الأكثر انتشاراً، والتي تنشأ عن تحميلنا للّغة ما لاتتحمله أو ما هو خارج عن طبيعتها، هناك لفظ «الماهية»؛ الماهية الخافية عنا. أما فتجنشتين فإنه يقدم فكرته عن الماهية على أساس أن الماهية ليست شيئاً خافياً لايمكن رؤيته أو الإحاطة به بنوع من التنظيم، فمثلاً إن ماهية اللغة كامنة في طريقة استخدامنا لألفاظها وعباراتها ولا وجود لماهية خفية هي التي تحدد طبيعة اللغة. ولكن كيف تتكون هذه الماهية الخفية؟ إنها ببساطة نتيجة لسوء استخدامنا للّغة، ذلك أننا ننسب للكلمات طابعاً ماورائياً خفياً يخرجها من السياق الطبيعي لاستخدامها. يقول فتجنشتين في ذلك. «إن سوء فهم منطق اللغة يغرينا، يجعلنا نظن أن هناك شيئاً غير عادي، شيئاً فريداً، يجب على القضية أن تحققهُ، وهكذا فإن سوء الفهم يجعل الأمر بالنسبة لنا يبدو كما لو كانت القضية تفعل شيئاً عجيباً، (القضية شيء عجيب!) هنا يكمن أصل ومنشأ التسامي أو الإجلال في اعتبارنا للمنطق. وهو الميل إلى افتراض وجود وسط خالص بين علامات القضية وبين الوقائع، أو هو أيضاً محاولة تنقية العلامات نفسها، والتسامي بها. لأن صورنا في التعبير، تمنعنا بكل الطرق من أن ندرك عدم وجود شيء غير عادي متضمن فيها، وذلك بأن تجعلنا نسعى وراء أوهام»[٣١].

لذلك نجد فتجنشتين ينصحنا، بالابتعاد عن الطابع الفوقي للكلمات، لأن معنى الكلمات إنما يتحدد بشكل فعلي وليس بشكل فوقي. وذلك من

٣١- البحوث، القسم الأول، فقرة٩٢ -٩٣ -٩٤، ص١٠٢.

خلال النظر إلى استخدام هذه الكلمات. على هذا النحو يتضح لدى **فتجنشتين** «ضرورة التنبه إلى أننا واقعون تحت وهم أنّ ما هو خاص وعميق وجوهري في بحثنا، إنما يكمن في محاولة هذا البحث بلوغ الماهية الفريدة للغة. أي النظام القائم بين التصورات الخاصة بالقضية، واللفظ، والبرهان، والصدق، والخبرة، وغير ذلك. وإن هذا النظام هو نظام -فوقي خاص بما يمكن تسميته بالتصورات الفوقية. في حين أنه، بالطبع، إذا كان هناك استخدام للكلمات التالية: «لغة»، «خبرة»، «عالم»، «الصدق»، فينبغي أن يكون استخداماً متواضعاً مثل استخدام الكلمات التالي: «منضدة»، «مصباح»، «باب»[٣٢]... على هذا النحو، نجد أن ماهية اللغة هي في معرفة طريقة استخدام ألفاظها وعباراتها. ولذلك لابد من أن تكون قواعد النحو واضحة بالنسبة لنا ولأن معرفة هذه القواعد بشكل جيد تساعدنا على تكوين رؤية واضحة وشاملة لاستخدام الألفاظ، وبالتالي نستطيع أن نتخلص من خطر عدم فهم لغتنا فهماً جيداً. هكذا يؤكد **فتجنشتين** أن «المصدر الرئيسي لفشلنا في الفهم، هو أننا لانطلب الرؤية الواضحة والشاملة لاستخدام ألفاظنا، فقواعدنا النحوية ينقصها هذا النوع من الوضوح.. إن الماهية يتم التعبير عنها بوساطة قواعد النحو»[٣٣].

أما الآن فلنر كيف تنشأ الماهية الخفية للفظ «الفهم». إننا نقول عن عبارة ما إننا نفهمها، إذا ما عرفنا كيف نستخدمها وعلى ذلك فإن الفهم يتوقف على معرفة الاستخدام، وذلك من خلال النظر إلى السياق الذي يرد فيه لفظ «الفهم». إنني أفهمك، إنني أفهم هذه العملية الحسابية، إنني أفهم هذه القصيدة، ولكن ماذا يحصل عندما أقول إنني أفهم؟. قد يُطلب من شخص أن يكمل المتوالية التالية: ٢، ٦، ١٨، ٥٤، ١٦٢، يتفكر هذا الشخص بالمتوالية ثم يقول بعد لحظات: «إنني أفهمها وأستطيع أن أكملها»

٣٢- البحوث، القسم الأول، فقرة٩٧، ص١٠٣

٣٣- البحوث، القسم الأول، فقرة٣١٧، ص١٩٧.

وإذا ما سألناه وكيف فهمت؟ فإنه يقول لنا إنه قام باللجوء إلى خبراته بالعمليات الحسابية. ما يريد أن يقوله فتجنشتين من كل ما سبق، إن الفهم ليس عملية عقلية مجردة أو ماورائية وبالتالي ليس للفهم ماهية خفية، وإنما هو عملية مرتبطة بالخبرات وبطريقة استخدامنا للكلمات وبالألعاب اللغوية. أي إنه لاوجود لكائن عقلي اسمه «الفهم» يمكن أن نفصله عن الخبرة وطريقة استخدامنا للغة. يقول فتجنشتين في ذلك: «حاول ألا تفكر في «الفهم» بوصفه عملية عقلية على الإطلاق، لأن هذا التعبير هو الذي يوقعك في الخلط»[٣٤]. على هذا النحو، نجد أن الفهم لايعني سوى ما قمت به، ولا وجود لأي حالة مفارقة لهذا السلوك.

هكذا يرى فتجنشتين: أن فكرة «الماهية الخفية» هي التي تعطي الكلمات طابعاً ميتافيزيقياً، في حين أن الكلمات إذا ما نظرنا إلى طريقة استخدامها فإنها لاتحمل هذا الطابع. يقول فتجنشتين: «حينما يستخدم الفلاسفة كلمة مثل معرفة أو وجود أو موضوع أو أنا أو قضية ويحاولون إدراك ماهية الشيء، فينبغي على الإنسان أن يسأل نفسه: هل تستخدم الكلمة بالفعل دائماً على هذا النحو في لعبة اللغة التي تكون بمثابة موطنها الأصلي؟ إن ما نفعله هو إعادة الكلمات من استخدامها الميتافيزيقي إلى استخدامها اليومي»[٣٥].

ثانياً– الحالات النفسية

يناقش فتجنشتين الألفاظ ذات الطابع النفسي، ويتوصل إلى أن معاني هذه الألفاظ لا يتحدد بدراسة العمليات الباطنية التي تجري بداخلنا، وإنما يتحدد معناها من ملاحظة الاستخدامات اللغوية المختلفة لهذه الألفاظ. يضاف إلى ذلك، فإن هذه الألفاظ لا تصف حالاتنا النفسية وإنما حسبها أن تكون رموزاً أو وسائط تشير إلى تلك الحالات، ذلك أننا لانستطيع أن نعرف أي شيء عن هذه الحالات سوى أننا نشعر بها، وأنها موجودة لدينا في هذه اللحظة.

٣٤- البحوث، القسم الأول، فقرة١٥٤، ص١٢٤.

٣٥- البحوث، القسم الأول، فقرة١١٦، ص١٠٨.

ونتساءل الآن كيف تشير الكلمات إلى الإحساسات؟

هنا لا يوجد أي مشكلة فنحن دائماً نتحدث عن إحساستنا ونسمّيها بأسماء. لكن كيف تقوم الرابطة بين الاسم والشيء المسمّى؟ أي بين الاسم والإحساس؟ وكيف يتعلم الإنسان معنى أسماء الإحساسات؟ كمعنى كلمة «ألم» مثلاً. كثيراً ما ترتبط الأسماء بالتعبيرات الطبيعية عن الإحساسات وتستخدم بدلاً منها، فالطفل يؤذي نفسه ويصرخ، ثم يتكلم معه الكبار ويعلمونه صيحات الاستغاثة، ثم الجُمل بعد ذلك، أي إنهم يعلمون الطفل سلوكاً جديداً إزاء «الألم»، هكذا فالتعبير اللفظي عن الألم يحل محل الصراخ لكنه لا يصفه[٣٦]. على هذا النحو، فإن الألفاظ التي نشير بها إلى إحساساتنا لا تحل محل تلك الإحساسات، ولكن لماذا لا تتصف هذه الألفاظ كألفاظ الألم والحزن حالاتنا النفسية؟ لأننا ببساطة، لا نعرف عن ألمنا أو حزننا سوى أننا نشعر به في هذه اللحظة وحسب وبالتالي فلا جدوى من التوجه إلى حالاتنا النفسية للحصول على معرفة عن هذه الحالات. يقول **فتجنشتين**: «إذا كنا نستخدم كلمة «يعرف» استخداماً عادياً (وكيف ينبغي أن نستخدمها بخلاف ذلك؟) فغالباً ما يعرف الآخرون متى أكون متألماً. - أجل! لكن ليس بنفس اليقين الذي أعرف به أنا نفسي ذلك!- فلا يمكن أن أقول على الإطلاق (إلا على سبيل الدعابة) إنني أعرف أنني أتألم. إذ ما المفروض أن يعنيه هذا [القول]، إلا أنني أتألم؟

لا يمكن القول بأن الآخرين لا يعلمون شيئاً عن إحساساتي، إلا عن طريق سلوكي فقط، -لأنه لا يمكن القول بأنني أعلم عنها شيئاً. إنها [فقط] قائمة لدي. والحق هو أنه مما يكون له معنى أن أقول عن الآخرين، إنهم يشكّون فيما إذا كنت أتألم، لا أن أقول ذلك عني أنا نفسي»[٣٧]. ما يريد قوله **فتجنشتين**، إن الآخرين لا يعلمون شيئاً عن إحساساتي أو آلامي لأنني

٣٦- البحوث، القسم الأول، فقرة ٢٤٥، ص ١٦١ -١٦٢.

٣٧- البحوث، القسم الأول، فقرة ٢٤٦، ص ١٦٢.

أنا نفسي لا أعلم شيئاً عنها سوى أنني أحسُّ بها، فالإنسان لايعرف شيئاً عن إحساسه بالألم، سوى أنه يتألم، ولا يعرف شيئاً عن الإحساس بالخوف، سوى أنه خائف، ولايعلم شيئاً عن الإحساس بالجوع، سوى أنه جائع، كما أنني أشعر أكثر من غيري بإحساساتي، أما الآخرون فيشعرون بإحساساتي من خلال سلوكي. على هذا النحو، فإن أحداً قد يشكّ في كوني أتألم، أما أنا فلا يمكن أن أشك في ألمي. نخلص من كل ما تقدم إلى أن معنى الألفاظ الدالّة على إحساساتنا كالخوف والألم والجوع، يتضح من خلال سلوكنا وطريقة كلامنا المرافقة لهذا السلوك، وبالتالي فإن معنى الكلمات -هنا- لا يتحدد بالقياس إلى العمليات الباطنية التي تجري داخلنا في أثناء نطقنا بتلك الكلمات، ذلك أننا لانعرف شيئاً عن هذه العمليات فهي غامضة بالنسبة لنا، وبالتالي لايجوز الحديث عن شيء لانعرفه وإن كان موجوداً، على هذا النحو، يمكن القول: إن فتجنشتين، وإن كان يعترف بوجود هذه العمليات الباطنية فإنه يقول: إننا لانعرف عنها شيئاً، وإن هذه المعرفة لاتتم إلا من خلال ملاحظة سلوك وكلام الآخرين، إن ذلك هو ما دفع فيلسوفنا إلى القول: «إذا رأى أحد سلوك كائن حي، فقد رأى نفسه»[٣٨].

يتوصل فتجنشتين إلى أن معنى هذه الألفاظ الدالة على الحالات النفسية إنما يتحدد بمعرفة طريقة استخدامها، ولذلك نجده يحاول مراقبة العبارات التي نعبر بها عن حالاتنا النفسية، والانتباه للظروف والملابسات التي ترافق العبارة المنطوقة ويؤكد أنه وبدون هذه الظروف والملابسات لايمكننا أن نتوصل إلى معنى تلك العبارات. هكذا، عندما يحاول شخص أن يصف حالته النفسيّة التي تعتريه، فإنه لابد من التنبه إلى سلوكه وتعبيراته والظروف المرافقة لهذه التعبيرات. على هذا النحو، نتوصل إلى أن وصف

٣٨- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٥٧، ص١٩٣

الحالات النفسية هو لعبة من ألعاب اللغة، لايتحدد معناها إلا بالنظر إلى طريقة استخدام الألفاظ والعبارات والسلوك المرافق لها.

يمكن أن أقول لها: «إنني خائف» ولكن هل تصف هذه العبارة حالة ذهنية معينة؟ وقد يسأل شخص آخر: «ما هذا؟» أهي صرخة تعبر عن خوف أم تريد أن تخبرني بما تشعر به، أما أنها انعكاس لحالتك الذهنية؟. وهل أستطيع أن أذكر له دائماً إجابة واضحة؟ وهل يتعذّر عليّ أن أذكر له إجابة؟ يمكننا أن نتصور هنا أشياء كثيرة شديدة التنوع. مثال ذلك:

- لا، لا، إنني خائف!

- إنني خائف، يؤسفني الاعتراف بهذا.

- مازلت خائفاً إلى حد ما، لكن ليس بالقدر الذي كنت عليه من قبل.

- إنني أعذب نفسي بكل أنواع الخوف[٣٩].

أما الآن فهل نستطيع الإجابة عن السؤال التالي: «ما الذي أفكر فيه حين أقول تلك العبارة؟ -أي عبارة إنني خائف- وذلك مع الانتباه في الوقت نفسه إلى ذاتي كما لو كنت ألاحظ نفسي بطرف عيني. لاشك في أنني لن أجد إجابة، لأنني لاأعرف عن إحساس الخوف سوى أنني خائف، غير أن السؤال الصحيح يكون «ما هو نوع السياق الذي ترد فيه -عبارة إنني خائف-؟[٤٠]» لأن معنى هذه العبارة، إنما يتحدد بالموقف أو السياق الذي قيلت فيه.

٣٩- البحوث، القسم الثاني، ص٢٨٩.
٤٠- البحوث القسم الثاني، ص٢٨٩ -٢٩٠.

ثالثاً– العمليات العقلية

العـمليـات العـقليـة، أيضـاً، يجب أن تُـرجم إلى أقـوال وأفـعـال سلوكية، ذلك أنه لا وجود لحالة عقلية باطنة مفارقة لما أقوله أو أفعله. وعلى ذلك يرفض فتجنشتين ما يقوله الفلاسفة من وجود حالات عقلية باطنة، كالتذكر، والتخيل، والإدراك، والفهم، وهذه الحالات مجتمعة تشكل وجود عقل باطني يكمن خلف أفعالنا وأقوالنا. أما فتجنشتين فلا يقبل بوجود مثل هذا العقل، ويقول إن العمليات العقلية هي نفسها سلوكنا وأقوالنا، وعلى ذلك، فإن أي شخص يمكن أن يدرك العمليات العقلية لدى الشخص الآخر من خلال ملاحظة سلوكه وأقواله. لاينكر فتجنشتين العمليات العقلية الباطنة، ولكنه يربطها بالسلوك والكلام. وبالتالي فلا معنى لحديثنا عن عمليات عقلية باطنة غير معبر عنها في سلوك أو لغة. وهذا هو الخطأ الذي وقع به الفلاسفة وبالتالي فلا معنى للبحث في طبيعة العمليات العقلية، لأن هذا البحث كثيراً ما يوقعنا في أوهام وأنه حسبنا أن نلاحظ السلوك والأقوال والظروف المرافقة. لنستمع إلى فتجنشتين: «ما ننكره هو أن صورة العملية الداخلية [يمكن أن][٤١] تزودنا بفكرة صحيحة عن استخدام كلمة: «يتذكر» بل إننا نذهب إلى القول بأن هذه الصورة بتشعباتها، إنما تحول دون رؤيتنا لاستخدام الكلمة كما هي [مستخدمة بالفعل].

ولماذا وجود العملية العقلية؟ إن [القول] بأنه (قد نشأت في داخلي بالفعل عملية عقلية خاصة بالتذكر)، لايعني شيئاً أكثر من قولي (لقد تذكرت)»[٤٢]. نلاحظ هنا أن فتجنشتين لاينكر العمليات العقلية الداخلية

٤١– ما بين القوسين من عندنا.

٤٢– البحوث، القسم الأول، فقرة٣٠٥–٣٠٦، ص١٧٩.

ولكنه يقول: إنها لاتعني أكثر من سلوكنا. لنستمع ثانيةً: «أَلَسْتَ في حقيقتك سلوكياً متخفياً؟ ألا تقول في الحقيقة إن أياً ما عدا السلوك الإنساني هو مجرد وهم»[٤٣] هكذا تتضح عبارة فتجنشتين «إن العمليات الداخلية بحاجة إلى معايير خارجية»[٤٤].

هنا تتضح مشكلة الفلاسفة ومأساتهم. إنهم يتحدثون عما لايمكن معرفة طبيعته. هكذا يتجاوز الفلاسفة حدود اللغة ويقعون في الأوهام، وعلى هذا النحو، يتم وضع حدود اللغة في البحوث، وهي حدود مشابهة لحدود اللغة في الرسالة. ففي الرسالة تتعين حدود اللغة بحيث لاتعبر عما لايمكن التعبير عنه، وما لايمكن التعبير عنه هو ما يبدو أو يظهر بنفسه، وما يبدو بنفسه هو قضايا الميتافيزيقا وكل الألفاظ ذات الطابع الماورائي. أما في «البحوث» فيطلب فتجنشتين أن لانفكر في أمور لايمكن أن نعيها وعياً كاملاً، ومالا نعيه وعياً كاملاً فهو العمليات العقلية والحالات النفسية. ولذلك، فلابد للعمليات العقلية والحالات النفسية من أن يتم التعبير عنها بطريقة خارجية، وإن هذه التعبيرات الخارجية هي المعايير التي نقيس بوساطتها تلك العمليات. هكذا يبين فتجنشتين للذبابة، طريق الخروج من مصيدة الذباب.

رابعاً– اللغة والفكر

لو نظرنا في الفقرات السابقة لوجدنا أن فتجنشتين يحدد العلاقة بين اللغة والفكر، بحيث تكون اللغة أساساً للعمليات الفكرية. وإن الإنسان حين يفكر في أقواله، فإنه لايفعل أكثر من أن يعني ما يقوله. وعلى ذلك، فاللغة لاتنعزل عن الفكر، ذلك أن العمليات العقلية، إنما تتم في إطار لغوي. معنى هذا أن فتجنشتين لايميز بين اللغة والفكر وبالتالي لا توجد عمليات عقلية مفارقة –تسمى التفكير– مرافقة للغة. يقول فتجنشتين «حين

43- L. Wittgenstein, Philosophical Investigations. section 307, 308.

44- Ibid, section 580.

أفكر في اللغة، لا تدور في ذهني «معان» بالإضافة إلى التعبيرات اللفظية! فاللغة هي نفسها أداة الفكر»[٤٥]. يصل هنا فتجنشتين، إلى نتيجة قد لا يقبل بها بعضهم، وهي أنه لا وجود للفكرة بدون اللغة، وقد يعترض هؤلاء بأنه يمكن أن تكون لدينا فكرة قبل أن نجد لها التعبير المناسب، لا بل إن الصعوبة التي نواجهها عندما نريد ترجمة أفكارنا إلى ألفاظ، هي صعوبة مألوفة، أما فتجنشتين فإنه يقول: ولكن «ما الذي كانت تتألف منه الفكرة حين كانت موجودة قبل التعبير؟»[٤٦].

هكذا يتوصل فتجنشتين إلى أن الفكر لا ينفصل عن الكلام، مثلما لا يمكن الفصل بين الإنسان وظله، وذلك على نحو ما حصل «لشليميل»[٤٧] schlemiehl. ولذلك نجد فتجنشتين يهاجم وليم جيمس ١٨٤٢م -١٩١٠م عندما يتحدث عن «التفكير بدون كلام» حيث يستشهد جيمس بمذكرات شخص «أصم وأبكم» كانت تخطر بباله أفكار عن الله والعالم قبل أن يقدر على الكلام. أما فتجنشتين فإنه يشك في كلام هذا الشخص ليقول: إن الحديث عن تفكير غير لفظي هو حديث غير دقيق[٤٨].

نخلص من ذلك إلى أن الإنسان -بحسب فتجنشتين- لا يكوّن تصوراته العقلية وأفكاره، ثم بعد ذلك، يبحث عن القالب اللغوي الذي

٤٥- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٢٩، ص١٨٤.

٤٦- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٣٥، ص١٨٦.

٤٧- هنا يشير فتجنشتين إلى حكاية «بيتر شليميل العجيبة»، ١٨١٤م للكاتب الرومانتيكي الفرنسي «أدلبرت فون شاميسو»، ١٧٨١م -١٨٣٨م الذي حرب مع عائلته من فظائع الثورة الفرنسية، وعاش في فترة الأزمات الروحية والتاريخية بين أفول الرومانتيكية وبزوغ الواقعية. تعبر هذه الحكاية الخرافية، عن قدر رجل مسكين أجيره الشيطان على بيع ظله، تعكس هذه الحكاية محنة الوجدان الرومنتيكي إزاء المرارة وخيبة الأمل القاسية، في ثورات التحرر الألمانية وخصوصاً ثورة ١٨٣٠م التي سقطت تحت ضربات النظم الإقطاعية والعسكرية المستبدة. أما مقصد فتجنشتين من هذا المثال فهو: طالما أنه لا يمكننا عزل الظل عن صاحبه، فكذلك لا يمكن التفرقة بين اللغة والفكر. راجع البحوث، القسم الأول، هامش المراجع ص١٨٧.

٤٨- البحوث، القسم الأول، فقرة ٣٤٢، ص١٨٨.

يناسبها، وإنما استخدامنا للغة ونشؤونا عليها هو الإطار الذي يمكن أن نفكر من خلاله. لابل إن أهمية اللغة عند فتجنشتين، ترتفع لتصبح صانعة لحضارة الإنسان. وأنه بدون هذه اللغة لم يكن للحضارة وجود. ذلك أنه بدون اللغة لايمكن بناء الطرق وصناعة الآلات، وبدون استخدام الكلام والكتابة، لن يستطيع الناس الاتصال ببعضهم. هنا يضيف فتجنشتين وظيفة جديدة لوظائف اللغة، وهي إقامة أسس الحضارة، هذه الوظيفة لم تكن لتتحقق لولا طبيعة اللغة القائمة على تحقيق الاتصال بين الناس. هنا نلاحظ أن هناك وظائف تقام بناءً على الوظائف الأخرى.

* * *

المثقف العربي والعولمة

د. جمال الدين الخضور *

«لا أريد لبيتي أن تحيط به الأسوار من كل جانب إلى أن تسدَّ نوافذه، وإنما أريد بيتاً تهب عليه بحرية ثقافات الدنيا بأسرها، لكن دون أن تقتلعني إحداها من الأرض».

- غاندي-

(*) - د. جمال الدين الخضور: باحث من سورية، له اهتمامات فكرية متعددة. كما له عدة مؤلفات وترجمات منشورة.

١ – مقدمة:

إنَّ التاريخَ المقروء والمعيش هو ناتج الحراك الداخلي للأمم وعلاقاتها (الأمم) التناقضية والتناحرية والاحتوائية، أو المتوازية أو المتقاطعة فيما بينها، . إنَّه تاريخ الحضارات وحواراتها وثقافاتها، التي تنتظم في مجموعة أنساق فكرية، تنتشر حسب عوامل جغرافية وديموغرافية وبيئية متعددة. وكلما كانت منظومة الأفكار الحضارية (حسب سياقها الزمني والتاريخي) ذات قدرة على الانتقال إلى فعل الكتلة الجماهيرية الحاملة لها، كانت ذات انتشار واسع وهام.

فالرسالة الإسلامية، مثلاً، هي ناتج الثقافة العربية، وبالتالي هي الشكل المعرفي الأرقى للعروبة حتى تاريخ نشوئها. استطاعت أن تمتد على رقعة جغرافية وبشرية واسعة. شملت معظم مناطق العالم الذي كان معروفاً في حينه:

إن الفكر العربي في حينه استطاع أن يمتلك أنساقه الخاصة في توضّع «أيديولوجي» خاص لتحمله الكتلة الجماهيرية إلى واقع الفعل والانتشار. وهذه الأنساق الخاصة قد لاتكون ذات صبغة أو صيغة واحدة (دينية، اقتصادية، أدبية، عسكرية . . .) بل تزداد غنىً كلما تعددت مناحي فعلها وتأثيرها، وتعقّد نسيج بنائها. وبنفس الوقت تتطور باستمرار مع قدرتها على حلّ تناقضاتها الداخلية الناشئة في فعل سيرورتها وحركيتها.

والحوامل الناقلة لأنساق الأفكار إلى كتلة الجماهير، المثقفون، بسوياتهم الثلاث، الانتلجنسوي، والمثقف الخاص، والمثقف العام. وتتأثر قدرتهم على الفعل بعوامل عديدة، قد تصل إلى درجة تهميش دورهم، أو إلى حالة إعطائهم العامل الرئيس في الفعل.

وهذا ما كان أيضاً بالنسبة للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية عبر مسارها التاريخي حتى ظهور المرحلة الرأسمالية، حيث تحكمت بقدرة

الانتشار والتوسع عوامل متعددة أهمها إشكالية السوق فكانت المسألة القومية هي الحلّ المرحلي لإنشاء سوق قومي يحدّد آفاق تصريف البضاعة المنتجة. وهذا ما كان تالياً لصراع البرجوازية مع الاقطاعية والكنيسة. حيث أدى انتصار الأولى إلى تعميم مبدأ الليبرالية في الحياة العامة ومطابقة مفهوم الدولة سياسياً مع واقع الوطن الجغرافي قومياً.

لكن ومع ظهور وبلورة علاقات الإنتاج الرأسمالية، والتمركز التالي لملكية أدوات الإنتاج اندفعت تلك المراكز في صراعات حادة فيما بينها باتجاه «البلعمة». تضافر معها تراكم فائض السلع المنتجة، وإعادة إنتاج الرأسمال المالي. وهذا ما أدى إلى ضرورة توسيع سوق تصريف البضاعة. أي إن الاحتكار كان واسماً لوسائل الإنتاج. وكان الهدف هو توسيع سوق تصريف الإنتاج وفائضه.

لكن ومع التطور التالي في آلية الإنتاج الامبريالي وامتلاك القدرة على تحويل وسائل الإنتاج إلى سلع منتجة، بدأت المرحلة التالية في تعميم دائرة الإنتاج الرأسمالي، ونقل إنتاج وسائل الإنتاج إلى الساحات الأبعد عن المراكز ليس بالمفهوم الأفقي فقط بل والشاقولي أيضاً. وهذا ما ترافق بمظاهر ثقافية وإعلامية و «ثقافية إعلانية» خاصة، بحيث يمكننا أن نصل إلى تعريف تقريبي لمفهوم «العولمة»:

باعتبارها التعين الراهن للرأسمالية العالمية في ظل تطور العلم تطوراً هائلاً فتنتقل دائرة إنتاج وسائل الإنتاج من الاحتكار المركزي إلى الانتشار الطرفي، ليس فقط بمعنى الاتساع الأفقي بل وبالعمق أيضاً. إنها حالة فوق امبريالية لم تفقد فيها الامبريالية هويتها أبداً بل اتسمت :

I - باحتكار المعرفة التكنولوجية، بدلاً من احتكار وسائل الإنتاج وهذه إحدى السمات النوعية الواسمة لمنظومة العولمة.

II - السيطرة على السوق العالمية وهذا ما تضافر معه أيضاً سقوط

بلدان أوروبا الشرقية في دائرة السوق الامبريالية، من خلال السلع المنتجة في المراكز الامبريالية، ومن خلال تصدير وسائل الإنتاج بمستوياتها المتعددة.

III - باحتكار وسائل الإعلام والاتصال.

من خلال امبراطوريات العولمة الأخطبوطية

آ - امبراطورية جورج سورس المالية.

ب - امبراطورية بيل جيتس للمعلوماتية.

ح - امبراطورية روبرت بردوك الإعلامية.

والمتتبع لفعل وتأثير وانتشار دوائر التأثير يكتشف بأنها تسير بمنحىً واحد، من المراكز الامبريالية شرقاً وجنوباً وبهذين الاتجاهين فقط.

وهذا ما يدفع بالقارئ إلى تغليب العامل الاقتصادي المذكور أعلاه على أي عوامل أخرى قد تكون مشاركة في انتشار واستمرار سيرورة العولمة، كفعل مستمر غير منتهٍ حتى اللحظة. لكنها تعتمد بالإضافة إلى ذلك على منظومة ثقافية خاصة تشكل الحامل الثقافي «الإعلامي» - ألا وهو الكوكبية التي حُملت على ركائز عدة، أهمها:

١- نهاية التاريخ الفوكويامية.

٢- صراع الحضارات الهتنغتونية.

٣- الحداثة الثالثة -المعلوماتية- التوفلرية.

٤- نهاية المثقف.

٥- العالم قرية صغيرة.

وهذه تختلف بدورها عن «الكونية»، كمنظومة تعبيرية واسمة لنظام الكون الشمولي مكانياً وزمانياً. وعن «العالمية» كسمات مشتركة واسمة

لشعوب وأمم العالم، وعن «الدولية»، كاشتراط تعبيري سياسي يصف المشترك بين دول العالم.

IV - احتكار الموارد الطبيعية:

وبأشكال متعددة، كالاحتلال العسكري المباشر، كما هو حاصل بالنسبة لاحتكار النفط العربي عبر الاحتلال الأمريكي المباشر للخليج العربي، أو عبر تحطيم البنى الأولية القائمة لدول طرفية مهمّة من حيث مواردها، كما يحصل في الكونغو، ودول أفريقيا المركزية الأخرى.

V- احتكار أسلحة التدمير الشامل

وهذا لايعني فقط احتكار معرفتها التقنية، بل واحتكار اقتنائها، بهدف إبقاء عنصر الرعب قائماً على توسيع سوق التصريف. والتعامل مع الامتلاك بأحد طريقتين:

- إما تحييده، كما هو حاصل في روسيا وبقية الجمهوريات السوفياتية المالكة سابقاً للسلاح النووي، بحيث تستخدمه الدولة ضمن أدوات القهر والرعب الممكنين لتهيئة السوق للتبعية العولمية.

- أو بهدف الانتقال الطرفي عبر دوائره، بحيث يكون تابعاً من حيث قيادته والسيطرة عليه للمركز الامبريالي، بهدف تغيير صوري لمراكز قوى استخدام هذا السلاح كما هو حاصل في الهند وباكستان.

انطلاقاً من ذلك يتعدى قول «العولمة» شبكة ٤٢٦ شركة المتمركزة في الدول الصناعية السبع من أصل ٥٠٠ شركة كوكبية في العالم لينتقل من الشركات المتعدّية الجنسية إلى نظام مركزه حركتها وتوجيهه في الأطراف، وخصوصاً في وطننا العربي. عبر خلق اقتصاديات وسياسات اقتصادية غربية متخلفة وتابعة تعمل على خدمة منظومة الأمركة من خلال دفع تلك الاقتصاديات الهشة إلى الانخراط في تبعية كاملة وشاملة. من خلال مقولات خلق وتأكيد النظام العالمي الجديد، والكوكبية والعالمية وغيرها.

والمتتبع لأحداث النصف الثاني من هذا القرن في وطننا العربي يدرك تماماً معنى هذا، ابتداءً من زرع الكيان الصهيوني على أرض فلسطين مروراً بالحروب التي شُنَّت من خلاله على العرب، مروراً بالحروب الداخلية القطرية بأنواعها وأشكالها المتعددة وصولاً إلى حالة الحصار على غير قطر عربي، وضربه وسحقه مادياً وبيولوجياً. فعندما كانت قوى المركزة الامبريالية تسحق العراق في عام ١٩٩١ كان جورج بوش يدافع عن عملية الإبادة تلك بقوله الشهير «دفاعاً عن نمط حياتنا» «OUR WAY OF LIFE»، فتهدف المركزة الإمبريالية من ذلك إلى تحطيم أية هيكلية تتناقض ومسارها. ويصبح حينها «للدولة» وظيفة أخرى حيث تبدأ بتفكيك ما هو قائم لتصبح المحدلة المهيئة لسيطرة الشركات المتعدية الجنسية بداية، ثم تتنحى عن كثير من مهماتها لتفكك ما تبقى/ الدولة الرخوة بتعبير جلال أمين/

وإذا كان ذلك الوصف ينطبق على أي دولة خارج المراكز الامبريالية (حيث حققت الدولة منذ زمن بعيد معادلها السياسي) فإن مفهوم الدولة القطرية العربية مقبل على التشظي. خصوصاً وأن الدولة القطرية السايكسبيكوية هي نتاج الحراك الرأسمالي تاريخياً. وبالتالي، وضمن تكوينها وانطلاقاً من بنيتها الهشة عاجزة عن بناء المؤسسات المدنية. وبالتالي أيضاً، ليست الدولة القطرية قادرة على إنجاز أي مشروع إلاّ مشاريع الحروب الأهلية. فمشكلات الكيان القطري بنيوية ذاتية:

- غير قابلة على إنجاز مشروع هوية قطرية.
- غير قادرة على مشروعية تنموية مستقلة.
- غير قابلة عبر تكوينها على فعل الاندماج الاجتماعي السياسي للكتلة الاجتماعية.
- غير قادرة على إنجاز مشروع الديمقراطية، بسبب قيامها القسري المخالف لفعل السيرورة التاريخية واعتمادها على نمط الإكراه، الذي أسس

لاحقاً لنشوء مؤسساته الخاصة. وتحويل منظومة فعل القسر إلى قوانين إكراه.

وبالتالي يبدو البحث عن شرعية الدولة القطرية وكيانيتها شكلاً للبحث عن الماء في سراب الصحراء خصوصاً أن التبعية الاقتصادية المفروضة بالواقع القطري يفرض تبعية سياسية لازمة للمركزة الامبريالية والتي تستلزم تشظي الكيانية القطرية على طريق عولمة الوطن العربي بسيادة عناصر القطرية، والقبلية والمناطقية والعشائرية والمذهبية وغيرها. والتي تتدرج جميعها تحت ظاهرة اختراق وتشتت الهوية.

والحروب الدائرة في أقطار الوطن العربي حالياً، العلنية منها والسرية تبدو مثالاً ناصعاً لفعل التشظي والتشتت القائم.

والملاحظ لواقع الثقافة المنتجة في الوطن العربي يدرك وجود ثقافتين:

- واحدة قطرية، تقوم على تبرير الواقع القطري واعتباره ضرورة تاريخية وتدعو للانخراط في منظومة العولمة عبر الكيانية القطرية.

- وواحدة قومية تدرك أن الدولة القطرية عاجزة عن القيام بدور الوطن، وبالتالي فهي عاجزة عن التعامل مع الإنسان العربي كمواطن، بسبب انتفاء عناصر الوطن في المعادل السياسي. وبالتالي تطرح قضية الانخراط في منظومة العولمة تفتيتاً وإلغاءً للهوية العربية. وتتقدم ببديل مختلف يتضمن أحد احتمالين:

- إما الانخراط في مشروع نهضوي عربي تنموي مستقل، يؤسّس لاحقاً لمعادله السياسي الدولة الوطنية العربية الواحدة على كامل التراب العربي، ويتعامل حينها مع منظومة العولمة من الموقع الجديد.

- وإما الانخراط في معادل وطني يتصدى لسيرورة العولمة، عبر امتلاك عناصر التصدي، خصوصاً أن تلك العناصر متوفرة للمشروع العربي، أكثر من أي نقطة في العالم.

وتجربة النمور الآسيوية خير مثال على ذلك. فلكونها نشأت في شبكة العولمة، بدون أية مشروعية تنموية مستقلة تحولت خلال ساعات إلى دجاج آسيوي.

في حين لم تتخلخل البُنى المركزية الإمبريالية في واقع حراكها إلاّ على مبدأ الفعل وردّ الفعل بهدف امتصاص الفائض التالي لعملية التحويل تلك.

-الهوية، المثقف، العولمة-

انطلاقاً من ذلك يبدو سؤال الهوية والعولمة أحد أهم الأسئلة التي من الواجب على الثقافة العربية مواجهتها ومقاربتها والانطلاق في تحليل عناصرها والإجابة عليها، عبر التداخل الجدلي بين سؤال الهوية، وسؤال المشروعية التنموية المستقلة.

فكيف تعاملت الثقافة العربية مع تلك الأسئلة؟

وما هي العناصر التي قاربتها في الأجوبة الأولية؟

بعد التغييرات العميقة التي عصفت بالواقع العربي بعد هزيمة ١٩٦٧، وأعلنت عن الانتقال من التراكم الكمي إلى الانتشار النوعي في عمق التكوين العربي أفقياً وشاقولياً، وذلك، بعد الغزو الأمريكي للخليج العربي إبّان ما يسمى «حرب الخليج الثانية» وسحق العراق، يبرز دور المثقف من خلال قدرته على قراءة الانعطافات الكبرى في تاريخ الشعوب. ويتقدم دور الثقافة كعامل بنائي داخلي لهوية الأمة في سيرورتها الصراعية الصاعدة. وفي هذه الحالة، لايبدو الدّوران مبلورَين، بل إشكاليين، يتأسّسان على واقع محطّم، ومجتمع مهزوم، وخراب عميم، استطاعت من خلاله قوى المشروع الإمبريالي الصهيوني فرض صيغ سياسية متعددة للإقرار بهيمنتها، وبواقع الاستسلام العربي الرسمي. ليس من واقع الاتكاء على الفراغ

الحاصل بغياب القوى النقيضة فقط، بل، بالاستناد على قدرتها في اختراق كلّ عناصر التكوين العربي. [رغم أنني شخصياً أعود بذلك، إلى الغزو الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢، وسقوط بيروت، والإعلان رسمياً عن دخولنا «نحن العرب»، مرحلة الانقراض العربي، والمرتبط تاريخياً وعملياً بانخراط النظام العربي الرسمي في هيكلية المركزة الإمبريالية وأدواتها].

فالثقافة تشكل العامل الذاتي للهوية، أي العناصر البنائية التكوينية لهوية الأمة. فهي التي تعطيها شخصيّتها بعلاقتها مع ذاتها في الآن المناقش، وعبر التاريخ، وفي المستقبل، ومع الآخر بعلاقتها مع «الهويات» الأخرى. لكنّ ذلك لا يعني بالضرورة، أنّ دور المثقف مواز دوماً لحراك الهوية. لأنّ الهوية تكوين أناسي ثقافيّ معرفي تاريخي متحرك مفتوح، في حين يبقى المثقف هو العنصر الفاعل من خلال الذات - الداخل، وعبر الموضوع في إحداثياته المتحركة في الآن المذكور. ففي بعض المراحل قد يتراجع دور المثقف أو يتقهقر، لكن ذلك لا يعني أن البنية الثقافية - «الهوية» - تقهقرت أو تراجعت.

وهذا ما يقودنا إلى مقولة إن البحث عن الهوية لا تقف في موقع الضد مع البحث عن الحرية فهما بالنسبة للاشتراط التاريخي العربي يتكاملان، ولا يتناقضان. فكيف يمكن أن يكون البحث عن الحرية نقيضاً للبحث عن الهوية؟! خصوصاً إذا كانت الأخيرة لا تكتمل ولا تدخل فعل سيرورتها المتحركة المفتوحة إلاّ بتحقّق الأولى. والمدقّق بهذا القول يدرك معنى العلاقة بين الهوية والمثقف. فالمثقف هو فاعل الحرية وأداتها، وبالتالي، لا يمكن أن يكون نقيضها، إلاّ بأوهام وخيالات التفكيكية الميكانيكية، التي تقترح عاماً من الفوضى، يفضي بالضرورة إلى حرية الشركات عابرة القارات والقوميات. أي حرية التحريك اللازم لأمواج التطريف والمركزة. في هذه الحالة يصبح البحث عن الهوية نقيضاً تناحرياً للبحث عن «الحرية». وهذا ما تدعو إليه أيديولوجيا العولمة، ليس باعتبارها منظومة اقتصادية قادرة على

اختراق الزمان والمكان، بل باعتبارها، جملة قيم وبنى أيديولوجية تكرس مفاهيم الدمج والاختراق عبر منظومتها الخاصة، «الكوكبية». أي عندما نقول عن العولمة بأنها منظومة اقتصادية تعني ربط الأسواق العالمية كلها، مع مراكز إنتاج فائض السلعة الإمبريالية في شبكة واحدة يتحكم بإدارتها «كونترول» المركزة والتطريف إلاّ أننا نقصد بالـ «كوكبية»، المنظومة الثقافية المتداخلة تأثراً وتأثيراً بتلك المنظومة الاقتصادية، فتسخّرها، وتتضافر معها، بهدف الهيمنة المطلقة. وبالتالي، تصبح الكوكبية هي الوجه الثقافي الأيديولوجي للعولمة.

فكيف يكون واقع الثقافة العربية، في فعل المواجهة القائمة والمقبلة، انطلاقاً من مقدمتنا وقد بدأت تبدي الكثير من مظاهر الخلل والترنّح، عبر سيريريات متعددة، أهمها تلك التي أعلنت عن «موت المثقف»، بعد أن كان النظام العربي يطمح للتأكد من ذلك من خلال فعله على استمرارية «دولة» الإكراه؟ وكيف نجيب على سؤال العولمة والمثقف العربي أو الثقافة العربية. ولانقصد بالثقافة جملة المفاهيم والمعايير والقيم المادية والروحية المتسقة في منظومة معرفية فقط. بل، نقصد بذلك، الثقافة كأدوات. بحيث لايمكن فصل الثقافة كمفاهيم، عنها كأدوات، إلاّ إجرائياً، أو اشتراطياً، بهدف الدراسة والتحليل. وبالتالي، يمكننا القول إن عملية تنسيق مجموعة عناصر معينة في منظومة ما، فكرية مثلاً، هو ثقافة، كأدوات. مما يعني أن فعليْ الممارسة الأيديولجية والسياسية، يدخلان ضمن هذا النسق. لذلك، يبدو مصطلح الهوية الثقافية، والهوية الأيديولوجية (أيديولوجي هنا، منظومة أو مجموعة نسقية من الأفكار، وليس الفكر الزائف، بتعبير الممارسة الإرادية) مترادفيْن. بمعنى أن الأخيرة تحاول صياغة الوسائل والأدوات لتفتح آفاق الأولى. وهذا ينطبق على علاقة الكوكبية، والعولمة، بالأيديولوجية الليبرالية، كما ينطبق على علاقة التنمية والعدالة وحقوق الإنسان، بالأيديولوجية الاشتراكية والقومية.

وإذا كانت الأولى قادرة على تجديد نفسها عبر مقولات «نهاية التاريخ»و «صراع الحضارات». . . و «التفكيكية» و «مابعد الحداثة»، و «الثورة الثالثة». . . إلخ، فإن مأزق الثانية الذي تجذر بسقوط أنماطها «الأيديوسياسية» بمرحلة تاريخية معينة، عقَّد العلاقة بين منظوماتها وأنساقها وأدواتها ومفاهيمها. مما أدى إلى طرح مجموعة كبيرة من الأسئلة الجادة والحرجة، ليس فقط على الفكر العربي، المأزوم أصلاً، بل وعلى الفكر الإنساني عموماً (بالمعنى المعرفي).

- وإذا كان «المثقفون -بتعبير جمال الدين الأفغاني-، هم أولئك المتعلّمون الذي يتمتّعون بالروح الفلسفية النقدية، ويستخدمونها في مراجعة ماضيهم والتأمُّل في حاضرهم، لكي يفسّروا النبل الإنساني، ويضيئوا الطريق لأبناء أمتهم ويرشدوا إلى سواء السبيل «العضويّون- بتعبير غرامشي، النقديّون- بتعبير ادوارد سعيد، العاملون المفكّرون والمفكرون العاملون -بتعبير طيب تيزيني، قد غُرِّبوا تحت وقع الهزيمة، وضربات الإكراه السياسي، لم يستطيعوا للوهلة الأولى إدراك طبيعة السؤال التاريخي - المأزق، إلاّ أنهم تمالكوا أنفسهم بطلائع هامة، لاحقاً، والتقطوا بعض المفاتيح الموصلة إلى جانب أولي من الأجوبة. خصوصاً أن بعضاً منهم وصل إلى عتبة طرح الأسئلة، رغم الخلخلة الطبقية والفراغ الاجتماعي الذي أحدثه سقوط الشرائح الوسطى في المجتمع. تحت فعل الهرم البرجوازي الطفيلي «المافياوي». مما أفقد أية مشروعية معرفية (ابستمية) حاملها الاجتماعي. فالمثقف العضوي المرتبط بالألم، والمتعشّق بالوجع الجماهيري، لا يخجل من إعلان انتقاله من أطوار التبشير والنبوءة إلى مواقع النقد. فكان عليه أن «ينتظر» حركة التاريخ لتصقل الحامل الجماهيري / الاجتماعي/ ، لمشروعية فعله، عبر التناسق الممكن، للقاع الشعبي بصيغ ما، ممكنة من التحالف الديمقراطي الواسع، وبتعبيراته الأيديوسياسية الممكنة. وهذا لايخصّ الحراك النقديّ للمثقف حاضراً فقط، بل وتاريخياً. أيضاً.

لأن مهمة إنتاج المعرفة الموسومة بحراك المثقف تعني استقلالية موقعه، ليس معرفياً فقط، بل، ونسقياً أيضاً. كما يعني أيضاً قدرته على قراءة الواقع، والإرهاص بالمحتمل الممكن، وبالمحتمل الواجب. وليس فقط قراءة الواقع تحليلياً والركون إليه كما تدعي التفكيكية، مع إهدار كامل لإمكانية الفعل التغييري. لأن آلية إنتاج العناصر المعرفية عبر التطوّر الأناسي الثقافي تاريخياً لم تعنِ، ولا بجانب من جوانبها تفكيك الواقع فقط على طريقة إنتاج السلعة التبادلية أو الاستعمالية وقراءة وكشف ميكانيكية حركتها. فالقراءة النقدية تعني الموقع التالي احتمالياً، ليس من ناحية الممكن فقط، بل، من جهة الضرورة أيضاً. ولا يعيب ذلك تمحوره حول مركز عقائدي كما تحاول التفكيكية توجيه التهمة. لأنها بحد ذاتها بنية عقائدية، تتأدلج بالمنهج والأداة وتكتفي بهما. وهذا ما يشكّل بدوره مظهراً هاماً لفعل العولمة عبر منظوماتها الثقافية. في واقع الحراك الثقافي.

لذلك، كان من المنطقي المتّسق مع آلية الحوار الإجابة على فعل السيرورة الكامن في الهوية، بقراءة كيف تكون الذات مستقبلاً، وكيف تنسج علاقات عناصرها الداخلية، وعلاقاتها بالموضوع والآخر... ويظهر فعل السيرورة جلياً، لأن التحديد القَبْلي المعطى في الماضي التاريخي، يعني التأسيس الأولي، لما آلت إليه جملة العلاقات المكوّنة للبنية الأناسية الثقافية للكتلة الاجتماعية. بحيث نستطيع أن نلخّص العناصر التكوينية في ثلاث مجموعات:

الأولى، وتصف المقدمات القَبْلية، التي نسجها تطوّر محدد في الزمان والمكان، واسمّة للكتلة الاجتماعية العربية بعينها، وهو ما يعني المنظومة القومية العربية. وهذا يصف ما هو ناجز في المنظومة الأناسية الثقافية حتى الآن. ويخص ذلك، اللغة والمخيال الاجتماعي، والذاكرة الجمعية، والبناء الميتولوجي (معناه وحامله المعرفي وليس الثيولوجي)، التاريخ الجغرافي، والسيكولوجيا الجمعية ...

الثانية، وتصف «من أنا»؟ في لحظة النقاش، لتعني كيف تكون منظومة التعبير الذاتي - الهوية - ليست ثابتاً جامداً قائماً في الماضي، إلا بمقدار مايحرك واقع الفعل الكتلي الجماهيري للأمة، والذي يعطيها حركتها التاريخية، عبر القراءة الإرهاصية باتجاه الوعي الذاتي للتكوين القومي ببعده الوطني. أي إنجاز التعبير السياسي الموافق أو المطابق لواقع "من أنا". وهذا مايدلف بنا إلى النقطة الثالثة:

والمعنية بسؤال «كيف أنا» كقراءة للمستقبل، والتي تعني فعل التراكم السيروري من الواقع المعطى في الآن [الحالة القطرية، تحت القطرية ...] باتجاه القومي، ومنه إلى الوطن العربي عموماً. لأن الكيانات القطرية السائدة عاجزة عن تمييز هوية "وطنية" واسمة، مهما حاول النظام العربي قَوْمَنَتها. وذلك لانتفاء عناصر التراكم الكمي والكيفي الواسمة لها. حتى ولو كان البعض يطرح قضية أن «الدولة» القطرية تجاوزٌ للبنية العشائرية، والقبلية. أو أن إنجازها تاريخياً، كان في قدرتها على الدمج العشائري الموروث. فتبدو القراءة التفكيكية في ذلك، قلباً للتاريخ، ليصبح رأسه للأسفل. مكتفية بكيان الدمج العشائري والقَبَلي، مقدمةً لازمة وحيدة للاكتفاء بكيفية طرح الانخراط في المنظومة العولمية.

"الثقافة معرفياً وأدوات"

إن ماسبق يتعلق بالفعل الثقافي كنتاج معرفي عبر آلياته الثلاث المعروفة والمحددة بـ:

أولاً: دور المثقف الانتلجنسوي الذي يطرح أسئلته عبر مايجب أن يكون في المستقبل الممكن والمحتمل بما يتعلق بالفعل الثقافي كحراك هوية مفتوح بحيث يميز دوره باعتبار المثقف القادر على فعل التشييد النقدي

العضوي المتكامل بين منظومة العناصر الثقافية في الآن، وفعلها الصيروري والسيروري التالي: أي مناقشة العناصر الثقافية ليس فقط باحتمال تكونها المعرفي بل مايجب أن تكون في الزمن الإرهاصي.

يتضح من ذلك أن آلية إنتاج العناصر المعرفي عبر التطور الأناسي الثقافي تاريخياً، لم تعن ولابجانب من جوانبها إنتاج السلعة الاستعمالية أو التبادلية التي تتدخل في نتاجها طبيعة السوق المسيطرة. لأن (وكما قلنا) القراءة النقدية تعني الموقع التالي احتمالياً، ليس من ناحية الممكن بل من جهة الضرورة. ويقترح هذا:

أ - الإبقاء على الطبيعة النقدية المستمرة للمثقف، والوقوف ضد أي شكل من وجوه التماهي بينه وبين أي سلطة سياسية أياً كان الموقف الاجتماعي السياسي لهذه السلطة. وهذا لايعني السقوط في موقع وهم النخبة، أو وهم الرسائل التبشيرية، بل يعني الإبقاء على الحراك الديناميكي لعناصر النقد المعرفية في تواصل دؤوب ومستمر.

ب - المثقف يعني الحرية، وحرية العقل تعني الوطن وحرية الوطن تعني حرية الحركة للقاع الجماهيري العربي حامل الأفق الرئيس في المواجهة وصاحب المصلحة الحقيقية فيها، عبر إنجازه مشروعه التنموي النهضوي المستقل على كل الساحة العربية. والمتصادم إلغائياً ووجوداً مع المشروع الامبريالي الأميركي الصهيوني (العولمي).

- فالكتلة الاجتماعية التي تقع عليها أعباء المواجهة غير قادرة على القيام بذلك إن كانت واقعة تحت سطوة فعل العولمة، من قمع واستلاب ونفي وتشرذم قطري أو تحت قطري (عشائري، مذهبي، طائفي، قبلي ... ...).

وهذا مايسوق بالضرورة إلى إلغاء الحروب الاهلية الداخلية العربية التي تقودها محادل العولمة التي تشرخ مجتمعاً عمودياً وفضح مواجهة

القوى التي تديرها أياً كانت تلك القوى وموقعها . كما يعني هذا تعميم الديمقراطية بصيغتها المتعددة وأشكالها وعلى كافة المستويات والصعد مع إطلاق الحريات العامة الملازمة لفعل الجماهير وقاعها الشعبي.

جـ - امتلاك قدرة الخوض في تحديد عناصر خصوصية في المنظومة الثقافية المعرفية وهذا يعني امتلاك القدرة على تمييز عناصر العمومية بحيث لاتدخل إحداهما بديلة عن الآخرى . فالعموميات وتحديدها لا يعني أبداً تمييز عناصر الخصوصية . والخصوصية لاتعني أبداً الإنغلاق بل تعني القدرة في الإجابة على فعل السيرورة المفتوح الكامن في الهوية.

والهوية ليست فعلاً متعالياً عن الواقع أو مستقلاً عنه، بل هي فعل مرتبط به وبمآلاته التاريخية التالية.

إن منظومة العولمة الامبريالية دفعت بالانتاج التقني نفسه ليصبح في موقع السلعة نفسها . لتبقى منظومة الاحتكار الإمبريالي محددة التقنية (كما تحدثنا في بداية دراستنا).

ولكن ذلك لايعني أن المركزية الامبريالية تحاول رسملة العالم على مستوى العمق لأن ذلك يطرح علاقات اجتماعية وإنتاجية متوازية وذات مواصفات خاصة، بل تحاول تحويل الأطراف إلى مستهلكين لأدوات الإنتاج نفسها ككتلة عامة. وبذلك، يبقى الانتقال من عالمية دائرة التبادل " إلى عالمية دائرة الإنتاج " انتقالاً سلعياً تحت تأثير الإبقاء على الاحتكار للمعرفة التقنية وفعل رأس المال المصرفي الطفيلي والقادر على تحويل النمور إلى أرانب . لذلك لاتبدو محولات الارتباط مع المشاريع التنموية للمنظومة عبر المراكز الامبريالية وممثلها صندوق النقد الدولي وأمثاله، عبر عالمية دائرة الانتاج (التي يطرحها صادق جلال العظم نموذجاً)، إلا شكلاً من أشكال التوسع السلعي الأفقي المرتبط بمقولة المراكز والأطراف . من هنا يجدر بنا التأكيد على المشروع التنموي الوحيد المواجه هو المشروع المستقل النهضوي، والذي يعتمد على البنية العربية عموماً . لذلك، عجزت المشاريع التنموية

القطرية، وستبقى عاجزة حتى ولو حسنت نيات القائمين عليها تاريخياً، بسبب انعدام القدرة على التراكم في الساحة القطرية وانعدام البنى التحتية الواسعة أفقياً وعمودياً.

إن طرح منظومة العولمة بأيديولوجيتها السائدة تستدعي موت الهوية القومية، ، مساواة الكيان الصهيوني (كثكنة عسكرية امبريالية) مع البنية المجتمعية العربية في كتلة ديموجغرافية لاتحمل أي إنتماء. وهذا ما يشكل الصيرورة التلقائية لشيخوخة الجنس البشري (الفوكويامية) أو شيخوخة الموروث الثقافي (توفلر) تحت تأثير اجتياح "الموجة الثالثة" - الثورة المعلوماتية والتي تؤدي بالضرورة، وحسب التوفلرية إلى موت الثقافات الإنسانية، وموت اللغة، وموت الأدب. وهذا ماقدمه علي حرب حتى الآن في طرحه لشعار موت المثقف معلناً أن المثقف العربي يعاني من أوهام ستة (وهم النخبة، وهم الحرية، وهم المطابقة، وهم الحداثة، وهم الحرية، الوهم التاريخي)، أودت إلى موته، حتى وصل في آخر مقولاته إلى موت الإنسان.

وهذا التبني الكامل لمقولات الثقافة الأوروبية عندما تحولت دولها إلى جنود أذلاء في جيوش الاجتياح الإمبريالي الأميركي، والتي طرحت في أعقاب فشل تحركات الشرائح المثقفة في أوروبا منتصف الستينات (أحداث باريس وأوروبا، والمظاهرات الطلابية في شهر أيار - مايو ١٩٦٨)، والتي حاولت بآخر أنفاسها التصدي للإنضواء تحت إمرة الوحش الأمريكي، لايمكن أن ينجز مفاهيم جديدة لدور المثقف. فما قاله سارتر ١٩٦٨" بأن المثقف في طريقه إلى الإختفاء، ذلك الذي يفكر في مكان الآخرين" أو ماقاله فوكو" بأن المثقف محكوم عليه أن يختفي من الأفق باعتباره إنساناً يفكر بدل الآخرين". قيل في شروط أنجزت فيها الثقافة الأوروبية دورها التاريخي التبشيري، وكان عليها أن تتأقلم مع الدور الذي طرحه غرامشي أو لوكاتش في طبيعة المثقف العضوي. لذلك لم يكن الدور السلبي (اللافاعل)

الذي امتازت به الثقافة العربية في مرحلة معينة ناتجاً لعوامل ذاتية مرتبطة بالمثقفين أنفسهم، بل كان تالياً لظروف موضوعية مرتبطة بالتكيف الاجتماعي والسياسي للكتلة العربية. حتى عملية التهميش التي أطاحت بدور المثقف الأوروبي، لم تكن ناتجة لعوامل ذاتية، بقدر ماكانت تالية لظروف انخراط فرنسا - شجرة الثقافة الأوروبية - في جيش العولمة الأمريكية، ولانبطاح ألمانيا التي تقف على جبل من فلسفة، أمام ضباع الغابات المارنزية. أما مايخص بريطانيا وملحقاتها، فلقد كانت وبقيت وضمن التأسيس الثقافي المعروف تعتبر نفسها عكاز الساق العرجاء للديناصور.

وبقيت المحاولات التي تبنت التأسيس الفلسفي أو النقدي الذي ساد في أوروبا، مابعد الحرب العالمية الثانية، دون أي امتلاك نقدي. وهذا ماحدث، مع البنيوية بمظاهرها المتعددة، والمدارس الحداثوية، ومابعد الحداثة، والماركسية الميكانيكية ... ... لذلك لم يكن موت المثقف إلا عبارة عن تهميش المثقف الوظيفي لنفسه ولدوره، وحتى عندما يبحثون عن حل من خلال مقولة "المثقف الوسيط" فهم يستبدلون القرود الزرقاء بقرود صفراء.

لذلك علينا أن ننطلق من تحصين دور المثقف والتأكيد عليه، ولوكان المثقف قد مات فعلاً، لما حققت الساحة العربية في مصر، ومن خلال مواجهتها المتواصلة للتطبيع، ذلك التمنيع الحقيقي المتنامي للإنسان العربي.

وتلتقي مقولة «موت المثقف» مع مقولة «عالمية الثقافة»، فإذا كانت الأخيرة تعني إزاحة الخصوصية القومية، وهويتها، باتجاه خلق نمطية إعلامية لاتمت للثقافة بشيء فإنها تهيء الساحة، لموت المثقف العضوي، كوحدة فعل وبناء في التشييد الثقافي. وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة التمييز بين الثقافة كمفهوم، والثقافة كأدوات، وكيف تنشئ هذه الأخيرة بجانب من بنيتها، بوسائط التوصيل التي تعني القدرة على امتلاك مناهج النقد،

ولإيصال النقد، عبر خصوصية اللغة، والبنية الاجتماعية، وغيرها، ممايخص أدوات التعبير . فالثقافة والمعلوماتية يجب أن تسخر بهدف تعزيز الهوية القومية وحمايتها وكشف خصوصيتها وعواملها الحضارية وعناصر الفعل التكويني السيروري فيها، بما يحقق وضعها الإنساني النابض. وبنفس الوقت يجب أن تكون فاعلة باتجاه تعزيز وترسيخ الفكر النقدي الدؤوب، والموقف الاختلافي للمثقف. وهذا مايقتضي التصدي لمفاهيم نسف أو تحييد، أو إلغاء دور الثقافة عبر أدواتها التعبيرية وتحت تسميات مختلفة - فإذا كان المثقف عاجزاً عن القيام بفعل التغيير، فإن دوره النقدي قادر على أن يسند التغيير من خلال فعله وتأثيره على الكتلة الاجتماعية القادرة على المواجهة والتغيير. فالمثقف لم يمت، لأنه غير قابل للموت، مادامت الجماعات البشرية منخرطة في عملية النتاج الاجتماعي. خصوصاً أن المثقف العربي الذي يتميز بعلاقة خاصة باللغة والأرض والتاريخ، تمنحه أدوات خاصة ضد الموت، عدا ذلك، فإن طبيعة المواجهة تفرض على المثقف العربي حراكاً خاصاً ومتميزاً، يبدأ من إنجاز المشروعية الأولية للهوية في صعودها، ولاينتهي مع الدفاع الأولي عن كرامة الوطن واللقمة. وهذه الأولويات تتجاوز عملية الموت، وإن دخلت في مرحلة معينة من التاريخ إطار التهميش، فلأن واقع التغييرات والانعطافات الاجتماعية كان قادراً تحت تأثير الظروف الموضوعية على تحييد الفعالية النشيطة للمثقفين وهذا لايعني موت المثقف، ولايعني موت دوره، إلا لمن يريد أن يرى الواقع ينحدر إلى محطات العولمة.

فالعولمة بمقولاتها المتعددة (كأيديولجيا) مقبلة على سحق ليس فقط البؤساء من أبناء المراكز والأطراف القريبةمنها، بل، والقوميات التي في طور إعادة صقل هويتها على خارطة الكون والتاريخ. يتناول أوليفييه دولفوس في كتابه«العولمة» - ١٩٩٧ هذا الجانب بإسهاب على موضوع «امركة العولمة وديناميتها الاقتصادية، ويرى أنها تخصص أماكن ومناطق

تدعوها أماكن «أمان واستقرار» وذلك للقضاء على الغير مرغوب فيهم أو مراقبتهم. هذا علماً أن سياسة «فرض الحظر على البؤساء» لن تفي بالحاجات المطلوبة على المدى الطويل.

إنها جهنم بالنسبة للقرويين والبؤساء وغير المحظوظين، وهي تفجر بؤساً وفقراً بين الطبقات البسيطة والساذجة والطيبة والتي ترغب في تصديق وعود العولمة، بإنقاذهم من ظروفهم الحياتية البائسة.

إن هذه الجماعات طيبة وصادقة ولا تعرف الانتهازية والاستغلال كما يفعل أولئك الذي يسيرون آلة العولمة. ويضرب الباحث أمثلة دقيقة عن البيرو ونيبال فيقول: وكما في البيرو ونيبال حيث تزداد الفجوة يوماً بعد يوم. إذ هناك حياة الفقر والبؤس إلى أقصى الحدود.

الفروق تزداد بين الذين يستطيعون شراء الأسمدة لتحسين محاصيلهم الزراعية، وبين الذين لا يقدرون على تحصيل لقمة العيش، لذلك يتوجه الفقراء إلى مناطق أخرى بحثاً عن المال. ويضطرون إلى العمل في ظروف دنيئة وسيئة ولا إنسانية (كالمخدرات والدعارة ...) وختم الكاتب بخلاصة سوداوية قاتمة "العولمة ليست أكثر من حركة جهنمية تنطلق بسرعة وتخطف في طريقها ... ... الآمال والأحلام".

/ نقلاً عن جكي دوفيشيان (السفير ١٩/ ٨/ ١٩٩٧)، وهذا مايتطابق مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية، حسب تقرير اللجنة الخاصة. المشكلة لهذا الغرض من جامعة هارفارد عام ١٩٩٦ والمحدد في النقاط الأربع التالية:

١) ـ منع أي هجوم بأسلحة الدمار الشامل، ومنع ظهور أي قوة معادية في أوروبا أو آسيا يمكنها أن تتحكّم في البحار.

٢) – منع انهيار النظام العالمي للتجارة أو أسواق المال أو لمرحلة إمداد الطاقة.

٣) - الحفاظ على البيئة !!!؟؟.

٤) - بقاء واستمرار حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية.

لذلك فإن المواجهة تعني بالضرورة الدخول في حل الإشكاليات المرتبطة بإنجاز المشروع النهضوي العربي، لأنّ قراءتنا تنطلق من أبعاد حضارية ذات تأسيس دقيق في عمق المكان والزمان العربيين. ولأن هذين العنصرين يلعبان دوراً هاماً في الحركة الثقافية، فهما يعنيان تحديداً الخصوصية المميزة للثقافية العربية. بما يحدّد ولو بالمعالم الأولية علاقتها بالعمومية. وهذه الخصوصية لاتعني الانغلاق، بل، تعني القدرة على اكتشاف المهمات الثقافية الخاصة الواسمة لزمن معين ومكان محدد، بانفتاح حضاري على بُنى الثقافات الأخرى. بحيث تحدد المعالم الأولية للأفكار الكلية الكبرى الواسمة للبنية الأناسية العربية في مواجهتها للاجتياح العولمي، ليس بالمفهوم الاقتصادي فقط، بل، وعبر المجالات والزوايا الأخرى الواسمة للمواجهة.

هذه الخصوصية، وتفعيلها هي التي تمنع المركزية الإمبريالية من أن تُغلق علينا الزمان (التاريخ)، أو تدفع تاريخنا للتحطيم والتشظي أمام المكان المُشظى من خلال تسريع مشروع العولمة وخطا محدلته، «المشروع الصهيوني».

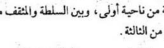
ثانياً: قدرة المثقف بالمفهوم الخاص، والذي يتدخل بإنتاج القيم الثقافية بشكل فعّال، وقراءتها في المحتمل الإرهاصي، في إيجاد صياغة مفاهيمية جديدة قادرة على المواجهة. ومن ثم مقاربة الأنساق الخاصة للثقافة العربية وللمثقفين (بالمفهوم الخاص) مقاربة نقدية قادرة على تنقية البنية الذاتية المتحركة. وذلك، بما يشي بقدرتها على كشف السمات المميّزة للعولمة وقدرتها على اختراق الجسد العربي المشظى، والذي تتطلب منه المركزة الإمبريالية التفتت والتشظي التالي للدخول في رقصتها.

ثالثاً: المثقف بالمفهوم العام، وهذا مايخص أي مواطن ينتمي لكتلة اجتماعية ويقوم بعملية النتاج الاجتماعي، وعليه تستند المكونات الأولية في منظومة العمل الثقافي. حيث تتحول الأفكار الكلية الكبرى إلى قوة فعالة مؤثرة في الحراك اليومي الاجتماعي.

فنقصد بالمثقف العربي إذن: هو الفعالية النقدية الدائمة المطورة للمنظومة المعرفية للأمة في سوياتها (الثقافية والاجتماعية، والأدبية، والسياسية ...)، بما يحقق مشروعية الاستمرارية التصاعدية للسمات الأناسية المعرفية للشعب العربي في سيرورتها، عبر العلاقة الجدلية بين الخاص والعام، باتجاه إنجاز مشروعية خطابها على المستوى الفكري والإستراتيجي والاجتماعي والسياسي، لخلق الدولة الوطنية العربية الواحدة على كامل الساحة الجغرافية التاريخية العربية، لممارسة دورها الإنساني - الحضاري التاريخي وخوض الصراعات الدؤوبة ضد كل معيقات تلك السيرورة.

وهذا مايدلف بنا إلى قراءة المثقف العربي ودوره كأدوات ثقافية وإجرائية في مواجهة العولمة.

يتحدد دور المثقف العربي عبر جدلية العلاقة الثلاثية القائمة بين الجماهير والسلطة من ناحية أولى، وبين السلطة والمثقف من ناحية ثانية وبين المثقف والجماهير من الثالثة.



ونتيجة هذه العلاقة لاتتحدّد بحراك ضلع واحد، بل، بالنتيجة العامة لحراك أضلاعه الثلاثة. فعندما يغيب المثقف أو يُغيب، تصبح النتيجة مرتبطة بعلاقة السلطة بالجماهير، وخصوصاً بما تفرزه الكيانات القطرية من سلطة إكراه وقوانين قسر ولدت مع الكيانات القسرية، التي عاملت الجماهير

كرعية، ورعايا بحيث ولدت بتكوينها العام والجذري بما يتناقض ومسيرة التاريخ وسيرورته.

وهذا مايفرض آلية مقاربة خاصة لفهم طبيعة استجابة رد فعل الجماهير على ماتقوم به السلطة العربية (سياسية أو طبقية) على فعل التمهيد القائم لربط الكيانات القطرية عبر التفتيت والتشظي، في نسيج العولمة، والذي لايمكن أن يتم إلاّ عبر إلغاء الهوية القومية، وعنصرها الذاتي المعبر عنها، "الثقافة"، وبالتالي إلغاء المثقف.

ولكنّنا، وتجاوزاً للتصنيف الغرامشوي للمثقف، يمكننا تصنيف الحراك الثقافي العربي بعلاقته بالعولمة في ثلاث مجموعات:

١ - القبول المطلق.

٢ - الرفض المطلق.

٣ - التعامل الجدلي.

أما المثقفون كأدوات إجرائية في الفعل الثقافي فيمكن تصنيف واقعهم إلى:

١ - **المثقف المؤيّد**: علي حرب (صدمة العولمة في خطاب النخبة، أوهام النخبة، ...) جورج طرابيشي/ إن الإمبريالية هي التشكيلة الواسمة لعصرنا والتي لايمكن تجاوزها في عصرنا الراهن، شئنا ذلك، أم أبينا/ [جريدة الحياة، العدد ١٢٦٧٢، ٩ت ٢ ١٩٩٧].

وهو المثقف الذي يجري في سياق العولمة، ويخضع للإبهار التكنولوجي، والمعلوماتية، ولامانع لديه من الترويج للبضائع الأمريكية [سلعة تبادلية أو ثقافية]، ويعيد إنتاج "المعرفة" في نفس سياق منظومة المراكز الإمبريالية.

٢ - **المثقف العائم**: عابر القارات، المتعدي الجنسية: وهو المثقف الذي يرفض أي نموذج للخصوصية، ويتعدى مفهوم الهوية، ويخضع لنمذجة الكوكبية بتياراتها الثقافية المختلفة.

٣ - المثقف الغائب: (بتعبير مصطفى عبد الغني): المثقف الوظيفي، الذي انخرط في آليات فعل السلطة العربية المعولمة.

٤ - المثقف الأصولي (الأصولوي): وهو الذي ارتد إلى قراءة وتبني التراث بشكل غير نقدي، واعتبره الحل المطلق بكليته.

٥ - المثقف النقدي: العضوي، وهو الذي قصدناه في متن سياق بحثنا. وهو العامل على طرح أسئلة المشروع النهضوي العربي عبر التنمية المستقلة والذي يرتكز على عناصر تأسيس أربعة:

آ - الأصالة: وبما تعنيه من إعادة قراءة التراث بمنظوماته المتعددة من خلال منهج نقدي يفضي بالضرورة إلى الامتلاك النقدي التاريخي للتراث العربي ليس من خلال منهج نقدي يفضي بالضرورة إلى الامتلاك النقدي التاريخي للتراث العربي ليس فقط بمظهره الإسلامي، بل والممتد إلى الألف الرابعة قبل الميلاد.

ب - الحداثة: ليس بمعنى العصرنة، ونماذجها العولمية المطروحة، بل تعني الامتلاك النقدي التاريخي للآخر، وقراءة تجربته في قدرته على استيعاب تراثنا، ليس فقط العربي الإسلامي، بل والسابق لذلك.

ج - الديمقراطية: وبكل مستوياتها ومفاهيمها، ابتداءً من المفاهيم الأبستمية وانتهاءً بالمعايير السياسية عبر حراك عقلاني تنويري، يشمل كافة خطوط النسيج الاجتماعي.

د - التقنية والمعرفة التقنية: وهي المحور الأساسي في الجانب الاقتصادي من مشروع التنمية المستقل، وذلك على مستوى البنية العربية بشكل كامل وشامل.

إن عناصر الاستناد الأربعة المذكورة تحتاج للشغل والحفر والبناء والتشييد من كل المثقفين العرب، رغم إنضوائهم تحت واحدٍ من أربعة تيارات أيديولوجية ذات صفات واسعة: رغم وجود ظلال تداخل وتقاطعات عديدة بينها:

- التيار الإسلامي
- التيار الليبرالي

- التيار الاشتراكي
- التيار القومي

وينحدر هؤلاء المثقفون من تلك الحاضنات الأيديولوجية الأربع، والتي لم تتمكن أي واحدة منها من إنجاز مشروعها لعوامل وأسباب ذاتية وموضوعية معروفة.

والآن، تقف الدولة القطرية على إحدى عتبتين، إما التشظي والدخول في منظومة العولمة والإمحاء والإلغاء الكامل لكل سماتها، وإما الإندماج، باحتمالاته المتعددة في المشروع القومي العربي المنتج لكلّية فاعلة في منظومة العالم، وخصوصاً أن النتاج الثقافي القطري متناقض أصلاً، باتجاه محور حركته، مع البحث عن الهوية القطرية.

لذلك، تدفع الثقافة العربية إلى تجذير عناصر الاستناد في المشروع النهضوي العربي بهدف إنجاز العتبة الحضارية الواسمة لتاريخ أمتنا، والتي تتصدى لفعل العولمة التدميري عبر حل سؤالين:

١ - ويتعلق بالحامل المعرفي لذلك المشروع.

٢ - ويتعلق بالحامل الاجتماعي، الطبقي والذي يتسم بمواصفات جديدة تختلف عن مراحل التاريخ الأولي من هذا القرن. فبعد سحق وتدمير الطبقة الوسطى وشرائحها البينية، انتقل حمل المهمة التاريخية إلى القاع الشعبي العربي، المشتت والمنهك والضعيف حالياً، عبر أدوات اجتماعية سياسية تنضم وتنصهر عبر تحالف ديمقراطي شعبي عربي (بتعبير سمير أمين) عريض، قادر على إنجاز المهمات التاريخية الفاعلة في نقل العناصر المعرفية إلى حاضنات أيديولوجية عريضة، بتعبيراتها السياسية الواسعة والواضحة.

وكل ذلك، لن يتم، إلا بالبدء، عبر البحث عن سؤال الخصوصية والعمومية، والهوية، وعلاقتها مع الحداثة والمشروع النهضوي وفي إنجاز مشروع الوطن الذي يفتح الهوية سيرورتها التاريخية، عبر إنجازها الحضاري القادم، وهذا مايجعلنا قادرين على تفكيك مفهوم النظام العالمي الجديد، كآلية تسيير تنسيقي لمنظومة العولمة.

سيكولوجيا اللغة: المهارات العقلية

تأليف: وليم ليفيلت
ترجمة: صبحي عبدو الموصلي *

سيكولوجيا اللغة هو العلم الذي يُعنى بدراسة العمليات والمهارات التي تشكل الأساس لإنتاج وفهم اللغة من جهة، واكتساب هذه المهارات من جهة أخرى.

تتناول هذه الدراسة الجانب الأول لهذا العلم، والذي يتمثل بالعمليات والمهارات العقلية لإنتاج وفهم اللغة.

---

* - صبحي عبدو الموصلي: باحث من سورية، يهتم بالدراسات النفسية وعلم النفس التخصصي.

على الرغم من أن مصطلح «علم اللغة النفسي» (psycholinguistics) لاقى رواجاً خلال الخمسينات من هذا القرن، إلا أن الدراسة النفسية لاستعمال اللغة قديمة قدم علم النفس ذاته. ففي عام / ١٨٧٩/ على سبيل المثال - نشر (فرانسيس غالتون) الدراسة الأولى لتداعي الكلمات(word association)، وفي عام ١٩٠٠ حاول (ولهيلم ونديت) أن يؤكد أن تاريخ تطور اللغة للعقل البشري في مجتمع ما كان نتيجة وسائل تعبير واعية ومتنامية ومعقدة، كما أنه حاول أن يصف كيف أن اللغة تبتكر بشكل متسلسل في السلوك اللغوي للفرد.

كان (ونديت) يعتقد أن دراسة اللغةمخبرياً أمر مستحيل، إلا أن معاصريه من العلماء أجروا دراسة مخبرية على مهارة القراءة من حيث علاقتها بالذاكرة اللغوية وترابط المفردات، كما أنهم أجروا تجارب مماثلة على عملية إنتاج الجملة؛ لقد أخذوا يقيسون طول المفردات ويحللون الأخطاء أثناء الكلام.

ونال الاهتمام بحالات ضعف الاستقراء اللغوي الناجمة عن خلل في الجهاز العصبي دفعاً كبيراً بعد أن اكتشف بروكا (Broca) ويرينك (wernicke) المناطق الرئيسة المساعدة على إنشاء اللغة في النصف الأيسر للدماغ.

لعل جلّ النقاط آنفة الذكر لا تزال تلح على المهتمين بسيكولوجيا اللغة، غير أن التطورات التي حصلت منذ خمسينات هذا القرن أسبغت على هذا العلم صفتين هما الأكثر أهمية:

- *المعالجة اللغوية*
- *التمثيل اللغوي*

في المعالجة اللغوية نحا «علم اللغة النفسي» نحو الاتجاه السائد في علم النفس الذي يتمثل في اعتبار مستعمل اللغة نظام معالجة معلومات معقد.

وأما فيما يتعلق بالتمثيل اللغوي، فيؤكد علماء اللغة النفسيون على ذلك الكم الهائل من المعرفة اللغوية، والذي يحمله مستعمل اللغة عند إنتاج وفهم هذه اللغة. وعلى الرغم من أن جوهر هذه المعرفة هو بيت القصيد في علم اللغة، إلا أن الجانب النفسي لا يقل أهمية عن معالجة اللغة نفسها، كما يرى (تشومسكي).

ويدرس العلماء كيف تشتغل المعرفة بعلم اللغة في طريقة استعمال هذه اللغة، وكيف يستطيع مستعمل اللغة أن يركب ويعالج التمثيل اللغوي لأشكال ومعاني المفردات والجمل والنصوص، كما ويعنى هؤلاء العلماء بكيفية اكتساب الطفل لمثل هذا التمثيل اللغوي.

ستبدأ هذه الدراسة بتقديم الشكل اللغوي المألوف – المحادثة –، ومن ثم ستتطرق إلى ما يسمى بالمعجم العقلي (Mental lexicon) وجوهر المعرفة العقلية. بعدها ستنتقل إلى عمليات الكلام وفهمه، وأخيراً ستعرِّج على أنماط أخرى لاستعمال اللغة، وعلى وجه التحديد، اللغة المكتوبة ولغة الإشارة.

المحادثة:

تتوافق مهاراتنا اللغوية بشكل أساسي مع قدرتنا الخاصة على إدارة الحوار. وهذه القدرة الفطرية على التحدث زودت الجنس البشري بقابلية مشاركة الآخرين في الحالات المزاجية والاتجاهات وتبادل المعلومات مهما كان نوعها، وهي التي جعلتهم قادرين على تجميع المعلومات والمهارات والتخطيط لفعل متناسق. أضف إلى ذلك أن لهذه القدرة القابلية على تطوير نفسها.

وخلاصة القول إن لهذه القدرة الفطرية مزية خلق الثقافة ونشرها، وهي صفة لا يمكن موازنتها على الإطلاق بما هو عليه الحال في المملكة الحيوانية.

بالإضافة إلى كل ما تقدم نستطيع القول إنه لدينا القدرة على محاورة أنفسنا والتي هي نوع من التنبه الذاتي تجعلنا أكثر إدراكاً لميولنا وأكثر وعياً لما نفكر به أو نقصده، وهي صفة تميزنا كبشر.

في المحادثة ينهمك المتحاورون في الانشغال بغرض تفاوضي، فعندما نتحدث يكون لدينا هدف تواصلي، ويكون الحوار موائماً كلما كان هذا الهدف معروفاً من قبل الشركاء في الحوار، وهذا يمكن أن يستدعي أدواراً متبادلة من الطرفين لتوضيح ما يقال.

وعلى الرغم من أن ما يقال هو وسيلة لجعل الهدف التواصلي واضحاً، فإنه يمكن للعلاقة بين المتحاورين أن تكون غير مباشرة إلى حد بعيد، فالحوارات تدخل ضمن آليات معقدة من (ضبط التهذيب) إذ كثيراً ما يبدو أن ما يصل إلى الآخر مختلف تماماً عما يقال؛ ففي معظم الحالات على- سبيل المثال- لا نطلب شيئاً من شخص بصيغة الأمر مثل (افتح النافذة) ولكننا نفعل ذلك بشكل غير مباشر كسؤالنا عن قدرة المتحاور أو رغبته في فتح النافذة، ويكون في النهاية السؤال:

هل يمكنك أن تفتح النافذة؟ وفي هذه الحالة لا يمكن الإجابة على السؤال ب (نعم) وكفى، فالاستجابة هنا هي بالقيام بالفعل وليس بالإجابة على السؤال المطروح.

كيف يعرف المستمع أن هنالك طلباً مضمناً في صيغة السؤال؟ هنالك بالطبع كم هائل من المعرفة الموقفية (situational knowledge) التي يشارك بها المتحاوران، وتقوم هذه المعرفة بتأدية الفعل المطلوب.

حاول غرايس(Grice) في عام ١٩٧٥ أن يثبت أن الحوار محكوم بمبادىء المنطق، وفي عام ١٩٨٦ دعا كل من سبيربر (sperber) و ولسن (wilson) ذلك بمبدأ « وثاقة الصلة (Principle of relevance). أما كلارك (clark) فقد وجد عوامل لغوية تلعب دوراً إضافياً فحاول أن يصوغ قاعدة

لاستعمال تركيب لغوي ما في موقف معين، وذلك بتحليل هذا التركيب إلى عناصره وربطها بالموقف المطلوب.

إن تبادل الأدوار في الحديث مظهر آخر مهم من مظاهر الحوار، إذ أن هنالك قواعد لتوزيع الأدوار أثناء الحديث، وهي التي تحفظ للجميع الحق في الكلام، وهذا من شأنه أن يمنع الحديث المتواصل للبعض دون الآخرين وهي التي تنظم الإغراء الخاص بالحديث المتواصل أو الانسحاب منه.

لعل هذه القواعد هي المتبعة عادة، ولكنها تنتهك أحياناً عن قصد (المقاطعة أثناء الحديث).

إن عملية تبادل الأدوار في الحديث عملية منظمة بدقة وذلك عن طريق استعمال التلميحات اللفظية (طريقة تقطيع التركيب اللغوي) وغير اللفظية (حركة الجسم) ومن شأن هذه التلميحات أن تعلن انتهاء دور متحاور ليبدأ دور متحاور آخر.

المعجم الذهني:

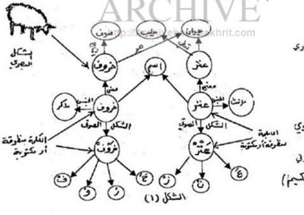
يتطلب إنتاج اللغة وفهمها استعمالا للكلمات، والمعجم الذهني هو المستودع الذي نأخذ منه كلماتنا ومعانيها ونرتبها في الجمل والأشكال اللفظية لها. تعد مفردات لغة ما، من حيث المبدأ غير محدودة ولنأخذ، على سبيل المثال، الأعداد في لغة معينة، فهي تشكل وحدها مجموعة غير منتهية ولكن من غير المتوقع أن يكون العدد (ثلاثة آلاف ومائتان وسبعون) هو مدخلنا إلى ما يسمى بالمعجم الذهني، إذ أنه يمكن لهذه الوحدة اللغوية أن تركب بقاعدة عند الحاجة، فلدينا القدرة على إيجاد كلمات جديدة ليست مختزنة في معجمنا الذهني.

كم هي عدد هذه الكلمات المختزنة؟ قدر ميلر (Miller) في عام ١٩٩١ هذا العدد ب (٦٠) ألف كلمة وسطياً لدى خريج الشهادة الثانوية (تحت تعريف واحد للكلمة).

ولعل إحدى الطرق التي تستعمل لتمثيل هذا الكم الهائل من المعرفة تتم بطريقة النماذج الشبكية (Network models) فالشكل(١) يظهر جزءاً من هذه الشبكة حيث تمثل كل كلمة بثلاث عقد (Nodes) تمثل ثلاثة مستويات:

- ❖ *المستوى التصوري*
- ❖ *المستوى النحوي*
- ❖ *المستوى الصوتي*

إن الخواص الدلالية لكلمة ما تظهر من خلال ارتباطها بالعقد الأخرى في المستوى التصوري (الخروف ... حيوان ... ينتج الصوف ...) والخواص النحوية لكلمة تمثل بعلاقاتها بالعقد النحوية الأخرى في الشبكة (الخروف . . اسم . . مذكر . .)



الشكل (١)

وأخيراً في المستوى الصوتي، تُمثَّل خواص الشكل الصوتي لكلمة بالطريقة التي تتعلق بها عقد الـ(لكسيم)[1](Lexeme) لهذه الكلمةبعقد

الأشكال الصوتية الأخرى في الشبكة فكلمة« خروف» تحتوي على أربعة أجزاء فونيمية مرتبة: /خ/، /ر/، /و/، /ف/، كما يظهر في الشكل (١) اقترح علماء آخرون نماذج شبكية مختلفة لأغراض مختلفة (ديل. Dell في عام / ١٩٧٥/ و رويلوفس Roelofs في عام ١٩٩٢). ولكن من غير المؤكد أن مثل هذه الشبكات تستطيع أن تمثّل بشكل كاف جميع تعقيدات معرفتنا الدلالية والنحوية والصوتية للكلمات. ومع هذا يمكن لهذه الشبكات أن تفيدنا في التنبؤ بسرعة الوصول إلى فهم الكلمة وإنتاجها؛ بالإضافة إلى تفسير الأنماط المختلفة للأخطاء التي نقع فيها أثناء إنتاج الكلام والاضطرابات المختلفة في الوصول إلى المفردات المطلوبة في حالة الحبُسة اللفظية.

إن الطرق التي تمثل بها الأفعال في المعجم الذهني تكسبها أهمية خاصة تبينها نظريات استعمال اللغة. يحدد الفعل -كوجود دلالي- أهدافاً دلالية للمناقشة، فالفعل (يمشي)، على سبيل المثال - يستدعي مناقشة فعالة تحدد دور الفاعل؛ ومخطط الوظيفة الحوارية للأفعال ليس عشوائياً، فالفاعل الذي يقوم بالفعل يصبح مفعولا إذا وضع في مكان آخر في الجملة. كما ويحتوي المعجم الذهني على أطر مرسومة محتملة لكل فعل، وهذا الأمر يلعب دوراً مهماً للمتكلم في تخطيطه للجمل، وللمستمع في تحليلها من الناحيتين النحوية والدلالية.

الكـــلام

الكلام هو أكثر المهارات الحركية المعرفية تعقيداً، فهو يتطلب تصور القصد، واختيار المعلومات والتعبير عنها بالطريقة التي تجعل هذا القصد واضحاً، ويتطلب أيضاً اختيار الكلمات المناسبة وبناء الجملة في إطارها النحوي.

بالإضافة إلى ما تقدم تستلزم هذه المهارة استرجاع الأشكال الصوتية للكلمة، وتقدير الخطة التي تنطق بها، وهذا الأمر ينسحب على التركيب

اللغوي كاملاً . ولتنفيذ هذه الخطة فإن الأمر يتطلب أكثر من مائة عضلة تنظم حركة الهواء داخل المجرى الصوتي . وأخيراً تتطلب هذه المهارة رقابة ذاتية يتم بها التغلب على مشكلات الكلام أو اصلاحها إن وقعت . ولنلق نظرة عامة على مجمل العمليات التي تتطلبها هذه المهارة .

❖ الإعداد التصوري:

إن السؤال عن مصدر الأغراض التواصلية هو سؤال يتعلق بـ (علم النفس الدينامي) أكثر من علاقته بـ (علم اللغة النفسي)، فالكلام هو شكل من أشكال النشاط الاجتماعي وسياق هذا النشاط هو الذي يطور الأغراض التواصلية وأهدافها الرئيسة والثانوية . وليس غريباً أن ما نقصد قوله يعزى أحياناً إلى النشاط العفوي في نظام صياغة الكلام نفسه، وفي هذه الحالة تظهر كلمات مفككة ندعوها بـ (الكلام الداخلي) الذي نستطيع أن ندركه بأنفسنا، وهذا بدوره يقدم لنا جزءاً من أفكار سنأخذها بعين الاعتبار في تفسير آلية التعبير . إن توصيل ما نريده إلى الآخر يمكن أن يتطلب خطوات عدة، إذ ينبغي علينا أن نقرر ما سنعبر عنه أولاً وثانياً وثالثاً ... وهكذا . وتدعى هذه العملية بمشكلة التخطيط للكلام، وهي تقع ضمن ما يسمى بالمعلومات متعددة الأبعاد، كوصف شخص ما لشقته السكنية .

يتطلب الإعداد التصوري للكلام والتخطيط له، على وجه الخصوص، انتباهاً متواصلاً، لكن المبادىء التي تقوم عليها عملية التخطيط للكلام تقلص عبء هذا الانتباه إلى حده الأدنى .

إن كل فعل كلامي (speech act) يدخل في إطار تعبير له بناء تصوري يدعى من الناحية الفنية بـ (الرسالة)، ثم تعطى هذه الرسالة شكلاً لغوياً، أي أنها تصبح مصاغة لغوياً .

❖ الترميز النحوي:

لعل الخطوة الأولى في تشكيل الصيغة اللغوية للتصور هو استرجاع الكلمات المناسبة من المعجم الذهني ووضعها في التركيب النحوي المراد استعماله .

ينتج الإنسان في الحديث العادي كلمتين في الثانية، ولذا فعلينا أن نوفر لمعجمنا الذهني الكلمات المناسبة التي تتوافق وهذا المقدار، تظهر الأخطاء[٢] التي تقع أحياناً عند اختيار الكلمات المتعلقة بموضوع معين أن للمفردات تنظيماً دلالياً. وتفسير الوقوع في مثل هذه الأخطاء هو أن اختيار الكلمات المناسبة ينتشر في شبكة منظمة دلالياً كما في الشكل (١)، فلكل عقدة في الشبكة مستوى من النشاط يقع بين (٠) و (١)، فعندما تكون عقدة التصور لكلمة (خروف) نشيطة ينتقل هذا النشاط إلى عقدة تصور مرتبطة بهذه الكلمة دلالياً مثل كلمة(عنز) ثم لا تلبث العقدتان كلتاهما أن تنقلا النشاط إلى المستوى النحوي.

والآن نطرح هذا السؤال: أي كلمة ستُختار لمزيد من المعالجة؟ ستكون بالطبع الكلمة الأكثر نشاطاً وفي هذه الحالة تكون كلمة (خروف) ولكن ظهور خطأ عرضي يبين أن هنالك احتمالاً ضعيفاً لاختيار الكلمة الأقل نشاطاً.

تقول إحدى النظريات (رويلوفس– Roelofs– ١٩٩٢): إن احتمال اختيار كلمة معينة خلال فترة زمنية(ز)، هي نسبة نشاطها إلى مجموع نشاط العقد الأخرى للكلمات المفترضة في الشبكة، فعلى سبيل المثال، إذا كانت كلمتا خروف وعنز الكلمتين النشيطتين الوحيدتين خلال فترة زمنية(ز) وكان لهما مستويا النشاط (٧ز٠) و (١ز٠) على التوالي، فإن احتمال اختيار كلمة (خروف) خلال تلك الفترة هو (٨/ ٧) بينما يكون احتمال الاختيار كلمة (عنز) هو (٨/ ١) ولهذا فإنه إذا كان هناك أكثر من كلمة نشيطة في الشبكة الدلالية، فإن احتمال اختيار الكلمة غير المقصودة يصبح ضعيفاً.

تختبر نظريات نشر النشاط في اختيار المفردات بتجارب تسمية الصور حيث تقاس فيها القدرة على تسمية أشياء مستترة لكنها مرتبطة بشكل ما بمحتويات الصور المعروضة.

ما أن تسترجع الكلمة المفترضة حتى تتوافر خصائصها النحوية التي من بينها تصنيف هذه الكلمة من حيث كونها فعلا أو اسما أو حرفا...

إن لكل كلمة إطارها النحوي الخاص وتوزيع الكلمات في هذا الإطار أشبه بحل مجموعة من المعادلات المتزامنة (Simultaneous equations) وكل شكل نحوي لكلمة يتوافق مع الأشكال الأخرى للكلمات المجاورة.

إن ما دعوناه بالمعادلات المتزامنة هي ليست كذلك تماماً، فالكلمات المفترضة لتركيب لغوي معين لا تسترجع بشكل متزامن، حيث تسترجع المفردات المعبرة عن المفاهيم البارزة والأشياء الأكثر حيوية بشكل أسرع من تلك التي تقل عنها بروزاً وحيوية؛ وهذا من شأنه أن يؤثر في مكانها في التركيب النحوي المراد استعماله.

❖ الترميز الصوتي :

إن الكلمة المختارة من شبكة النماذج المشار إليها آنفاً تنقل نشاطها إلى المستوى الصوتي وفي هذا المستوى يتوافر نوعان من المعلومات الصوتية:

* الأجزاء الصوتية للكلمة المكتوبة بشكل واضح في المثال، وتظهر مرتبة الواحد تلو الآخر.

* البناء العروضي للكلمة (حيث تجزأ الكلمة إلى مقاطع مكونة لها).

وكثيراً ما تتحد الأطر المقطعية لكلمات متتابعة لتشكل ما يسمى بأطر الكلمات الفونيمية[٣] (Phonological word features) ففي عبارة (Peter gave him it) تشكل الكلمات الأخيرة كلمة فونيمية واحدة(gavimit).

تترابط الأجزاء الصوتية مع الأطر التي تحويها وتوضع هذه الأجزاء، الواحد تلو الآخر، داخل أطر الكلمات الفونيمية الموافقة لها؛ وكذا المقاطع الفونيمية تكون مرتبة الواحد تلو الآخر ضمن هذا الإدراج المنظم (ga-vi-mit).

ولكن كيف تحدد هذه السلسلة من المقاطع الفونيمية الإيماءات النطقية الدقيقة التي ينبغي لأعضاء الكلام أن تقوم بها؟ لا تزال الإجابة على هذا السؤال إشكالية خاضعة للجدل.

تسترجع الأجزاء الصوتية بشكل مستقل عن الأطر التي تحويها، وقد ظهر هذا الاعتقاد عنا تحليل الأخطاء الفونيمية أثناء الكلام (ديل / ١٩٨٦). وظاهرة (السبونرية[٤]-spoonerisms) تبين كيف يمكن للأجزاء أن تستدعى إلى مكان صحيح ضمن إطار خاطىء، مثال ذلك:

(Fool the pill) بدلاً من (Fill the pool).

يتطلب الترميز الصوتي التخطيط لوحدات أكبر من الوحدات الفونيمية للكلمات وتجدر الإشارة هنا إلى التخطيط للعبارات المنغمة (Lnto-national phrases) حيث تمثل هذه الوحدات الصوتية بخطوط تنغيمية خاصة، ويمكن لهذه الخطوط أن تكون منخفضة أو مرتفعة أو تحمل الصفتين معاً. وهي تعبر عادة عن موقف المتكلم مما يقال، أو عن موقفه تجاه المحاور: ريبة، تأكيد، دعوة، رد فعل على دعوة ...)[٥]

إن نتاج الترميز الصوتي هو برنامج لفظي يبدو لنا وكأنه كلام داخلي لا نحتاج إلى البوح به فهو حبيس حاجز لفظي لكنه متأهب لكسر هذا الحاجز عند الحاجة لأداء المهمة اللفظية.

النطـــق:

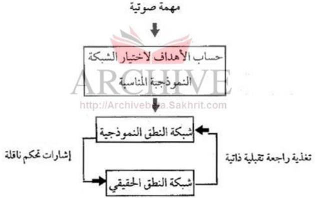
يتكون جهاز النطق من ثلاثة أقسام رئيسة:

* جهاز التنفس الذي ينظم الخروج المستمر للهواء من الرئتين، ودورة التنفس أثناء الكلام تختلف تماماً عن عملية التنفس الطبيعي لكون الأولى تنفذ بعملية شهيق سريعة جداً وعملية زفير بطيئة جداً.

* الحنجرة التي تحتوي على الحبال الصوتية التي تعد الإساس في عملية النطق، فهي المصدر الرئيس للطاقة الصوتية.

* المجرى الصوتي الذي يحتوي على تجاويف البلعوم والفم والأنف، وهذه التجاويف هي أجهزة تحليل الصوت (Resonators) التي تقوم بعملية تنقية للطاقة الصوتية، وبهذه الطريقة يتم نطق مجال واسع

من الصوامت (Consonantal sounds) وأصوات كلامية أخرى (Speech sounds) . إن التحكم بجهاز النطق أمر شديدالتعقيد، وقد حظي هذا الموضوع بكثير من البحث . تركز النظريات المعاصرة في تفسير ذلك على المبدأ الرجوع إلى نموذج تحكم داخلي (أنظر الشكل ٢)، فإذا ما طلب من هذا الجهاز الحركي (كجزء من برنامج نطقي) مهمة نطق معينة مثل (أغلق الشفاه)، تبرز خيارات عديدة في تنفيذ هذه المهمة إذ من الممكن لهذه العملية أن تتم بتحريك الشفتين إلى بعضهما أو بتحريك الفك أو بالطريقتين معاً .



الشكل (٢)

يحسب نموذج التحكم الداخلي أقل الطرق استهلاكاً للطاقة في الوصول إلى الهدف، وهذا يعود إلى وضع الناطق (هنالك تغذية راجعة تقبلية ذاتية دائمة للنموذج الداخلي)[٦] والنتيجة هي مجموعة من إشارات التحكم الناقلة إلى العضلات ذات الصلة، وينجم عن ذلك نطق كلام علني واضح . وقد أعطى كل من (سالتزمان)و (كيلسو) في عام ١٩٨٧ وصفاً رياضياً دقيقاً لهذه النظرية .

الرقابة الذاتية:

نستطيع أن نسمع أنفسنا ونحن نتكلم كلاماً علنياً وأن نتبين المشاكل التي تعترضنا أثناء ذلك؛ تماماً مثلما نستمع إلى حديث الآخرين ونتحرى الأخطاء التي قد يقعون فيها. أضف إلى ذلك أننا نستطيع أيضاً أن نتحرى المشاكل التي تواجه كلامنا الداخلي.

وعندما تصل المشكلة إلى حد تشتت الكلام في الحوار القائم، يعمد المتكلم إلى قطعه ليقوم بتصحيح ذاتي له. ولكن ليست جميع المشاكل التي يقع فيها الشخص (مثل أخطاء الاختيار) يستطيع هو أن يكتشفها بالرقابة الذاتية، إذ تتطلب هذه الرقابة إنتباهاً، وكثيراً ما نميل إلى أن ما نقوله بعيد إلى حد ما عن الكيفية التي نقوله فيها. من الأفضل أن يتم اكتشاف الخلل عند نهاية الجملة حيث يتطلب الانتباه إلى المحتوى درجة أقل.

هنالك مجموعتان رئيستان من الأخطاء تستوجبان الإصلاح:

* الخطأ الذي يهدم التركيب اللغوي كاملاً، حيث لا يستطيع المتكلم التعبير عما يريد، وهذا الخطأ يمكن أن يكون خطأ في المفردات أو خطأ نحوياً أو لفظياً.

* الخطأ الذي ينجم عنه خلل في الجملة بشكل يبدو فيه أن شيئاً ما في مكانه غير المناسب أو ليس صحيحاً. ، هنا يلجأ المتكلم إلى إجراء إصلاح يجعل ما يقوله أكثر دقة وأقل غموضاً.

عند كشف أي من النوعين السابقين للأخطاء، يقوم المتكلم بمقاطعة ذاتية ويتم هذا بتجاهل التركيب اللغوي، حيث يمكن للمتكلم أن يتوقف في منتصف العبارة أو الكلمة أو المقطع. وبعد ذلك يقوم بإبانة نوع الخلل واستعمال بعض التعابير مثل(لا. . أسف. . أعني. . أي...)وأخيراً يقوم المتكلم بتطعيم بناء الجملة بالصحيح من الكلام والذي كان معطلاً بشكل مؤقت.

وخلاصة القول إن إصلاح الخطأ هو عملية تنسيق لغوي.

فهم الكلام:

لعل الهدف من فهم الكلام هو التعرف على القصد التواصلي للمتكلم، ولكن كيف يستطيع المستمع أن يستدل على ذلك القصد من خلال الكلام العلني للمتكلم؟

تتطلب الإجابة على هذا السؤال النظر في مجموعة عمليات جزئية هي:

* التحليل الصوتي السمعي للإشارة الكلامية، أي اعتبار هذه الإشارة حالة صوتية بما تحمله من معنى، وليست مجرد حالة فيزيائية.

* فك الرموز الفونيمية، وعلى وجه الخصوص، إيجاد الكلمات التي تقابل العناصر الصوتية، والتحليل الكامل للتركيب اللغوي مقسماً إلى مقاطعه المكونة له.

* فك الرموز النحوية وإعراب القول باعتباره تركيباً نحوياً ذا معنى.

* معالجة الخطاب بتحليل كل قول في سياقه للاستدلال على مقاصد المتكلم.

ولنلق نظرة على هذه العمليات بالترتيب:

١ - التحليل الصوتي السمعي:

من الصعب، إذا لم يكن من المستحيل، أن نصغي إلى الكلام كما لو أنه مجرد سلسلة من الزقزقة أو الطنين أو الهمهمة، فنحن لا نستطيع أن ننظر إليه إلا أنه سلسلة أصوات ذات معنى.

إن ما يدعى بصيغة الكلام (speech mode) يستلزم منا تحليل الحالة الفيزيائية الناجمة عن الإشارات النطقية واعتبارها حالة صوتية أساساً.

في الأدب لا يوجد إجماع على نوع التمثيل اللغوي الذي يستنتجه السامع، ووفقاً لما يقوله (لبرمان) و(ماتنغلي) فإن المستمع يستنتج الإشارات النطقية التي يعنيها المتكلم حتى ولو لم تكن متقنة.

ويحاول آخرون أن يثبتوا أنه لدى المستمعين كاشفات (Detectors) خاصة لحالات مألوفة من الرموز الكلامية، مثل رموز التهيؤ للكلام (Onsets) ورموز الذرى في الرسم الطيفي للصوت وذبذبات وحركات العناصر المادية للصوت (Formants).

إن كشف مثل هذه الظواهر الفيزيائية يمكن أن يكون كافياً لاستنتاج وجود أو غياب الملامح الصوتية (Phonetic features) مثل الإجهار (Voicing) أو الغنة أو مقدار ارتفاع الصوائت (Vowels)... تتوزع الملامح الصوتية بشكل مميز في أجزاء الكلام و العناقيد الصوتية(clusters) والمقاطع الصوتية ولهذا، إذا كان الإعتماد على هذه الملامح ممكناً فإنها تقدم معلومات كافية لفك فعال للرموز الصوتية. على أن الآراء تختلف في مدى الاعتماد عليها، فالإشارة الكلامية متنوعة إلى حد كبير، فهي تتعلق بدرجة إتقانها وجنس المتكلم والصدى الناجم عنها وتشويش المكان الذي نطقت فيه ... أضف إلى ذلك أنه حتى ولو استطاع المستمع أن يبعد مثل هذه المؤثرات في السياق الكلامي، فإن التحليل الفيزيائي للصوت يبقى غامضاً على الأغلب. ومع ذلك يمكن أحياناً أن يكون هذا الأمر كافياً لفك الرموز الصوتية.

ليس من الضروري أن نميز كل كلمة في السياق لكي نستدل على مقاصد المتكلم، أما إذا عجزنا عن فهم كلمة هامة فإننا نلجأ إلى السؤال: ماذا؟ أو نشير إلى صعوبة الفهم بأساليب أخرى.

٢ - فك الرموز الصوتية:

مهما تكن صفة الرموز التي تمثلها الأصوات في اللغة فإنها تعد المدخل إلى المعجم الذهني. ولكن كيف يستطيع المستمع أنْ يتعرف على الكلمات في سياق مترابط؟ لعل المشكلة الرئيسة هنا هي تقطيع الكلام إلى أجزائه لنعرف أين تبدأ الكلمات وأين تنتهي ضمن هذا التدفق المتواصل للكلام. للإجابة على السؤال السابق نميز طريقتين:

* تدعى الطريقة الأولى طريقة (الاتجاه من القاعدة صعوداً) (Bottom-up)، وفيها نعتمد على مشعرات في إظهار الصوت.

حاول كلتر (Culter) في عام ١٩٩٠ أن يثبت أن المستمعين الإنكليز - بسبب تباطؤ المحاورين - لهم يستطيعون أن يقطعوا الكلام إلى أجزاء بالاعتماد على وجود حدود للكلمات تسبق المقاطع المنبَّرة (stressed) تماماً، وهنالك إحصائية تقول إن ٨٥٪ من الكلمات ذات المعنى تبدأ بمقطع منبَّر.

وهكذا تعد طريقة التقطيع هذه ناجعة تماماً. بالإضافة إلى ما تقدم فإن في اللغة الإنكليزية أصواتاً تقع في نهايات الكلمات مثل (ng-) و (nd-) وهنا يمكن للمتكلمين أن يستفيدوا من الخواص الصوتية للغتهم لكي يتنبؤوا بحدود الكلمات، أين تبدأ وأين تنتهي.

* أما الطريقة الأخرى فهي طريقة (الاتجاه من القمة نزولاً) (Top-down) وتعتمد هذه الطريقة على حقيقة أننا نستطيع أن نتنبأ بنهاية الكلمة وبالتالي حدودها، وهذا من شأنه أن يعطينا مؤشراً على الموضع الذي نبدأ فيه بالتعرف على الكلمة التالية. ولكن كيف لنا أن نتعرف على الكلمة بعد أن نعرف بدايتها؟

تقول النظرية الجمعية (Cohort theory) التي أسس لها العالمان (مارسلن) و (ويلسن) في عام ١٩٨٩: ينشط الشكل الملحمي (Feature pattern) لبداية الكلمة (يقابل جزئين صوتيين لكلمة يتتجها المتكلم) جميع كلمات المعجم الذهني التي لها ٩هذه البداية من الناحية الصوتية[٧]. وتعرف هذه المجموعة بمجموعة« بدايات الكلمة»، وكلما توافرت معلومات صوتية أكثر، كلما تناقص عددكلمات هذه المجموعة.

يتم التعرف على كلمة معينة إذا أعطينا معلومات صوتية كافية لهذه المعرفة، والنقطة التي تصبح فيها هذه المعلومات كافية تدعى نقطة التمايز (uniqueness point) وتتعلق هذه النقطة ببدائلها من الكلمات التي تبدأ

بالمقطع نفسه. ومن الطبيعي أن نقطة التمايز لمعظم الكلمات تسبق نها ياتها، وعندها نستطيع أن نتنبأ سلفاً بحدود هذه الكلمات.

إن فك الرموز الصوتية لا يساعدنا على التعرف على الكلمات فحسب، ولكنه يساعدنا أيضاً على تصنيفها إلى وحدات مقطعة إلى عبارات فونيمية وتنغيمية، وتحمل هذه الوحدات معلومات مهمة تتعلق بالجانب النحوي للقول، وبالمعاني التواصلية للمتكلم.

٣ - فك الرموز النحوية:

تتم عملية التعرف على الكلمات وتقطيعها إلى وحدات صوتية بشكل متسلسل، ولهذا يعمد السامع إلى تحليل كل ما يمكنه منها. وبعدها تضع الكلمة خواصها النحوية والدلالية بين يديه وهنا يلجأ السامع إلى إعراب الكلمة نحوياً وتحليلها دلالياً بشكل متزامن. ولكل من الإعراب النحوي والتحليل الدلالي مبادئه الخاصة، لكنهما يلتقيان عند الضرورة.

يجب أن نميز في هذا السياق بين نوعين من الإعراب.

* الإعراب النحوي المحدود(Local syntactic parsing)

* الإعراب النحوي الشامل (Global syntactic parsing)

يتضمن النوع الأول من الإعراب إيجاد تركيب عباري محدود(Local phrase structure) وضم مجموعة كلمات والتنسيق بينها لتحويلها إلى عبارات اسمية أو فعلية ... كما يشمل هذا النوع أقسام الكلام (فعل . . اسم . . حرف . .).

تجدر الإشارة إلى أن الإعراب النحوي المحدود يعتمد - إلى درجة كبيرة - على صحة العبارات من الناحية الصوتية والتي لها الأثر الأكبر في تحديد الدلالة، كما ذكر آنفاً.

* أما الإعراب النحوي الشامل فيتفاعل مع التحليل الدلالي، وترتبط

الأهداف الدلالية في هذا النوع من الإعراب إلى درجة كبيرة بالمكونات النحوية، وهذا محكوم بالمخطط الوظيفي للفعل.

عندما لا تتوافق معاني الكلمات أو العبارات مع أهدافها الدلالية التي تحملها فإن الإعراب النحوي الشامل يتعثر.

ثمة مستوى مهم من مستويات الإعراب النحوي الشامل وهو حل مسألة (الإشارة العائدة)(Anaphora) في سياق الكلام.

إن فك الرموز النحوية لا يزيل جميع مواضع الغموض في تركيب لغوي معين، وهنا يلزمنا المزيد من أساليب معالجة الخطاب.

٤ - معالجة الخطاب:

يلجأ الشركاء في الحديث إلى بناء نماذج عقلية في صياغة القضايا التي يتحدثون عنها. والتعابير غير المعرَّفة تجعلهم يضيفون كائناً جديداً (New entity) من شأنه أن يوضح هذه التعابير غير المحددة. أما التعابير المعرَّفة فتحفزنا إلى استخراج كائن لغوي موجود أصلاً في النموذج العقلي والمعلومات الجديدة التي تضاف إلى قول معين لها صلة مباشرة بالكائن اللغوي الذي حفزنا إلى استدعائها.

إن تعيين الإسناد هو الإنجاز الرئيس للغة البشر والذي لا يستطيع أن يقوم به أي برنامج من برامج الحواسيب، إذ أن المشكلة تكمن في أنه كثيراً ما تكون أساليب الإسناد مواربة[٨] (Indirect) إلى درجة كبيرة. يميل (ننبيرغ) (Nunberg) إلى الاعتقاد بوجود وظائف إسنادية (Referring functions) تقوم بالتوجيه إلى ما هو مقصود في سياق القول.

إن المجال الذي تقع فيه هذه الوظائف الإسنادية غير محدود، وقد حاول (كلارك) و (شرودر) وآخرون أن يثبتوا تجريبياً أن مخطط الإسناد يعتمد على المعرفة المتبادلة للمتحاورين وعلى السمات البارزة لمكونات نماذج الخطاب.

إن المواربة (Indirectness) هي السمة المميزة لتحليل الخطاب، وكما ذكر آنفاً فإن ما يقال متعلق بشكل غير مباشر تماماً بما يقصد المتحدث إيصاله إلى السامع. وجميع العبارات المجازية في اللغة تستلزم بناء جسر بين ما هو حرفي وما هو مقصود.

في الوقت الذي يعد فيه فك الرموز النحوية والفونيمية والصوتية - الفيزيائية عمليات آلية إلى درجة كبيرة، فإن معالجة الخطاب يتطلب تركيزاً كاملاً لانتباه السامع، ويوازي ذلك الإعداد التصوري الكامل للمتكلم.

إننا نهتم، كمتحاورين، بالمحتوى وأما معالجة الشكل فتتم إلى درجة كبيرة بشكل ذاتي.

القـــراءة

يعـد اختـراع نظم الكتـابة، سـواء منهـا الكتـابة المرمـزة أو الكتـابة المقطعية[٩] أو الكتابة الهجائية، من أكثر الخطوات أهمية في مسيرة التطور الثقافي. فقد أضاف هذا وسائل قوية لتخزين المعلومات ونقلها، وباختراع الطباعة أصبحت الكتابة هي الآلية الرئيسة لنشر المعرفة بثقافة معينة على نطاق واسع. إن ما يضاهي الإعجاب بهذه القدرة على تحويل اللغة المنطوقة إلى رموز بصرية عي قدرتنا الفعالة على معالجة مثل هذه الرموز. ويمكن أن تصل هذه القدرة إلى درجة نستطيع عندها أن نقرأ - ، قراءة صامتة خمس أو ست كلمات مكتوبة في الثانية، ويساوي هذا ضعفي متوسط كلام الحديث العادي. وهذه القدرة لم تعطنا - كجنس بشري - أي ميزة بيولوجية انتقائية ، إذ أن اختراع نظم الكتابة حصل قبل حوالي خمسة آلاف عام فقط. أما القدرة على القراءة فيمكن أن نعزوها إلى مجرد مصادفة سارة لملكات عقلية أخرى سابقة في وجودها.

تعـد اللغـة بالطبع [اللغـة كنظام صـوتي أسـاسـاً ويتكون من رموز اعتباطية يستعمله أفراد جماعة ما لتبادل الأفكار والمشاعر] واحدة من هذه

الملكات، وكثيراً ما نستعمل – كقراء – إمكانياتنا النحوية في اللغة المنطوقة، فالتعرف البصري على الكلمة يغذي المستوى النحوي في الشكل(١).

وعندما تنشط وحدات التمثيل النحوي بالتتابع بوساطة الكلمات المكتوبة، فإنها تحفز إلى المزيد من معالجة الخطاب نحوياً ودلالياً، غير أن هذه المعالجة للغة المنطوقة تقريبية وليست كاملة.

هنالك اختلافات أخرى بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة – فعلى سبيل المثال –لا تتضمن اللغة المكتوبة تقطيعاً عروضياً يساعدنا في إعراب الجملة، في حين تعتمد اللغة المكتوبة على علامات الترقيم كبديل.

أضف إلى ذلك أن اللغة المكتوبة تفتقر إلى تعزيز خارجي للحالة التواصلية عند إدراك الكلام، كما هو الحال في اللغة المنطوقة.

ثمة ملكة قبلية(Pre-existing faculty) أخرى تكون فيها القراءة معتمدة على الكتابة تتمثل في قدرتنا الكبيرة على تقطيع النص إلى نماذج بصرية ذات معنى. في مجتمع الصيد ربما كانت هذه النماذج رسوماً ظليلة لحيوانات أو آثار أقدامها...

يتم إدراك الكلمات (باستثناء الكلمات الطويلة جداً أو النادرة لاستعمال) ككل وليس كأجزاء، غير أن القارىء الماهر يستطيع أن يدرك الحروف بشكل مواز لإدراكه مجمل الكلمة.

لقد بذلت جهود كبيرة للإجابة على السؤال الذي يقول: ما الذي ينشط الرمز الصوتي في القراءة الصامتة؟ هل هي الحروف منفردة أم الكلمة ككل؟

تتضمن القراءة الصامتة ما يسمى بإعادة الترميز الصوتي(١٠) (Phonological recoding)، غير أن هذا لا يقدم لنا عوناً في الوصول إلى الكلمة المفترضة إلا في الكلمات قليلة الشيوع(١١).

ومهما يكن من أمر فإن هذا (الكلام الداخلي) الصامت قد يلعب

دوراً على المستويين النحوي و الدلالي، وهو طريقة لتهيئة الكلمات المتعاقبة لمزيد من المعالجة.

تعدُّ القدرة على تقطيع الجمل إلى كلمات طريقة مثلى للقراءة، وتتم الدورة الأساسية لهذه العملية كالآتي: يستطيع القارىء أن يركز بصره على كلمة ويثبتها بمتوسط زمن قدره خمس الثانية، ولا يكون التركيز كاملاً بين بداية الكلمة ومنتصفها؛ وخلال هذه الفترة يتحقق الوصول إلى الكلمة بالإضافة إلى إدراك الكلمة التالية الواقعة ضمن المجال البصري. ويكفي هذا أحياناً للتعرف على الكلمة التالية أثناء التركيز على الأولى (ولكن التركيز يطول إلى حد ما.).

تستعمل المعلومات التي يقدمها لنا المجال البصري لتخطيط الحركة الواثبة للعين (Saccadic eye movement) باتجاه الكلمة التالية، وهذه الحركة تعتمد على طول هذه الكلمة وهي تساوي في المتوسط مقدار ثمانية حروف تقريباً، وهكذا تثبت الكلمة الجديدة وتبدأ الدورة ثانية لتثبيت كلمة أخرى. عندما تكون الكلمة نادرة الاستعمال، أو عندما يقع القارىء في إشكالية انسجامها مع الكلمات الأخرى من الناحيتين النحوية والدلالية فإن زمن تثبيتها يكون أطول بشكل ملحوظ. ويمكن للقارىء أن يتراجع ويعيد تثبت كلمة سابقة عندما تواجهه مشكلة تعيق فهمه.

لغة الإشارة

خلافاً لما هو عليه الحال في اللغة المكتوبة، تعد لغات الإشارة التي يستعملها الصم لغات بصرية مستقلة لا تعتمد على اللغة المنطوقة. إن مجرد وجود هذه اللغات يظهر أن ملكتنا اللغوية لا تعتمد على قدرتنا على التكلم فحسب. والأطفال الصم الذين يعيشون في مجتمع أفراده من الصم ويتعاملون بلغة الإشارة، يكتسبون لغتهم هذه في نفس العمر ويمرون بنفس الخطوات التي يمر بها الأطفال العاديون تقريباً.

للإشارات شكل ومعنى، تماماً كما هو حال الكلمات، وأدوات النطق هنا هي اليدان والوجه والجسم. وحيثما يؤدي اختلاف (الفونيمات) لكلمات معينة إلى اختلاف في دلالاتها. فإن الإشارات التي تؤديها اليد تأخذ شكلاً يظهر هذا التغاير بدلاً من النطق، ويمكن لتعابير الوجه أن تقوم بهذا الدور.

على الرغم من أن شكل الاشارة هو عادة تمثيل لمدلول، كما يبدو للوهلة الأولى، إلا أن معناها في النهاية مستقل عن شكلها، وهذا ينطبق تماماً على كلمات اللغة المنطوقة، وبالنتيجة يمكن للغات الإشارة ألا تكون مفهومة بشكل متبادل[١٢].

إن لغات الإشارة غنية بصرفها (تصريف واشتقاق إشارة جديدة). كما أن لها خاصية إعادة الجملة الإشارية كما أديت تماماً.

إن العديد من الوسائل النحوية في لغات الإشارة مكانية (Spatial) أي أنها تستعمل ضمن حيز من الفراغ يقع عادة أمام الجسم، والعودة إلى مدلول سابق يتم بالعودة إلى المكان الإشاري الذي استعملت فيه الإشارة لأول مرة. ففي لغة الإشارة الأمريكية، تنتقل إشارة الأفعال المتعدية من مكان الفاعل إلى مكان المفعول، أو بالعكس.

ثمة ميل كبير إلى الاعتقاد أن ما يغذي لغة الإشارة هي ذات المناطق في الدماغ التي تغذي اللغة المنطوقة. وفي عام / ١٩٨٧/ أثبت (بويزنر) (poizner) و(كلما) (klima) و (بلوجي) (Bellugi) أن تلفاً في المناطق الأمامية من النصف الأيسر من الدماغ أدى إلى أسلوب تأشير مشابه إلى درجة كبيرة للعجز عن التعبير الذي يصيب مستعملي اللغة المنطوقة الذين تعرضوا لنفس الحالة.

أما التلف في النصف الأيمن للدماغ فقد أبقى على لغة الإشارة سليمة، لكن المرضى فقدوا القدرة على استعمال لغة إشارة مترابطة في

التعبير عن العلاقات المكانية، وقد حصل هذا عندما حاولوا أن يستعملوا إشارات تعبر عن مخططات شققهم السكنية.

يمكن القول إن التصورات المكانية لهؤلاء قد تعطلت ولم تتعطل لغتهم المكاني

الهوامش

(١) - هي الكلمة بوضعها المجرد والتي قد يكون لها عدة معان وعدة استعمالات ويعبر عنها بعض اللغويين بحروف انكليزية كبيرة مثل (CUT) والكلمات (CUT) يقطع و (CUT) مقطوع، تنتمي إلى ال (لكسيم) (CUT). التعريف مأخوذ من «معجم علم اللغة النظري» للدكتور محمد علي الخولي.

(٢) - مثل قولنا: رأيت صديقي الأسبوع القادم (بدلاً من الماضي)، حيث نقل النشاط من كلمة الماضي إلى كلمة القادم لأن الكلمتين مرتبطتان دلالياً «المترجم»

(٣) - الكلمة الفونيمية هي الشكل اللفظي للكلمة وهي تختلف عن الكلمة الكتابية. «نفس المرجع السابق»

(٤) - السبونرية (Spoonerisms) هي تبديل مواقع الحروف الأولى في كلمتين أو أكثر، كقولنا (برد و مطر) «معجم علم اللغة التطبيقي» للدكتور الخولي والمثال للمترجم.

(٥) - يؤدي التنغيم في اللغة العربية وظيفة نحوية حيث يستعمل للتفريق بين المعاني المختلفة للجملة الواحدة، ففي قولنا (الطقس حار) قد يعني تنغيم هذه الوحدة الصوتية الإخبار أو الدهشة أو الاستفهام أو التوكيد... «المترجم»

(٦) - (Continuous proprioceptive feedback) هي إشارات تصل من أعضاء النطق إلى الدماغ تساعده على التخطيط لنطق الصوت التالي. «معجم علم اللغة التطبيقي» للدكتور الخولي.

(٧) - لنفترض أن الكلمة هي (تعلم) وأعطينا المقطع الصوتي (تع). سوف ينشط هذا المقطع جميع الكلمات التي تبدأ به: تعاون، تعرَّف، تعمَّد، تعلَّق... ويمكن التعرف على الكلمة إذا أعطينا الفونيم [لَّ] وهو الذي يدعى نقطة التمايز. «المترجم»

(٨) - تظهر المواربة في الإسناد في العبارة الآتية: (هذا الكاتب مقروء بكثرة). تقوم الوظائف

الإسنادية بتوجيه المستمع إلى ما هو مقصود، فكلمة(مقروء) تشير إلى كتب الكاتب وليس إليه كشخص. «المترجم».

(٩) - الكتابة المرمزة هي الكتابة التي يكون فيها لكل كلمة رمز خاص بها، والكتابة المقطعية هي التي يكون فيها لكل مقطع رمزه الخاص «معجم علم اللغة النظري» للدكتور الخولي.

(١٠) - إعادة الترميز الصوتي هو تحول الكلمات إلى شكل صوتي قبل إدراك معناها. «المرجع نفسه»

(١١) - تدرك الكلمات الشائعة دون المرور بمرحلة تحويلها إلى رموز صوتية. «المترجم»

(١٢) - الفهم المتبادل هو قدرة متكلمي اللغة على الفهم والإفهام. «المرجع نفسه».

* * *

قراءة تحليلية في تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩ الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الانمائي -UNDP-

د. محمد سعيد الحلبي*

مقدمة:

في عام ١٩٩٠ كان قد حان وقت اتباع نهج عريض لتحسين الرفاه البشري يشمل جميع جوانب الحياة البشرية لجميع الناس في البلدان ذات الدخل المرتفع وفي البلدان النامية على السواء في الحاضر وفي المستقبل.

* د. محمد سعيد الحلبي: باحث من سورية، مستشار في التنمية لاقتصادية والاجتماعية.

وكان ذلك النهج يتجاوز بكثير مفهوم التنمية الاقتصادية المعرفة تعريفاً ضيقاً بحيث يشمل الازدهار الكامل لجميع الخيارات البشرية، وأكد النهج على ضرورة جعل الناس - احتياجاتهم وتطلعاتهم وقدراتهم - في بؤرة الجهد الإنمائي. وشدد أيضاً على الحاجة إلى تأكيد عدم قبول أي تحيزات أو أي تمييز سواء حسب الطبقة أو الجنس أو العنصر أو القومية أو الدين أو المجتمع أو الجيل.

وأول تقرير لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي عن التنمية البشرية/ هو التقرير الذي الذي نشر في عام ١٩٩٠ بإلهام وقيادة منشئه محبوب الحق/ صدر بعد فترة من التأمل والتخندق حل فيها محل الاهتمام بالناس الاهتمام بموازنة الميزانيات والمدفوعات وقد لبى التقرير حاجة محسوسة وقوبل بترحاب واسع، ومنذ ذلك الحين أثار نقاشاً أكاديمياً في المجلات المتخصصة والحلقات الدراسية فقد استحوذ على خيال العالم حافزاً على انتقادات وجدل وعلى بلورات وتحسينات وإضافات مبدعة.

والتنمية البشرية هي عملية توسيع خيارات الناس - لا مجرد الخيار ما بين أنواع مختلفة من مساحيق الغسيل أو قنوات التليفزيون أو موديلات السيارات، بل الخيارات التي تنشأ عن طريق توسيع القدرات البشرية والطريقة التي يعمل بهاالبشر - أي ما يفعله الناس وما يمكن أن يفعله في حياتهم وعلى جميع مستويات التنمية توجد بضع قدرات تعتبر أساساً للتنمية البشرية، لا تحتاج بدونها خيارات كثيرة في الحياة وهذه القدرات هي أن يحيا المرء حياة مديدة وصحية، وأن يكون عارفاً وأن يتمكن من الحصول على الموارد اللازمة لمستوى معيشة كريم، وهذه القدرات تنعكس في دليل التنمية البشرية، ولكن هناك خيارات إضافية كثيرة يعطي منها الناس قيماً كبيرة. ومن بينها الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإحساس بالجماعة. وفرص الإبداع والإنتاج. واحترام الذات. وحقوق الإنسان. ومع ذلك فإن التنمية البشرية هي أكثر من مجرد تحقيق هذه القدرات فهي أيضاً عملية السعي إلى تحقيقها على نحو عادل وقائم على المشاركة ومنتج ومستدام.

والخيارات ستتغير بمرور الوقت. وقد تكون من حيث المبدأ بلا نهاية ومع ذلك فإن الخيارات التي لا نهاية لها وغير الخاضعة لأي حدود أو قيود قد تصبح بلا معنى وحمقاء، فالخيارات يجب أن تكون مقترنة بولاءات وحقوق مع واجبات وخيارات مع التزامات وحريات مع أربطة ونحن نشاهد اليوم رد فعل مضاداً للنزعة الفردية الشديدة التي يتسم بها نهج حرية الأسواق إزاء ما أصبح يسمى النزعة الجماعية وسيختلف من وقت إلى آخر ومن مشكلة إلى آخرى المزيج المحدد من العمل الفردي والعام ومن الوكالة الشخصية والمؤسسات الاجتماعية. فالترتيبات المؤسسة ستكون أهم لتحقيق الاستدامة البيئية، أما الوكالة الشخصية فستكون أهم فيما يتعلق بإختيار المواد المنزلية أو الزوج. ولكن سيلزم دائماً وجود قدر من التكامل بين الاثنين.

والحصول على دخل هو أحد الخيارات التي يسود الناس أن ينعموا بها وهو خيار هام ولكنه ليس أهم الخيارات على الاطلاق، فالتنمية البشرية تشمل زيادة الدخل والثروة. ولكنها تشمل أيضاً أشياء أخرى كثيرة قيمة ويعطي لها الناس قيمة.

فعلى سبيل المثال يكتشف المرء عند استطلاع أولويات الفقراء أنهم كثيراً ما يكون أهم شيء بالنسبة لهم مختلفاً عما يفترضه الغرباء فزيادة الدخل هي واحد فقط من الأشياء التي يرغب فيها الفقراء. فالتغذية الكافية ووجود مياه مأمونة في المتناول، والخدمات الطبية الأفضل، والتعليم المتمكن الأكثر والأفضل لأطفالهم، والنقل الزهيد التكلفة، والمأوى المناسب والعمالة المستمرة وسبل الرزق المضمونة، والأعمال المنتجة والمجزية والمرضية هي أمور لا تظهر في ارتفاع نصيب الفرد من الدخل، على الأقل لبعض الوقت.

فهناك فوائد أخرى غير مادية كثيراً ما يعطيها الفقراء قيمة أعلى من التحسينات المادية. وبعض هذه الفوائد ينعكس في خصائص الحقوق بينما تنعكس فوائد أخرى في خصائص الحالة الذهنية، ومن بين هذه ظروف

العمل الجيدة والمأمونة - وحرية اختيار العمل وسبيل الرزق - حرية التنقل والكلام - والتحرر من القمع والعنف والاستغلال - وتأكيد القيم الثقافية والدينية - والإحساس بالهدف في الحياة والعمل - والتمتع بغرض المشاركة بنشاط في أنشطة المجتمع المدني والاحساس بالإنتماء إلى مجتمع. فكثيراً ماتعطى لهذه الأشياء قيمة أعلى من القيمة التي تعطى للدخل، في حد ذاته وكذلك كوسيلة للعمل المشبع والمنتج. وهي لاتنعكس في ارتفاع أرقام الدخل وليس بوسع أي من واضعي السياسات أن يضمن تحقيق جميع هذه التطلعات، أو حتى غالبيتها، ولكن السياسات يمكن أن تخلق فرص تحقيقها.

ويعتبر تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩ بمثابة التقرير العاشر الذي يصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP.

وقد اعتمدت التقارير العشرة على فلسفة ومنهجية واضحة للتنمية البشرية والتي تتناول كل مامن شأنه، من مؤشرات وعناصر، ومواضيع، وبيانات كمية ونوعية ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة بالتنمية البشرية والتي تستند إلى عملية توسيع خيارات الناس عن طريق توسيع القدرات البشرية والطرق التي تحقق للإنسان حياة مديدة وصحية تمكنه من الحصول على الموارد اللازمة لينعم بحياة كريمة وتوفر له الحرية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والاحساس بالجماعة، وفرص الإبداع والإنتاج واحترام الذات.

وقد تضمن تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩ خمس فصول رئيسية هي:

١- التنمية البشرية في عصر العولمة.
٢- التكنولوجيا الجديدة والتسابق العالمي على المعرفة.
٣- القلب غير المرئي - الرعاية والاقتصاد العالمي.
٤- الاستجابات الوطنية التي تجعل العولمة تخدم التنمية البشرية.
٥- اعادة تشكيل الحكم العالمي لصالح الإنسانية والعدل.

وانتهى بجداول لأهم المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والسكانية لـ /١٧٤/ دولة.

أولا - كشف حساب التنمية البشرية
خلال الفترة ٩٩٠-٩٩٧

أوضح تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩ تقييماً وصفياً ورقمياً لمدى التقدم والحرمان العالمي الذي تحقق خلال الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٧ نتيجة للسياسات والاستراتيجيات المتبعة لوضع خطط وبرامج التنمية في المجالات الآتية:

- في مجال الصحة
- في مجال التعليم
- في محال الأغذية والتغذية
- في مجال الدخل والفقر
- في مجال المرأة
- في مجال البيئة
- في مجال الأمن البشري

وفيما يلي أهم ما أشار إليه التقرير في كل مجال من تلك المجالات.

١- في مجال الصحة:

ا- التقدم: في عام ١٩٩٧ كان هناك ٨٤ بلداً يناهز العمر المتوقع فيها عند الولادة ٧٠ عاماً بعد أن كان عدد تلك البلدان ٥٥ بلداً في عام ١٩٩٠ وقد زاد عدد البلدان النامية ضمن هذه المجموعة بأكثر من الضعف، بحيث بلغ ٤٩ بلداً بعد أن كان ٢٢ بلداً وخلال الفترة من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٧ تضاعفت تقريباً نسبة السكان الذين يحصلون على مياه مأمونة بحيث بلغت ٧٢٪ بعد أن كانت ٤٠٪.

ب- الحرمان: في أثناء الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٧ ازداد عدد المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز/ بأكثر من الضعف بحيث كان أقل من ١٥ مليوناً فتجاوز ٣٣ مليوناً ولا يتوقع أن يعيش زهاء ١,٥ بليون نسمة إلى أن يبلغوا سن الستين ويفتقر أكثر من ٨٨٠ مليون نسمة إلى الخدمات الصحية كما يفتقر ٢,٦ بليون نسمة إلى مرافق الصرف الصحي الأساسية.

٢- في مجال التعليم:

أ- التقدم:

خلال الفترة من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٧ ارتفع معدل معرفة القراءة والكتابة بين البالغين من ٦٤٪ إلى ٧٦٪ وخلال الفترة ١٩٩٠ -١٩٩٧ ازدادت نسبة القيد الإجمالية في التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي من ٧٤٪ إلى٧٨٪.

ب- الحرمان:

في عام ١٩٩٧ كان ما يناهز ٨٥٠ مليوناً من البالغين أميين وفي البلدان الصناعية كان أكثر من ١٠٠ مليون نسمة أميين وظيفياً وكان ما يناهز ٢٦٠ مليون طفل خارج التعليم المدرسي على المستوى الابتدائي والمستوى الثانوي.

٣- في مجال الأغذية والتغذية:

أ- التقدم:

على الرغم من النمو السكاني السريع فقد زاد نصيب الفرد من الإنتاج بحوالي ٢٥٪ خلال الفترة ١٩٩٠ -١٩٩٧ وارتفع نصيب الفرد من الإمدادات اليومية من السعرات الحرارية مما يقل عن ٢٥٠٠ سعر حراري إلى ٢٧٥٠ سعراً حرارياً كما ارتفع نصيب الفرد من البروتين من ٧١ غراماً إلى ٧٦

ب- الحرمان:

يعاني حوالي ٨٤٠ مليون نسمة من سوء التغذية ويبلغ الاستهلاك الإجمالي لأغنى خمس سكان العالم ستة أمثال ما يستهلكه أفقر خمس.

٤- في مجال الدخل والفقر:

أ- التقدم:

خلال الفترة ١٩٩٠ -١٩٩٧ ارتفع نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي بمعدل سنوي في المتوسط أكثر من ١٪ وزاد نصيب الفرد من الاستهلاك الحقيقي بمعدل سنوي بلغ في المتوسط ٢,٤٪ خلال نفس الفترة.

ب- الحرمان:

يعيش قرابة ٢,٣ بليون نسمة على أقل من دولار واحد يومياً وما يقرب من بليون نسمة لا يستطيون تلبية احتياجاتهم الاستهلاكية الأساسية وتزيد حصة أغنى خمس سكان العالم من الدخل العالمي على حصة أفقر خمس ٧٤ مرة.

٥- في مجال المرأة:

ا- التقدم:

خلال الفترة ١٩٩٠ -١٩٩٧ زاد صافي نسبة قيد البنات في التعليم الثانوي من ٣٦٪ إلى ٦١٪ وخلال الفترة من عام ١٩٩٠ إلى ١٩٩٧ ارتفع معدل النشاط الاقتصادي للمرأة من ٣٤٪ إلى حوالي ٤٠٪.

ب- الحرمان:

لا يتوقع لقرابة ٣٤٠ مليون امرأة أن يعشن إلى أن يبلغن سن الأربعين. وعانى ما يتراوح بين ربع ونصف جميع النساء من اعتداء جسدي من شريك حميم.

٦- في مجال الطفل:

ا- التقدم:

خلال الفترة من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٧ انخفض معدل وفيات الرضيع من ٧٦ رضيعاً بين كل ١٠٠٠ ولادة حية إلى ٥٨ رضيعاً. وزادت نسبة الأطفال المحصنين البالغين من العمر سنة واحدة من ٧٠٪ إلى ٨٩٪ أثناء الفترة ١٩٩٠ -١٩٩٧.

ب- الحرمان:

يعاني زهاء ١٦٠ مليون طفل من سوء التغذية ويعمل أكثر من ٢٥٠ مليون طفل كعمال.

٧- في مجال البيئة:

ا- التقدم:

خلال الفترة من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٧ انخفضت حصة أنواع

الوقود التقليدية التي تسبب تلوثاً شديداً وتستعمل كمصدر للطاقة بأكثر من الخمسين.

ب- الحرمان:

يموت كل عام قرابة ٣ ملايين نسمة نتيجة لتلوث الهواء - ويموت ما يناهز ٨٠٪ منهم نتيجة لتلوث الهواء الداخلي - ويموت أكثر من ٥ ملايين نسمة نتيجة للإصابة بأمراض الإسهال الناجمة عن تلوث المياه.

٨- في مجال الأمن البشري:

ا- التقدم:

يعيش ما يتراوح بين ثلثي وثلاثة أرباع سكان البلدان النامية في ظل نظم تعددية وديمقراطية نسبياً.

ب- الحرمان:

في نهاية عام ١٩٩٧ كان هناك زهاء ١٢ مليون لاجيء.

ثانياً - أهم مؤشرات التنمية البشرية في سورية حسب ماورد في جداول تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩

- دليل التنمية البشرية لعام ٩٧   ٠,٦٦٣

- تطور نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي خلال الفترة ٩٧٥-٩٩٧

السنة	نصيب الفرد
٩٧٥	٩٩٨ دولار أمريكي
٩٨٠	= ١١٦٨ =
٩٨٥	= ١١٣٢ =
٩٩٠	= ١٠٤٠ =
٩٩٧	= ١٢٨٨ =

- متوسط العمر المتوقع لعام ٩٩٧   ٦٨,٩ سنة

- مؤشرات التعليم:	
- معدل معرفة القراءة والكتابة لعام ٩٧	٧١,٦٪
- نسبة القيد في التعليم لعام ٩٧	٦٠٪
- نسبة القيد في المرحلة الابتدائية لعام ٩٧	٦٤,٣٪
- نسبة القيد في المرحلة الثانوية لعام ٩٧	٤٢,٣٪
- نسبة الأطفال الذين لا يصلون إلى الصف الخامس	٦٪
- نسبة الأنفاق العام على التعليم للفترة ٩٣-٩٦	
إلى الناتج القومي الإجمالي	٤,٢٪
إلى الناتج الإجمالي الحكومي	١٣,٦٪
- نسبة الانفاق على التعليم الابتدائي والثانوي	
إلى جميع مراحل التعليم	٧١,٧٪
- نسبة الانفاق على التعليم العالي	
إلى جميع مراحل التعليم	٢٥,٩٪
مؤشرات الصحة:	
- نسبة السكان الذين لا يتوقع أن يعيشوا	
حتى سن الأربعين	٨,٥٪
- نسبة السكان اللذين لا يحصلون على	
- مياه مأمونة	١٤٪
- خدمات صحية	١٪
- صرف صحي	٣٣٪
- نسبة الأطفال دون سن الخمس سنوات	
الذين يعانون من نقص الوزن	١٣٪
مؤشرات المرأة:	
- نسبة المقاعد البرلمانية للمرأة	١٠,٤٪
- نسبة المشتغلات بالأعمال الإدارية والتنظيمية	٢,٩٪
- نسبة المشتغلات بالأعمال المهنية والفنية	٣٧,٠٪
- نسبة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي للنساء	١٣٩٧٪ دولار

ثالثاً - العولمة - ما الجديد حقاً؟

يقول البعض إن العولمة ليست جديدة، وإن العالم كان أكثر اندماجاً قبل قرن مضى. فقد كانت التجارة والاستثمارات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي قابلتين للمقارنة، وكانت الحدود مفتوحة، وكان كثيرون يهاجرون إلى الخارج. فما الجديد هذه المرة؟

أسواق جديدة:

إسواق عالمية متنامية في مجال الخدمات، الأعمال المصرفية، والتأمين والنقل. - أسواق مالية جديدة - رفعت عنها القيود التنظيمية ومترابطة عالمياً وعمل ٢٤ ساعة في اليوم ويمكن التعامل فيها عن بعد في الوقت الحقيقي بأدوات جديدة من قبيل «المشتقات».

- إزالة القيود التنظيمية في القوانين المناهضة للاحتكار وتكاثر عمليات الاندماج والتملك.

- إسواق استهلاكية عالمية تباع فيها ماركات عالمية.

جهات فاعلة جديدة:

- شركات متعددة الجنسيات تدمج إنتاجها وتسويقها، مسيطرة على الانتاج العالمي.

- منظمة التجارة العالمية - أول منظمة متعددة الأطراف لديها سلط إنفاذ امتثال الحكومات الوطنية للقواعد.

- نظام محكمة جنائية دولية يجري وصفه.

- شبكة دولية مزدهرة من المنظمات غير الحكومية.

- تكتلات إقليمية تتكاثر وتكتسب أهمية الاتحاد الأوروبي ورابطة دول جنوب شرق آسيا، والسوق المشتركة لبلدان المخروط الجنوبي واتفاق منطقة التجارة الحرة لدول أمريكا الشمالية والجماعة الإنمائية للجنوب الإفريقي، ضمن تكتلات كثيرة.

- ومزيد من مجموعات تنسيق السياسات مجموعة السبعة ومجموعة العشرة، ومجموعة الاثنين والعشرين ومجموعة السبعة والسبعين ومنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي.

قواعد ومعايير جديدة :

- سياسات اقتصادية سوقية تنتشر في شتى انحاء العالم تتسم بقدر من الخصخصة والتحرير أكثر مما كان عليه الحال في العقود الماضية .

- الأخذ بالديمقراطية على نطاق واسع كخيار للنظام السياسي .

- اتفاقيات وصكوك لحقوق الإنسان تتعزز من حيث كل من التغطية وعدد الموقعين - ووعي متزايد بين الناس بتلك الحقوق في شتى انحاء العالم .

- أهداف وبرامج عمل للتنمية معتمدة بتوافر الآراء .

- اتفاقيات واتفاقات بشأن البيئة العالمية - التنوع البيولوجي الأوزون والتخلص من النفايات الخطرة والتصحر وتغير المناخ .

- اتفاقات متعددة الأطراف في مجال التجارة تتناول جداول أعمال جديدة من قبيل الأحوال البيئية والاجتماعية .

- اتفاقات جديدة متعددة الأطراف للخدمات والملكية الفردية والاتصالات - أكثر إلزاماً للحكومات الوطنية من أي اتفاقات سابقة .

- اتفاق متعدد الأطراف للاستثمار تجري مناقشته .

أدوات جديدة (أسرع وأرخص ثمناً) للاتصال .

- إنترنت ووسائل اتصال إلكترونية تربط ما بين كثيرين من الناس في نفس الوقت .

- أجهزة هاتف محمولة .

- آلات فاكس .

- نقل أسرع وأرخص ثمناً عن طريق الجو والسكك الحديدية والطرق .

- تصميم بمساعدة الحاسب .

انكماش الزمن، وانكماش المكان، واختفاء الحدود - ولكن لصالح من؟

هل انهار الزمن والمكان والحدود في قرية عالمية؟

إن ذلك يتوقف على من تكون .

فالمتعاملون الماليون يحتلون مركز الصدارة في الروابط فالاتصالات الفورية والتدفقات الحرة لرأس المال واستمرار ورود أحدث الأنباء من شتى

أنحاء العالم هي أمور تمكن أسواق من النقد من لندن إلى جاكارتا ومن طوكيو إلى نيويورك من العمل كوحدة في الوقت الحقيقي .

والشركات المتعددة الجنسيات أيضاً تجوب القرية العالمية وتدمج الإنتاج فقد كان ٥٩٪ من مجموع الاستثمارات الأجنبية المباشرة في عام ١٩٩٧ هي عمليات اندماج وتملك شركات عبر الحدود «يمثل الاجانب الأغلبية في ملكيتها) .

والسياح يسافرون أكثر من ذي قبل خارج بلدانهم ولكن أكثر من نصفهم يسافرون من بلدان مرتفعة الدخل .

وباستطاعة المنظمات غير الحكومية من خلال موقعها على الانترنت، أن تقوم بحملات في شتى أنحاء العالم بحيث تنتقل رسائلها عبر الحدود في ثوان . ومن خلال البريد الالكتروني وشبكات الإعلام يقدم الناس مساندتهم لرابطات موجودة عبر الحدود - بدءاً من الشبكات غير الرسمية ووصولاً إلى المنظمات الرسمية .

والعمال فائقو المهارة يتنقلون أيضاً عبر القرية العالمية . فمع إمكانية استخدام الإنترنت في كل بلدة تقريباً يتزايد استخدام المتعلمين تعليماً عالياً للشبكة ويتزايد تواصلهم في شتى أنحاء العالم ففي عام ١٩٩٨ كان ما يزيد عن/ ٢٥٠٠٠٠/ من المهنيين الأفارقة يعملون في الولايات المتحدة وأوروبا . وهناك طلب كبير على المهاجرين ذوي المهارات في تكنولوجيات الحاسوب ففي الاتحاد الاوروبي وحده تظل / ٥٠٠٠٠٠/ فرصة عمل في مجال تكنولوجيا المعلومات شاغرة بسبب نقص المهارات الوطنية .

وتعرض الولايات المتحدة تأشيرة دخول خاصة للمهاجرين لابقاء صناعات التكنولوجيا الرفيعة مزودة بما يلزمها من عاملين .

أما العمال غير المهرة فإنهم على العكس من ذلك يواجهون عقبات وهناك أسر كثيرة موزعة عبر الحدود الدولية نتيجة لتزايد القيود الصارمة في البلدان الغنية على هجرة العمال غير المهرة بل أن ملايين من الناس ليست لديهم جوازات سفر - فمن الصعب الحصول على جواز سفر في بعض البلدان - ناهيك عن التأشيرات اللازمة للسفر إلى الخارج .

إن انهيار المكان والزمان والحدود ربما كان يخلق قرية عالمية ولكن لا يمكن لكل امرىء أن يصبح مواطناً فيها - فالصفوة المهنية العالمية تواجه حدوداً منخفضة ولكن بلايين آخرين يجدون أن الحدود ليست أقل ارتفاعاً مما كانت في أي وقت مضى.

العولمة - توحد الأسواق الاستهلاكية.

إن العولمة - وهي توحد أسواق التجارة والاستثمار والمال - وحدت أيضاً الأسواق الاستهلاكية، وهذا ينطوي على عمليتين:

إحداهما اقتصادية والأخرى اجتماعية فالتحرر الاقتصادي فتح أسواقاً للسلع الاستهلاكية، بدءاً من الكتب إلى الأغذية إلى الثلاجات إلى أجهزة التليفزيون. فقد أتاح رفع القيود عن الواردات وخفض التعريفات الجمركية مجموعة أوسع بكثير من السلع ذات نوعية أفضل بأسعار أكثر تنافساً. وتمتد العملية إلى مدى أبعد من ذلك - معجلة بالتمويل إلى نظام السوق الحرة الذي يحركه الإنتاج على نطاق كبير، الموجه إلى استهلاك على نطاق كبير، مع استمرار تدفق منتجات جديدة، وأجهزة للبيع. وتلعب الدعاية التجارية دوراً كبيراً في هذه السوق لتنافسية ولتوحد السوق الاستهلاكية عالمياً بعد اجتماعي أيضاً. فمع انهيار الحدود الوطنية في التجارة والاتصالات والسفر، يصبح البشر في شتى أنحاء العالم جزءاً من سوق استهلاكية عالمية موحدة، تضم نفس المنتجات ونفس الدعاية التجارية. وهم جزء من جماعات جديدة ذات مكانة هي «الصفوة العالمية» و «الطبقة الوسطى العالمية» و «المراهقون العالميون» فهم يتقاسمون نفس معايير الاستهلاك ويستهلكون من نفس مجموعة الملابس التي تحمل أسماء مصممين. ونفس مجموعة المنتجات الخاصة بقضاء العطلات. ونفس مجموعة دور السينما، ونفس الموسيقى - ، كذلك التسهيلات التعليمية ومراكز العلاج الصحي. فجماعات الصفوة في كوستاريكا وهندوراس وأماكن أخرى يمكن أن تشاهد برامج التسوق على شبكة التليفزيون الكابلية الدولية وأن تتسوق برامج بالهاتف مستخدمة بطاقاتها الائتمانية وهي بذلك تضع معياراً لمطامح آخرين كثيرين.

والانتشار غير العادي للماركات العالمية من سمات الاستهلاك في القرية العالمية. وقد كان بعض بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية أسواقاً سريعة النمو بوجه خاص بالنسبة للشركات المتعددة الجنسية ولمنتجاتها الاستهلاكية التي تحمل أسماء ماركات شهيرة. فقد وسعت مطاعم ماكدونالد مبيعاتها على نطاق العالم بمقدار ١٩ بليون دولار في الفترة ١٩٨٦ -١٩٩٦ وكان التوسع خارج الولايات المتحدة بنسبة ٦٤٪ كما أن الدعاية التجارية تتوسع بسرعة في كل مكان مروجة الوعي بالماركات العالمية ومعظم هذا الترويج يكون لمنتجات استهلاكية يومية مثل أدوات الحمام والأغذية والسجائر والمشروبات الخفيفة.

ولكن التوحد كان عملية متفاوتة - جعلت منتجات كثيرة متاحة لقلة، ولكنها مرئية للكثيرين وبينما الضغوط العالمية هي المستهلكون في سوق موحدة، فإن أخرين كثيرين مهمشون ومستبعدون خارج شبكة الاستهلاك العالمية.

رابعاً - مفهوم الأمن البشري العالمي

لقد طرح تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٤ مفهوم الأمن البشري فالتنمية البشرية مفهوم أوسع نطاقاً - لأنه عملية توسيع نطاق خيارات الناس أما الأمن البشري فمعناه استطاعة الناس أن يمارسوا هذه الخيارات في أمان وحرية واستطاعتهم أن يكونوا واثقين بدرجة معقولة من أن الفرص المتاحة لهم اليوم لن يفقدوها غداً. ومع تقدم العولمة نشأت منذ ذلك الحين قضايا جديدة تتعلق بالأمن العالمي، ولكن الإطار المفاهيمي المستمد من تقرير عام ١٩٩٤ ما زال صالحاً لتحليل قضايا اليوم العالمية.

فالأمن البشري له جانبان رئيسيان:

- الأمن من التهديدات المزمنة كالجوع والمرض والقمع.

- الحماية من الاضطرابات المفاجئة والضارة في أنماط الحياة اليومية سواء في المنزل أو في المجتمع المحلي وهذه التهديدات موجودة على جميع مستويات الدخل القومي والتنمية الوطنية.

التهديدات للأمن البشري :

إن فقدان الأمن البشري يمكن أن يكون عملية صامتة بطيئة – أو حالة طارئة فاجئة وعالية الصوت والبشر قد يكونون مسؤولين عن ذلك – بسبب خياراتهم السيئة في مجال السياسات وقد تكون المسؤولة عن ذلك قوى الطبيعة أو ربما قد يكون المسؤول هو مزيج من الاثنين – عندما يؤدي التدهور البيئي إلى كارثة طبيعية تعقبها مأساة إنسانية وتندرج التهديدات الكثيرة للأمن البشري التي تختلف بالنسبة للأفراد باختلاف الوقت في سبع فئات رئيسية :

– انعدام الأمن الاقتصادي
– انعدام الأمن الغذائي .
– انعدام الأمن الصحي .
– انعدام الأمن الشخصي .
– انعدام الأمن البيئي .
– انعدام الأمن المجتمعي والثقافي .
– انعدام الأمن السياسي .

التهديدات للأمن العالمي :

عندما يكون الأمن البشري معرضاً للتهديد في أي مكان فإنه قد يؤثر على الناس في كل مكان . فالجماعات والصراعات الاثنية والتفكك الاجتماعي والإرهاب والتلوث والاتجار بالمخدرات لم يعد بالإمكان حصرها داخل الحدود الوطنية وتنشأ بعض التحديات العالمية للأمن البشري بسبب سرعة اندلاع التهديدات التي تنشأ داخل البلدان فيما وراء الحدود الوطنية ومن أمثلة ذلك الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحراري وتجارة المخدرات وهناك تهديدات أخرى تتخذ طابعاً عالمياً بسبب التفاوتات بين البلدان – وهي تفاوتات تشجع ملايين من الناس على ترك ديارهم بحثاً عن حياة أفضل سواء كان نتيجة لانعدام المساواة – في الدخل أو في القوة السياسية . في شكل صراعات أهلية خطيرة بين مجموعات سواء كانت إثنية أو دينية أو اجتماعية .

خامساً- نحو إقامة بنيان أكثر تماسكاً وأكثر ديمقراطية للحكم العالمي في القرن الحادي والعشرين.

تماماً مثلما كانت آليات القرن التاسع عشر للحكم الوطني غير مناسبة لتحديات حقبة ما بعد الحرب كذلك فإن مؤسسات الحكم الدولي الموجودة حالياً غير مناسبة لتحديات القرن الحادي والعشرين وسيلزم وجود عناصر كثيرة من عناصر الحكم الوطني الأساسية في هيكل أقوى للحكم العالمي فمن الجوانب الأساسية للحكم العالمي كما هو الحال بالنسبة للحكم الوطني المسؤولية قبل الناس وقبل الإنصاف والعدل وتوسيع خيارات الجميع.

وسيكون من بين بعض مؤسسات الحكم العالمي الأساسية اللازمة للقرن الحادي والعشرين.

- أمم متحدة أقوى وأكثر تماسكاً لتكون منتدى للقيادة العالمية التي تتسم بالعدل والاهتمام بالشواغل البشرية.

- مصرف مركزي عالمي ومعرض عالمي يكون بمثابة الملاذ الأخير.

- منظمة تجارة عالمية تكفل التجارة الدولية الحرة والعادلة وتمتد ولايتها إلى سياسة التنافس العالمي وتتضمن أحكاماً مضادة للاحتكارات ومدونة قواعد سلوك للشركات المتعددة الجنسيات.

- وكالة للبيئة العالمية.

- صندوق استثماني للاستثمار العالمي من وظائفه إعادة توزيع الاستثمار.

- محكمة جنائية دولية ذات ولاية أوسع نطاقاً فيما يتعلق بحقوق الإنسان.

- أمم متحدة أوسع نطاقاً، تضم جمعية عامة ذات غرفتين لإتاحة تمثيل المجتمع المدني فيها.

- وحتى قبل بدء أو تحقيق هذه التغييرات الطويلة الأجل من الممكن أتخاذ إجراءات كثيرة خلال فترة السنة إلى الثلاث سنوات القادمة.

- فبإمكان البلدان النامية أن تتخذ جماعياً - لاسيما إقليمياً - مبادرات لتعزيز مواقفها في المفاوضات العالمية في مجالات التجارة وحقوق المِلْكِيَة الفكرية وغيرها من المجالات.

- وبإمكان فرادى البلدان إنشاء طريق رفيع المستوى لتنسيق السياسات المتعلقة بالعولمة وإدارة اندماجها وذلك لجعل أثر العولمة على التنمية البشرية أكثر ايجابية.

- وبإمكان البلدان المانحة أن تعجل التدابير المتعلقة بتخفيف عبء الديون وإعادة توجيه المعونة لصالح البلدان الأفقر ولصالح أولويات التنمية البشرية.

- ومن الممكن إنشاء مرفق مستقل للعون القانوني وللتظلمات لدعم البلدان الفقيرة والضعيفة في منظمة التجارة العالمية.

- وبإمكان جميع البلدان أن تتعاون تعاوناً أكبر لمكافحة الجريمة العالمية وتخفيف القوانين التقييدية التي تحمي السرية المصرفية.

- ومن الممكن استكشاف مصادر جديدة لتمويل ثورة التكنولوجيا العالمية، لضمان أن تكون عالمية حقاً وضمان تعبئة إمكاناتها لصالح القضاء على الفقر وثمة اقتراحان:

فرض ضريبة على الإشارات الرقمية الحاسوبية لتوليد موارد ووضع برنامج عام للتكنولوجيا الإنمائية مماثل لبرنامج المجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية المتعلق بالأغذية.

- ومن الممكن إنشاء فرقة عمل ممثلة لكي تعيد النظر في الحكم الاقتصادي العالمي بحيث تضم حوالي ٢٠ بلداً -كبيراً وصغيراً وغنياً وفقيراً - وتضم أيضاً القطاع الخاص والمجتمع المدني ويمكن أن تكون الفرقة مسؤولة أمام المجلس الاقتصادي والاجتماعي وأمام اللجنة المؤقتة التابعة لصندوق النقد الدولي واللجنة الإنمائية التابعة للبنك الدولي.

إن موجة العولمة التي سادت خلال العقد الماضي أو العقدين الماضيين هي مجرد بداية وسوف يتطلب العالم المندمج عالمياً حكماً أقوى إذ كان المراد أن يحافظ على مزايا التنافس في السوق العالمية ويجعل قوى العولمة داعمة للتقدم البشري.

وفي عشية الألفية الجديدة نجد الناس يتوقعون على نحو غير عادي

تشخيصاً جوهرياً بدرجة أكبر ومستعدين بدرجة أكبر لتلقي هذا التشخيص ومتلهفين بدرجة أكبر على التصرف بناء عليه. وحمى الألفية تحفز بالفعل جماعات كثيرة على صياغة رؤاها للمستقبل - من أجل مجتمعها المحلي وبلدها وكوكبها.

ومن اللازم أن يكون مستقبل الحكم العالمي - أهدافه ومؤسساته ومسؤولياته وأعماله - جزءاً من هذا الاستطلاع من جانب الناس في كل مكان وجمعية الأمم المتحدة الألفية منتدى عالمي يمكن أن يقدم زخماً قوياً للمضي قدماً بجدول الأعمال.

سادساً - ماالذي يجب عمله؟

أن العولمة توسع فرص تقدم بشري غير مسبوق للبعض ولكن تؤدي إلى انكماش تلك الفرص بالنسبة لآخرين وإلى تآكل الأمن البشري. فهي تدمج الاقتصاد والثقافة والحكم ولكنها تفتت المجتمعات. فالعولمة في هذه الحقبة تسعى، مدفوعة بقوى السوق التجارية إلى تعزيز الكفاءة الاقتصادية وتوليد النمو وإدرار أرباح ولكنها تغفل أهداف العدل والقضاء على الفقر وتعزيز الأمن البشري.

- فأولاً، تلزم سياسات ليست جديدة فحسب بل وأقوى لحماية وتعزيز التنمية البشرية تتضمن سياسات كثيراً ما تسمى «الحماية الاجتماعية».

- ثانياً، تتجاوز مشاكل كثيرة من مشاكل التنمية البشرية ما يمكن أن تعالجه الدول وحدها ومن ثم فهي تتطلب مزيداً من التعاون الدولي.

- ثالثاً، يجب أن تصدر إجراءات حماية وتعزيز التنمية البشرية ليس فحسب من الدول بل أيضاً من المجتمعات المحلية والمنظمات غير الحكومية وللشركات.

فالنمو الاقتصادي الذي يمثل مدخلاً هاماً للتنمية البشرية لا يمكن أن يتحول إلى تنمية بشرية إلا إذا كان التوسع في الدخل الخاص عادلاً وإلا إذا كان يدر أموالاً عامة تستثمر في التنمية البشرية في المدارس ومراكز الصحة

وليس في التسلح وتتوقف التنمية البشرية أيضاً على العمل غير المأجور الذي يقوم به الرجال والنساء في الأسرة المعيشية أو في المجتمع المحلي حيث يوفرون «الرعاية» البالغة الأهمية لبقاء الإنسان وتتوقف على البيئة الطبيعية وهي مورد أساسي آخر بالنسبة للجميع لا سيما بالنسبة للفقراء الذين يستمدون مصدر رزقهم من الموارد الطبيعية.

وتوسع الأسواق العالمية السريع - تعني توافر الظروف اللازمة للناس وللشركات وللدول للتنافس عالمياً والدافع إلى الخصخصة وتقليص العمل العام سعياً إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية يهيىء بيئة يسهل فيها تجاهل احتياجات التنمية البشرية مع خضوع الانفاق لضغط مالي وخفض الانفاق العام يضعف مؤسسات إعادة التوزيع مما يؤدي إلى أوجه انعدام المساواة ومع تنافس الأفراد في الاقتصاد العالمي فإنهم يقضون وقتاً في شحذ مهاراتهم والعمل في وظيفة بأجر بحيث يختصرون الوقت الذي يقضونه في أنشطة الرعاية وتقل الرعاية أيضاً نتيجة لتخفيضات الانفاق العام ولا تشمل أسعار السوق الحرة التكاليف البيئية الكاملة للإنتاج والاستهلاك مما يفرض ضغوطاً على البيئة الطبيعية.

وتلزم سياسات اقوى للتنمية البشرية مزيد من الاستثمارات لإعداد الناس للاقتصاد التنافسي العالمي وللمشاركة في المجتمع الشبكي العالمي - وذلك لتعزيز التنمية البشرية ولكن هذه السياسات لازمة أيضاً لإنجاح العولمة ففي نهاية المطاف سيرفض الناس وترفض الدول الاندماج العالمي والاعتماد المتبادل العالمي إذا لم يستفيدوا منهما وإذا أديا إلى زيادة ضعفهم فالضغوط ستتصاعد وقتئذ دافعة إلى العودة إلى الانعزالية في السياسة الاقتصادية والثقافية والأولويات السياسية.

فالعولمة لكي تحقق التنمية البشرية يجب أن يكون معناها:

١- الاخلاق : أي انتهاكاً أقل لحقوق الإنسان لا مزيداً منه وقدراً أقل من تجاهل القيم الإنسانية .

٢- التنمية : أي فقراً أقل للبلدان وللناس وليس مزيداً منه .

٣- العدل : أي تفاوتاً أقل بين البلدان والأجيال وداخلها لا مزيداً منه .

٤- الشمول : أي تهميشاً واستعباداً أقل للبلدان والناس لا مزيداً منهما .

٥- الأمن البشري : أي ضعفاً أقل للبلدان والناس لا مزيداً منهما .

٦- الاستدامة : أي استنزافاً وتدهوراً أقل للبيئة لا مزيداً منهما .

* * *

النظم الإدارية في حلب إبان العهد الأيوبي ٥٨٩-٦٥٨هـ/١١٩٣-١٢٦٠م

كمال بدور*

تمهيد:

يعد تاريخ الأيوبيين من التواريخ الهامة بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي، فقد واجه الأيوبيون منذ تأسيس دولتهم الحركة الصليبية في أوجها. ووقع عبء قتال الصليبيين والحد من توسعهم على عاتق الأيوبيين. وقد نهض صلاح الدين مؤسس هذه الدولة بواجبه، فتمكن من استرداد مناطق واسعة في بلاد الشمال.

(*) كمال بدور: باحث من سورية، ماجستير في التاريخ الإسلامي.

وجاء خلفاؤه من بعده فلم يستطيعوا أن يحملوا الأمانة كما يجب، فانقسمت دولته بين أبنائه وإخوته وبقية أهله، واتخذ كل منهم لقب «ملك» وأصبحت كل مدينة في الشام تدعى مملكة فكان يقال: مملكة حلب، مملكة حماة، مملكة حمص، مملكة دمشق. الخ. وكانت حلب من نصيب ولد صلاح الدين، الظاهر غازي، فأسس فيها أسرة حاكمة وراثية استمرت حتى قدوم المغول ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م.

وتعاقب على حكم حلب كل من الظاهر غازي (٥٨٩-٦١٣ هـ/ ١١٩٣-١٢١٦م)، وابنه العزيز محمد (٦١٣-٦٣٤ هـ/ ١٢١٦-١٢٣٦م)، ثم الناصر يوسف بن العزيز محمد (٦٣٤-٦٥٨ هـ/ ١٢٣٦-١٢٦٠م).

يتعرض هذا البحث إلى النظم الإدارية التي سادت في حلب في عهد ابن وأحفاد صلاح الدين في الفترة (٥٨٩-٦٥٨ هـ/ ١١٩٣-١٢٦٠م).

اعتمد الأيوبيون على النظم الإدارية التي كانت سائدة في دولة نور الدين زنكي، والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة.

قامت السلطة المركزية في العاصمة (حلب) بإدارة الدولة والإشراف على البلاد عن طريق نظام إداري محكم، تمثل في عدد من الأجهزة الإدارية المختصة، وكان على رأس الجهاز الإداري:

- **الملك**: استخدم في العصر الأيوبي لقب السلطان للدلالة على أحد أفراد الأسرة الذي كان على رأس السلطة العليا، وقد بدأ هذا في عهد الناصر صلاح الدين، وفي الحقيقة لم يتخذ الناصر هذا اللقب[١]، بل الأرجح أن معاصريه من المؤرخين هم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب، وهذا المصطلح شائع منذ تغلب ملوك السلاجقة على الخلافة في بغداد، إذ اتخذوه سمة عامة لهم[٢]. وبعد وفاة الناصر سمي كل أمير من السلالة الأيوبية بهذا اللقب بالوقت نفسه[٣]، ويمكن التمييز بين الأمراء المتعددين، حسب الصلة بين بعضهم بعضاً، وكذلك بحسب علاقاتهم مع رعيتهم، إذ

أننا نجد أن الذي يحمل لقب السلطان هو المقدم بين هؤلاء الأمراء، الذين كانوا يعدون أنفسهم أكفاء حتى لو لم يكونوا وارثين لسلطة ملكية. فمثلاً عندما يجتمع الظاهر صاحب حلب والمظفر صاحب حماة والعادل صاحب مصر ودمشق، فإن المؤرخين عندما يقولون «السلطان» فهم يقصدون العادل ولاشك، واقترن لقب السلطان بلقب الملك فيقال السلطان الملك الظاهر مثلاً، ويرجح أن السلطان في هذه الحالة هو الحاكم الأعظم، ثم يأتي الملك كتابع له. ونظراً لانقسام دولة صلاح الدين إلى مقاطعات، والتي عرفت بالممالك الأيوبية[٤]، لقب حاكم كل مقاطعة بلقب ملك. ويبدو أن هذا اللقب ناتج عن الشعور بأنهم كلهم أكفاء ومتساوون، وليس بينهم واحد أفضل من الآخر، ولهذا يظن أن لقب الملك قد أضيف إليهم لإثبات هذا المنطق. ولاريب فإن نسب الملك وإمساكه بزمام الأمور بقوة، وتمتعه بالشرعية في السلطة كان مهماً، لكن لم يعد كافياً، إذ لابد من إقرار سلطة الملك ببيعة صريحة، وفي أغلب الأحيان كان الملوك حريصين على تلقي البيعة من رعاياهم، الأمراء والأعيان وعامة الناس. لذلك كان لابد من تنظيم نوعين من البيعة، الأول دعي بالبيعة الخاصة، وهذه تشمل كبار رجال الدولة والقضاة ورجال الدين وأفراد الأسرة المالكة. والثاني هو البيعة العامة، التي كانت تقام لعامة الرعية، وتعقد عادة في المسجد الجامع في حلب. وقد اتبع ملوك حلب في حقبة البحث هذا التقليد بانتظام، وإن كانت تنشأ بعض المعوقات، فإن البيعة لم تكن معتبرة وتامة، وأيضاً لم يشعر الملوك بالأمان، إلا إذا تمت

فعندما كان الملك الظاهر على فراش الموت لم ينس أن يأمر أحد موظفيه، وهو القاضي نجم الدين بن الحجاج، نائب قاضي حلب بهاء الدين بن شداد، بكتابة نسختي يمين، أوصى بهذا اليمين بالملك لولده العزيز محمد، وبعده للصالح أحمد. وأمر بتحليف الأمراء والمقدمين في حلب بمقتضى النسختين[٥]، وهذه ولاشك البيعة الخاصة، ثم تم استحلاف العامة

بمسجد حلب الجامع[٦]. وكذلك تم الأمر عندما توفي الملك العزيز محمد وولي السلطة ولده الناصر يوسف (الثاني) في سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م بالرغم من أن المصادر لم تذكر ذلك بسبب تركيز المؤرخين على الأحداث السياسية التي كانت تعصف بالأسرة الأيوبية.

ويبدو أن هذا النظام الهجين، يبدو، وكأنه نظام «ديمقراطي»، لكنه في الواقع لم يكن كفيلاً بتوطيد سلطة الحاكم الجديد، لأن موافقة الشعب (العامة) لم تكن هي الفاصل، بل كانت موافقة الأمراء والأعيان هي الفاصل.

وفي حالة حلب خلال الحقبة المدروسة كان الأمراء الموافقون لهذا النظام أقوى من أولئك المعارضين، ولذلك تتابع أفراد أسرة الظاهر غازي مؤسس المملكة على عرشها حتى وصول المغول. ويجدر بنا أن نورد هنا ماذكره ابن واصل بشأن رأي الظاهر في الوراثة. لقد أورد أن الظاهر كان مؤمناً بأن من حق الولد أن يرث أباه، فأي أمير يموت يجب إقامة ولده مكانه، وإن كان صغيراً يعين له من يقوم بتربيته وتثقيفه إلى أن يكبر، ويبلغ سن الرشد فيسمح له عندها بممارسة مصالحه بنفسه. وهذا الرأي ينسحب على أرباب المناصب والمدرسين كبيرهم وصغيرهم[٧]. وتبعاً لهذا المبدأ فقد قام الظاهر بتعيين ابنه العزيز كوريث للعرش. وقد رأينا أن هذا المبدأ تمكن من العيش في أسرته حتى الغزو المغولي.

وفي الظروف العادية كانت البيعة العامة تتبع البيعة الخاصة مباشرة، لكن عند قيام مشاكل أو نزاعات على الوراثة فإن البيعة العامة كانت تتأخر، كما حدث في سنة ٦١٣ هـ بعد وفاة الظاهر، إذ تمت البيعة بعد أن استقرت الأوضاع في المدينة، ويبدو أن البيعة الخاصة هي الحاسمة، فقد كانت تتم بأسرع مايمكن ولو كان الوقت غير مناسب، في أثناء الليل أو في وقت الحروب، أو في أي مكان. فعند وفاة الحاكم تقضي الظروف بإقامة آخر، ويصبح من الواجب اختيار الملك الجديد وإقامة البيعة الخاصة له بسرعة.

إن الوراثة على العرش من المسائل الشائكة، لأنها متعلقة بالسلطة. وهذا - ولاشك - كان يؤثر على استقرار الدولة وعلى بنيتها، لأنه لابد من الاتفاق على أحد الورثة. فإما أن تتم الموافقة على الوريث الشرعي أو يتم الوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف. وكان هذا يؤدي إلى عواقب وخيمة في بعض الأحيان، لكن في أغلبها كان الملك يعين - في حياته - ولياً على العرش وذلك تجنباً للاضطرابات وتفادياً لأية مفاجأة قد تحدث بعد موته. ويقوم الملك بأخذ وثيقة رسمية يحلف عليها كبار أمرائه وأعيان دولته. وكان أحياناً يتم إضافة اسم ولي العهد إلى الخطبة، الذي كان، كما هو متعارف عليه، الابن الأكبر حتى ولو جر هذا إلى النزاع بين الأخوة والأحفاد. لكن هذا لم يحصل في عهد الظاهر الذي عهد بالحكم إلى ابنه العزيز الصغير بالرغم من أنه كان لديه ولد أكبر هو الملك الصالح أحمد، وهنا سيطرت مصلحة الدولة وأسرة الظاهر على الأمور الأخرى. فالعزيز ابن بنت السلطان العادل، والذي كان دائماً على خلاف مع الظاهر. وإيماناً من الظاهر بأن العادل لن يخاصم ويزاحم ابن ابنته على الملك، لذلك جعله ولياً لعهده وتغاضى عن حق الأكبر في وراثة العرش.

وأما العهد الذي كان يؤخذ على الأمراء والأعيان، فإنه لم يمنع من ظهور المنافسات بعد وفاة الملك، إذ لاتستطيع أية احتياطات مسبقة، ولاحتى الإسراع بتنظيم البيعة الخاصة للحاكم الجديد منع قيام المنافسات والمعارضات، التي حدثت بعد قيام الناصر بتولي الأمور بعد وفاة والده العزيز، والتي تم السيطرة عليها.

وقد حرص ملوك حلب على علاقاتهم مع الخلافة واحترام الخليفة، ووجدوا أنه من الفائدة تأكيد ذلك الاحترام عن طريق طلب تقليد بالمناطق التي يحكمونها. فقد أقاموا الخطبة للخليفة على منابر مملكة حلب، ونقشوا اسمه على السكة وهذه كانت في تلك العهود تدل على الاعتراف بالخليفة العباسي. وقد جرى العرف أن يقوم الملك أو السلطان الذي لاتشمل أملاكه

بغداد بالحصول على تقليد بأملاكه من الخليفة لإضفاء صفة الشرعية على حكمه، والظهور أمام الناس بأنه متقيد بالشرع. وكان الخليفة يرسل الخلعة مع رسول من قبله إلى الملك أو السلطان في المناطق التي لم تعد سلطة بغداد تشملها. فقد كان يرسل تشريف مؤلف من جبة أطلس بلون أسود مطرزة، ومعها طوق من ذهب يوضع على العنق، وسواران من ذهب أيضاً يوضعان في اليدين، وفرس لها مركب ذهب، ويصاحب هذا كله علم أسود مكتوب عليه اسم الخليفة يرفع فوق رأس صاحب الخلعة أثناء الاحتفال بلبسها، ثم يسير في موكب إلى مقر السلطنة[٨]. لقد كان الملك يتمتع بسلطات واسعة في المسائل السياسية والدينية مع تقييد نظري عام، وهو أن القانون معطى من قبل الله، لايمكن أن يغير أو يوضع من قبل أي انسان. وهذا - في أغلب الظن - ما دفع الملوك للحصول على تقليد من الخليفة بهدف إظهار شرعية قوانينهم وتصرفاتهم للناس. وحقيقة فإن هذه الشرعية قد حفظت مظاهر الخلافة حتى بعد أن فقدت سلطاتها الفعلية منذ زمن طويل. وقد حاول بعض الخلفاء الفعالين أن ينشروا نوعاً من السلطة خارج بغداد بالإضافة إلى الإشراف على المؤسسات الدينية، فقد حاولوا التوسط أخلاقياً بين المتصارعين بعيداً عن بغداد، إذ عمد الخليفة إلى إرسال السفارات لحل النزاعات بين الملوك من بني أيوب، لكنه لم يكن يملك السلطة لدعم تدخلاته هذه، لذلك فمن المؤكد أن بعض سفاراته قد أخفقت. وإذا كان التفويض الذي تعبر عنه الخلع ورسائل التقليد، الممنوح من الخليفة للحكام قد أطلق أيدي هؤلاء في شؤون الناس والبلاد، فإن هذا التفويض قد تضمن إقراراً بأن الخليفة هو مصدر السلطات دون سواه، بالتالي له وحده الحق في إعطائها لمن يشاء وحجبها عمن يشاء.

ففي سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م أرسل الظاهر - ملك حلب - القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب رسولاً إلى الخليفة حاملاً هدايا كثيرة وثمينة. وقد هيأ له أبهة كبيرة وزوده بالأموال والخلع والثياب الفاخرة وبمصوغات

الذهب والفضة، ووضع برفقته عدداً من الجند والحجاب. وذلك لإظهار العظمة والمقدرة لملك حلب، ومنافسة لغيره من الحكام، لاسيما أخوه الأفضل ـ صاحب دمشق ـ. فوصل ابن شداد إلى بغداد وأبلغ الرسالة، ثم عاد إلى حلب مكرماً معززاً[٩]. وبالرغم من عدم تحديد مضمون الرسالة فمن المرجح أنها كانت للحصول على التقليد والخلع من الخليفة، ولم يخبرنا المؤرخون رد الخليفة، ويمكن القول إن رده كان إيجابياً بسبب العلاقة الحسنة التي كانت بين الظاهر وبغداد، فقد طلب الخليفة الناصر من الظاهر سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م شراء أسلحة وذخائر ليشحن بها بعض القلاع شرق العراق، أرسل الظاهر الأسلحة المطلوبة ورفض أن يتقاضى ثمنها. وكذلك تم الإشارة إلى أنه في سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ ـ ١٢١٦ م وصل رسول الخليفة الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى حلب حاملاً معه تشريفاً جليلاً للملك الظاهر[١٠]، وهذا يرجح العلاقة الجيدة بين الطرفين، وحصول الظاهر على الخلعة والتقليد.

وذكر أبو شامة أن الملك العزيز قد أرسل شهاب الدين عبد السلام بن أبي عصرون في سفارة إلى بغداد للاتصال بالخليفة العباسي للحصول منه على الاعتراف به كوريث شرعي لأملاك والده الظاهر[١١]. وقد تم حصول العزيز على الخلعة في سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦م، إذ وصل رسول الخليفة يحمل الخلعة إلى الملك العزيز[١٢]، وهذا دليل على مباركة الخليفة لحكم العزيز وإضفاء الشرعية عليه في حكم البلاد التي تضمها مملكة حلب.

ويظن أن وريثه الناصر يوسف (الثاني) قد طلب الخلعة والتقليد من الخليفة، غير أن المصادر لم تذكر أنه فعل ذلك عند توليه الحكم سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ـ٣٧ م، وربما يعود ذلك إلى اهتمام المؤرخين بالأحداث الصاخبة في ذلك العام، وأهمها الحرب الأيوبية ـ الأيوبية، والحرب السلجوقية ـ الأيوبية. أو ربما يعود ذلك إلى صغر سن الناصر وقيام جدته «ضيفة خاتون» بالوصاية عليه حتى وفاتها سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ـ٤٣م. وفاجأتنا المصادر

بخبـر طلب الناصر الخلعة في سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٣-٥٤م. إذ أنه أرسل الصاحب كمال الدين بن العديم رسولاً إلى الخليفة يطلب الخلعة للناصر[١٣]. ويجب التنويه هنا أنه لايمكن الجزم بأن الناصر يوسف قد طلب الخلعة بعد وفاة جدته. ويظن أن طلبه الأخير كان لإضفاء الشرعية على سيطرته على دمشق وعلى الأراضي التي كسبها من المماليك نتيجة الصلح الذي تم على أيدي الخليفة، والتي امتدت حتى العريش[١٤].

وساد لدى الأسرة الأيوبية نوع من الخضوع ـ إذا صح التعبير ـ للحاكم الأقوى في الأسرة، أو كما كان يطلق عليه «السلطان» الأيوبي، الذي كان في معظم الأوقات حاكماً لمصر ودمشق حتى سيطرة الناصر، صاحب حلب على الأخيرة. فقد سعى حكام حلب دائماً للحصول على موافقة السلطان الأيوبي (حاكم مصر) على توليهم حكم مملكة حلب، وعلى استمرارهم في السيطرة عليها. وقد بدأ الظاهر غازي هذا التقليد، إذ أنه سعى بعد صراع طويل مع عمه العادل واستقرار الأمور بينهما، إلى الحصول على يمين العادل بسبب أن الأخير قد أصبح سلطان البيت الأيوبي، وأصبح يحكم مصر ودمشق، بالإضافة على مابيده من أملاك، حيث كانت هذه اليمين تعتبر ضمان لبقاء حلب بيد الظاهر[١٥]، وكذلك لضمان تأييد العادل لأفراد أسرته إذا قام أحد ماضدهم، وعلى هذا سعى الظاهر لأخذ موافقة العادل على تقليد ابنه حكم حلب بعد وفاته[١٦]. وقد حدث مايشبه هذا في سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦-٣٧م بعد وفاة العزيز محمد وقيام ابنه الناصر يوسف (الثاني) بالحكم، ونظراً لصغر سنه قامت جدته «ضيفة خاتون» بالوصاية عليه. واتفق رأي المجلس الذي تشكل لإدارة حلب ريثما يستقر الناصر على كرسي الحكم، على الحصول على موافقة الكامل، الذي كان سلطان البيت الأيوبي في ذلك الوقت[١٧].

وقد لوحظ أنه كان من المتعارف عليه في الأسرة الأيوبية أن يقوم سلطان البيت الأيوبي بإرسال خلعة وسنجق لأحد أفراد الأسرة الذي يتولى

أمر مقاطعة ما، وهذا ولاشك كان يعبر عن موافقة السلطان على تولي ذلك الأمير (الفرد) المقاطعة المعنية بالأمر. وهذا ماحصل مع ملك حلب العزيز محمد، حيث أرسل له السلطان الكامل (٦١٥ـ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ـ١٢٣٧م) الخلعة والسنجق مع الملك الأشرف، وقام الأخير بإلباسه الخلعة أمام الأعيان والأمراء وأهل المدينة[١٨]. وعندما يمتنع السلطان الأيوبي عن إرسال الخلعة، فإن ذلك كان يعني عدم موافقته على تولي الأمير المحروم منها الحكم. وهذا ماحدث عند تولي الناصر يوسف (الثاني) الحكم في حلب خلفاً لوالده العزيز محمد. فقد أرسل الكامل إلى الناصر خلعة بدون مركوب، فاعتبر هذا عداءاً صريحاً لمملكة حلب، وأثار حفيظة الوصية على الناصر «ضيفة خاتون» والأمراء، وشعروا أن الكامل لايكن لهم الود وأنه مستاء من تولي الناصر الحكم بسبب وجود أخ للعزيز أكبر منه عمراً هو الصالح أحمد ـ صاحب عين تاب ـ، ولذلك بادرت مملكة حلب إلى تشكيل جبهة مناهضة للكامل، بهدف تحصين نفسها ضده فيما إذا فكر بغزوها[١٩]. وكذلك اعتاد الأيوبيون في حلب على طلب اليمين من سلطان البيت الأيوبي الجديد في دمشق، فعندما أصبح الملك المعظم صاحباً لدمشق، أرسل إليه الملك العزيز رسولاً يطلب تجديد الأيمان له ولأتابكه طغرل[٢٠]. وعندما سيطر الملك الصالح إسماعيل على دمشق، بعثت مملكة حلب الصاحب ابن العديم رسولاً إليه لتحليفه للناصر يوسف الثاني على مابيد الأخير من أملاك، فوافق الصالح إسماعيل على طلبها على أن تساعده ضد الصالح أيوب، الذي أصبح صاحب مصر[٢١].

وأما بالنسبة للسلطة القضائية التي كان يتمتع بها ملوك حلب، فقد كانت تنضوي تحت عناوين مختلفة، إذ كان كل قاض شرعي يعين من قبل الملك أو باسمه، ولايستطيع ممارسة القضاء إلا بتفويض رسمي صادر عن الملك وهذا التفويض كان قابلاً للإلغاء في أي وقت وأي مكان. وكان الملك يتمتع من جهة أخرى بسلطة قضائية مطلقة سواء في الميدان الديني أو

الجزائي. وبالنسبة للأمور المتعلقة برفع المظالم فقد تجلى فيها دور الملك بصورة واضحة، لأنه كان يعد نفسه قاضي العدل يقضي بين الناس بحضور القضاة والعدول والشهود[٢٢]. ولم يتخل العزيز عن هذا الدور، فعندما بلغ سن البلوغ جلس مكان أبيه في دار العدل وأمر ونهى في الشكاوى المرفوعة إليه[٢٣]. وأما الناصر يوسف آخر ملوك حلب، فقد تابع هذا الدور الهام وجلس في دار العدل للبت في أمر المظالم المرفوعة إليه[٢٤]. وكما لاحظنا لم يتخلف ملك ممن تتابعوا على عرش حلب، عن مهمة القيام برفع المظالم، وهذا مايمكن اعتباره نوعاً من الإبقاء على الصلة مع جمهور العامة وإعطائهم نوعاً من الأمل بوجود العدل الذي يسهر الملك بنفسه على تطبيقه.

ومن المظاهر الأخرى للوظيفة الملكية مايدعى بالهبات الملكية، ذلك أن الحاكم الأعلى في المملكة يبدو أنه كان يفدي سلطته المطلقة بإغداق نعمه على أفراد حاشيته والمتملقين إليه وعلى المخلصين من خدمه وعساكره وأيضا على رجال الأدب والعلم والدين والنواحي الخيرية الأخرى، وحتى أن كرمه يمكن أن يشمل أصنافاً من الفقراء ورجال العلم غير المتملقين لأصحاب السلطة. وتتوقف أهمية وقيمة هذه الهبات على مشيئة الحاكم ورضاه. ومن المؤكد أنه كان يسودها كثير من التعسف والغبن لأن توزيعها يتم في اتجاه محدد ويدخل في مصلحة الحاكم والعادة التي سار عليها الحكام من قبل. وبما أن تحقيق الأمن والنظام أهم مهام الملك (الحاكم)، فإنه لابد من تحقيق هاتين المهمتين عن طريق جيشه الذي يغدق عليه الهبات، وعن طريق عدالته التي هي في نظر رعاياه مسؤولية كبيرة لاتقل عن تحقيق الأمن، لذلك كان الكثير من الأفراد والجماعات يعيشون على هباته السخية فيما إذا استمروا في السير مع سياسة الدولة. وكانت الهبات تنصب على الشخص الممنوح في أوقات مختلفة وأغلب الظن أنها كانت تتم في المناسبات كالاحتفال بالأعياد أو بالختان أو بولادة طفل للأسرة المالكة، وهناك نوع من العطايا التي ليس

لها حدود تقريباً وكمثال عليها الهبات والعطايا التي قام بها الملك الظاهر عند وصول «ضيفة خاتون» إلى حلب زوجة له في سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م. فقد احتفل بذلك اليوم وبالغ في إعطاء الهبات فأعطى «شمس الدين بن التبني» المرافق لها قرية من ضياع «الأرتيق» قرب «إعزاز» تمليكاً[٢٥]، بالإضافة إلى الأموال الوافرة. وخلع على أكابر حلب عند ولادة ابنه العزيز سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣م[٢٦]. واحتفل الملك العزيز في سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨م بعيد الفطر فخلع على كافة أرباب المناصب والأمراء ومقدمي البلد[٢٧]. ويمكن الاستنتاج مما تقدم أن الهبات نوع من فرض التبعية على الرعية، وبالتالي فرض نوع من تماهي الأعيان بشخصية الملك، وتنشأ حالة من التأييد المطلق للملك دافعها المصلحة فيبادر هؤلاء إلى تنفيذ رغباته دون مناقشة وتسويغ أفعاله بشتى الحجج وحتى إيجاد تخريجات شرعية لها. وقد ذكر المؤرخون مثالاً فذاً عن الهدايا والهبات الملكية، وذلك عندما حل الملك الأشرف ضيفاً على الملك الظاهر في سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨م، فقام، الأخير بحمل خلعة يومية للأشرف ضمت «غلالة، وقباء وسراويل، وكُمة وفروة وسيف وحصان ومنديل وسكين وتلكش» و استمر ذلك خمسة عشر يوماً. وقدم الطعام والشراب لعساكره والعلوفات لدوابهم. وقدم بالإضافة لذلك مئة ألف درهم، ومئة بقجة مع مئة مملوك[٢٨]. إن تفصيل ذلك يثير الدهشة ويدفع المرء للتفكير في طرق الحصول على ذلك الغنى الفاحش الذي تمتع به الملك ويدفع إلى التساؤل عن مصادره. ويمكن أن تدخل الاحتفالات بأنواعها ضمن مظاهر الوظيفة الملكية، فالاحتفالات الملكية كانت تقام في المناسبات الدينية والمناسبات الخاصة، وتتضمن الاحتفالات الدينية، الاحتفال بالأعياد ورأس السنة الهجرية، أما المناسبات الخاصة فيدخل ضمنها الاحتفال بالزواج والولادة والختان. ففي سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣م احتفلت حلب بولادة العزيز محمد، فعمت البشائر المدينة وعقدت قباب الزينة. ثم تم الاحتفال بختن الملك الصالح فنصبت الزينة وأقيمت أرجوحة تشبه الزورق من القلعة إلى المدينة واحتشد الناس وأخذوا يركبون الزورق

مابين سور القلعة والمدينة، وتم صياغة تماثيل متنوعة وطهر أولاد أعيان المدينة بهذه المناسبة[٢٩]. وكان يرافق ذلك نزول السلطان والأعيان وكبار قادة العسكر ليشاركوا في الاحتفالات وليلعبوا أحياناً في ميدان «باب الصغير»[٣٠] مايسمى بلعبة الكرة. وفي سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧ م أقام العزيز احتفالاً كبيراً بعيد الفطر فدعا إليه كافة الأمراء وأصحاب المناصب وأعيان المدينة ووزع الهبات على الجميع[٣١]. وهناك نوع آخر من الاحتفالات هو الاحتفال بالنصر، فعندما كان ينتصر جيش حلب في موقعة ما، تزين المدينة وتعم الأفراح البلد[٣٢]. وكان يقام في حلب مواكب ملكية، حيث يظهر الملك فيها راكباً على صهوة جواده وسط مظاهر السيادة وأبهتها، ومحاطاً بأفراد أسرته وحرسه الخاص المؤلف من المماليك بصورة خاصة. وقد يكون مسبوقاً برجال الدين وبعض الجنود وأحياناً بقاضي القضاة يتبعه سائر الجنود. وللأسف الشديد لم تذكر المصادر وصفاً لمواكب مملكة حلب، وإنما تم الاستدلال على ذلك مما ذكره ابن واصل عن موكب المنصور صاحب حماة. فقد ذكر أن الملك يركب على جواده ويسير في الموكب ويقوم بعض الجند باللعب بالسيوف بين يديه، ويكون في خدمته كثير من رجال الدين وأفاضل المدينة والأمراء والأعيان والجند. وأشار إلى أن موكبه يضاهي موكب الملك العادل وموكب ابن عمه الملك الظاهر[٣٣]، مما يستدل منه على أن موكب الظاهر كان أكثر غنى وسعة وأبهة.

وتشير المصادر إلى أن الحاكم كان يقيم في ضواحي عاصمة ملكه مع جنوده في حالة التأهب للقيام بحملة عسكرية أو عند الإحساس بخطر ما[٣٤]، وربما كان يرافق ذلك مآدب للناس، ولعل ذلك التصرف كان في سبيل الاستعداد للطوارئ وسعياً وراء الحصول على عطف الجماهير وبركة العلماء الذين قد يجلبون مرضاة الله.

وأخيراً فقد كان للشعراء منزلة عظمى ودور هام في مملكة حلب، وقد ارتفعت راياتهم من أول يوم قامت فيه المملكة بحلب. فقد تابع الظاهر

وأولاده سيرة أبيهم في إكرام الشعراء واحترام الكتاب، إذ اتخذوا الشعر وسيلة لدعم حكمهم وغرس حبهم في قلوب الرعية، وقد كانوا يتذوقون الشعر بشكل جيد وأكثر من هذا فقد كان الناصر الثاني شاعراً مجيداً وترك أشعاراً كثيرة[٣٥]. وكانوا يقومون بدورهم أثناء المواكب السلطانية وفي مناسبات الأعياد والزواج والولادة وحتى في أوقات الحزن والعزاء، وهم على استعداد دائم لإلقاء أشعار المدح والدعاء والتعزية للملك، وكذلك عند عودة الملك من مهمة يكون الشعراء من بين أهم المتقدمين إليه لتهنئته والترجيب به[٣٦]. ومهما كانت تلك العواطف التي يمكن الشك في صدقها، فإنها كانت جزءاً من المظاهر التقليدية المأخوذ بها في تلك الأوقات، كما كانت من الأمور الهامة للرفع من شأن أي حاكم من الحكام الذي يبني مجده عن طريق ضجة إعلامية حوله ودعاة ينشرون أفعاله وأفضاله بين الناس والممالك الأخرى التي انقسمت إليها البلاد.

ـ **حاشية الملك**: كان الملك يقيم مع عائلته ومع قسم كبير من جنوده وموظفيه في القلعة، التي هي مدينة محصنة في وسط حلب يتوافر فيها كل مايحتاج إليه الملك، فهي تمكنه من تلبية الحاجات العامة وحاجاته الخاصة فهو يستطيع من جهة أن يحتفظ داخلها بالقوة اللازمة له للسيطرة على المدينة والأماكن التابعة لها وإدارة شؤونها وحمايتها، كما يستطيع من جهة أخرى استخدام القوة ذاتها ليجني موارد المدينة وأقاليمها واستغلال سكانها[٣٧].

وأهم خصائص الحاشية تلك الظاهرة التي تتسم بها أغلب القصور الملكية في البلاد الإسلامية، حيث يحتل الحريم المتكون من الزوجات الشرعيات والجواري مكانة مرموقة، بالإضافة إلى عدد كبير من الخادمات والخصيان، ومايصاحب ذلك من حياة غامضة ومناورات مكبوتة. وقد كانت أمهات بعض الحكام جواري من أصل إسلامي أو غير إسلامي، وهذا مايدفع إلى الشعور بوجود تأثيرات لهؤلاء الأمهات على الأبناء وحرف سياساتهم باتجاه عاطفة الأم ـ الجارية. وقد كان للظاهر عدد كبير من الجواري واستدل على

ذلك من قيامه بتحرير مئة جارية ومئة عبد عندما أحس بقرب أجله[٣٨]، وكان ابنه الملك الصالح من إحداهن[٣٩]، وأيضاً كان الملك الناصر الثاني من جارية[٤٠]. وكانت النساء موضوعاً لعقد تحالفات زواجية لأغراض سياسية مع كبار السلاطين المجاورين، فقد تم زواج سياسي بين حلب وسلاجقة الروم، إذ عقد قران غياث الدين كيخسرو على أخت ملك حلب «الناصر يوسف الثاني»، وعقد قران الملك الناصر يوسف على أخت غياث الدين[٤١]. وكان أغلب أقرباء الملك بالمعنى الواسع يعيشون من هباته السخية، ومن الإقطاعات التي ينعم بها عليهم أو من الرواتب التي يتقاضونها من الخزينة، وكان بعضهم يقيم معه في القلعة وبعضهم الآخر خارج حلب في الياروقية، والقسم الثالث تسلم إقطاعات يتعيش منها أو إقطاعات إدارية، أي يتقلدون مناصب رسمية في الأقاليم[٤٢]. ولم يتوان الملك الظاهر عن استضافة أي فرد لجأ إليه من الأسرة، فقد حاول ضم شمل الأسرة الصلاحية بعد أن سيطر عمه العادل على أغلب دولة صلاح الدين، فأحسن إليهم ووضعهم تحت كنفه[٤٣].

ومما تقدم يمكن القول إن الحكم كان أسرياً، وقفاً على الظاهر وأولاده، وبهذا اتخذ طابعاً وراثياً طوال العهد الأيوبي في حلب، وتمتع الملك بصلاحيات واسعة في منح الإقطاعات ومكافأة القواد وأمراء الجيش وتعيين كبار الموظفين والنظر في المظالم وتحديد سياسة المملكة[٤٤].

ويلي الملك في الترتيب الإداري نائب الملك الذي كان ينوب عن الملك في فترة غيابه عن المملكة. ولم تتحدث المصادر عن نائب الملك في عهد الظاهر والعزيز، وإنما بدأت تذكره في عهد الناصر يوسف الثاني آخر ملوك حلب، حيث كان نائب المملكة الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين الأيوبي. وجعله الناصر يوسف يتصرف بالخزائن والأموال والغلمان بحرية تامة وكان يحترمه ويثق به. وقد قاد الجيش الحلبي في سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م. ضد الخوارزمية، ثم ناب عن الملك في حلب منذ سنة ٦٤٨

هـ/ ١٢٥٠م حيث انشغل الناصر بالصراع مع المماليك واضطر إلى الإقامة في دمشق. واستمر يؤدي عمله حتى استيلاء المغول على حلب سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م، واضطر إلى تسليمهم قلعة حلب بالأمان، حيث أدركه الموت إثر ذلك[٤٥].

وعرفت مملكة حلب منصب الأتابكية، والأتابك يقوم بتربية ولد الملك حتى يكبر ويبلغ سن الرشد ويتسلم أمور الحكم، ويكون عمله بتكليف من الملك الحاكم بالوصاية على أحد أبنائه الصغار[٤٦]. ويحكم الأتابك البلاد رسمياً باسم الملك الطفل، وتكون السلطة الحقيقية متركزة بيده[٤٧]. وقد قام الملك الظاهر بتعيين خادمه شهاب الدين طغرل أتابكا لولده العزيز محمد، وأضاف إليه ولاية القلعة والخزانة والنظر في مصالح النساء والدار[٤٨]. وأضاف ابن واصل أنه حكمه في جميع قلاع المملكة، وأناط به جميع أمور الدولة[٤٩]. وقد حكم البلاد وساسها بالعدل والسيرة الحسنة، وقام بواجب تربية العزيز أحسن قيام، وحافظ له على البلاد وذلك بالاتفاق مع الملك الأشرف بن العادل[٥٠]، واستمر في ذلك إلى سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م، إذ استقل العزيز بالملك وتسلم الخزائن من الأتابك، ونزل الأخير من القلعة إلى داره الواقعة بمواجهة باب القلعة[٥١]. لكن العزيز لم يحفظ حق الأتابك وذلك بتحريض من أصحابه، بل لجأ إلى انتزاع أملاكه، فانزوى الأتابك في داره إلى أن توفي سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣م[٥٢].

أما بقية الأعمال الإدارية فقد كان يقوم بها الجهاز الإداري الذي على رأسه الوزير، حيث كان يعد مساعد الملك في رسم سياسة الدولة والناصح الأمين، والمتحدث في أمور المملكة[٥٣]، وهو الذي يشرف على الأمور الإدارية ويراقب أعمال الدواوين وموظفيها وعمالها منعاً من قيامهم باستغلال مناصبهم. وقد قام ملوك حلب الأيوبيون بإسناد مهام إدارية إلى وزراء من أهل البلد، ينتمون إلى أسر ذات أصول اجتماعية سامية، وهامة ومعروفة بالعلم إذ أنتجت علماء بارزين. ومنصب الوزير يمثل مكانة هامة

أخذه الأيوبيون عن الأتابكية الزنكية التي أخذته عن السلاجقة، وإن طبيعة هذا المنصب السياسية والإدارية، وحدود اختصاصاته غير واضحة تماماً في العهد الأيوبي[٥٤].

وأشارت المصادر إلى وزير يقوم بمهمات دبلوماسية وخاصة كالصاحب كمال الدين بن العديم، ولقب الصاحب يطلق على الوزير في الدولة الأيوبية، وهو لقب يختص بالوزراء المدنيين دون العسكريين[٥٥]، وقد ترسل عن ملوك حلب إلى بغداد ومصر وإلى سلاجقة الروم، وناب عن الملك الناصر في دمشق[٥٦].

وكان الوزير يدير الجهاز الإداري من بيته، حسب ماذكر اليونيني، حيث يحضر إليه النظار والمستوفون من الدواوين المختلفة، فيتم بحث مجمل القضايا الإدارية فيما يخص عمل كل واحد منهم، ثم يتوجه الجميع إلى أماكن عملهم[٥٧]. وكان الجهاز الإداري يرتكز على مجموعة من الدواوين، وقد أفادنا «ابن العديم» بذكر بعضها، وإن عدم ذكر كل الدواوين لايعني أنها غير موجودة ضمن التنظيم الإداري. ويرجح أن يكون السبب تركيز المؤرخين على القضايا السياسية والحربية وإهمالهم النواحي الأخرى. والدواوين التي ذكرت هي: ديوان حلب أو ماسماه ابن العديم «كتابة الإنشاء والأسرار»[٥٨]، وديوان الجيش أو «ديوان الإقطاع والجند»[٥٩]، وديوان النظر.

ديوان الإنشاء (ديوان حلب): وقد أطلق عليه اسم ديوان «كتابة الإنشاء والأسرار»، وهو ذو أهمية كبيرة بسبب اتصاله المباشر بشؤون الحكم والإدارة الرسمية. ومهمته الرئيسة العناية بالمكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة مع الدول الأخرى، ويقوم أيضاً بإطلاع الملك على الرسائل الواردة من البلدان المختلفة، ويعد له الردود عليها[٦٠]. واتسع نشاطه بشكل ملحوظ في عصر الأيوبيين، وارتفع شأن صاحب هذا الديوان إلى منصب الوزارة وحتى إلى النيابة، وكثرت أعماله بسبب النشاط الذي مارسته حلب بحكم

علاقاتها المتنوعة مع جيرانها، . ومع الخلافة في بغداد. وقد تسلم هذا الديوان خيرة العلماء، فقد أرسل الناصر صلاح الدين مع الظاهر عندما عينه على حلب الكاتب المصري المؤتمن «حسن بن إسماعيل بن كاسيبويه» الذي تمتع بموهبة النثر الجيد والشعر الحسن، وهو من كتاب الدولة الفاطمية[٦١]. وهذا دليل واضح على التأثر بنظم الإدارة الفاطمية. وأسند الظاهر هذا المنصب إلى وزيره شرف الدين بن الحصين وشمس الدين بن أبي يعلى، الذي كان مستوفي دواوين حلب. وعندما توفي الأول استقل الثاني بالوزارة وبديواني الإنشاء وديوان الاستيفاء[٦٢]. وهذا يشير إلى أهمية ديوان الإنشاء وارتقاء صاحبه وعلو منزلته، وهذا بالتأكيد ما دفع الكثيرين إلى تعلم فنون الكتابة والتدرب على الإنشاء[٦٣]، فربما يجدون مكاناً لهم في دواوين الدولة. ونظراً للأهمية الخطيرة لهذا الديوان فقد أسند إلى القاضي الأكرم علي بن يوسف القفطي[٦٤] وذلك بسبب جمعه لفنون العلم: النحو والفقه واللغة والحديث والأصول والمنطق والرياضة والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل[٦٥]، وهذا لحاجة الديوان إلى رجال علماء يستطيعون الغوص في كل العلوم، . ويشير «ابن العديم» إلى جمع كاتب الإنشاء العمل الإداري مع العمل الديني.

وكان لصاحب ديوان الإنشاء أعوان أهمهم: نائب كاتب السر[٦٦]، الذي ينوب عن صاحب الديوان في القيام بأعماله أثناء غياب صاحب الديوان أو تخلفه لأمر عارض. وكان يتبع ديوان الإنشاء إدارة هامة هي البريد[٦٧]، التي ربطت عاصمة المملكة حلب بمختلف الأقاليم التابعة لها. وكذلك ربطت المملكة مع الممالك المجاورة كحماة وحمص ودمشق وحتى مصر. ووجدت مراكز خاصة للبريد تعرفنا عليها مما ذكره «ابن فضل الله العمري»[٦٨]، ولانستطيع اعتماد تصنيفه ذلك بسبب التغييرات التي قامت بها الدولة المملوكية، علماً أنها كانت طفيفة ولم تقلب الأوضاع رأساً على عقب، واستمرت إدارة البريد طيلة أيام بني أيوب[٦٩].

وارتبط أيضاً بكاتب الأسرار موظف هام، أطلق عليه اسم «الدوادار»، وهو الذي يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه، وتقديم العرائض (القصص) إليه، وأخذ توقيع السلطان على الرسائل والمناشير[٧٠]، وهو الذي يدخل الناس على الملك ويذكره بإنهاء العرائض لئلاً ينشغل عنها وينساها[٧١]. ونظراً لإطلاعه على مكاتبات الديوان فقد روعي في اختياره دائماً أن يكون من بين كبار الأمراء[٧٢]. وقد تم الاستدلال على وجود هذه الوظيفة مما ذكره ابن شداد، عز الدين، من أن الأمير بدر الدين أزدمر العزيزي (ت ٦٧٠ هـ) كان دوادار للملك العزيز ثم لولده الناصر يوسف الثاني[٧٣].

ديوان الجيش: وقد ذكر مترافقاً مع الإقطاع، فقد ذكره «ابن العديم» باسم «الإقطاع والجند»[٧٤]. ويتركز عمله في توزيع جميع الإقطاعات، والاهتمام بشؤون الصرف العام على الجيش والتعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والقلاع[٧٥]. ويسمى صاحب ديوان الجيش «ناظر الجيش» في حلب[٧٦]. وأهم أعمال الديوان إثبات وتنظيم أسماء أصحاب الإقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع أفراد الجيش، وجيوش الأمراء، وأمراء التركمان والعربان، وإنشاء قائمة «جريدة» وفق حروف المعجم بأسماء ماذكر أعلاه، وبالإضافة لذلك يذكر ابتداء إمرتهم حسب السنين الهلالية، وعمن انتقل إليه الإقطاع، وعدد الجنود في ذلك الإقطاع، ويضع أمام كل اسم عبرة إقطاعه «رمزاً لاتصريحاً»، وذلك بهدف السرية[٧٧] ويساعد ناظر الجيش عدد من المساعدين منهم «مشارف الجيش»[٧٨]، وعمله مشابه تماماً لعمل الناظر إلا أنه يزيد عليه بأن الحاصل من المستخرج يكون في مستودعه وتحت يديه بعد ختمه بخاتم الديوان[٧٩]. وأما مستوفي الجيش، فمهمته تحديد رواتب الجند وتسجيلها في كشوف، خاصة بمساعدة مستوفي الإقطاعات[٨٠].

وير تبط بديوان الجيش ماسمي بدار السلاح، السلاح خاناه أو

(الزردخاناه)(٨١) ، وهذه من أهم الدور السلطانية ، ومهمتها تأمين أنواع الزرد والسيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع وغيرها من أنواع السلاح ، ومسؤوليتها تعود إلى أمير دار السلاح(٨٢) ، وعليه تقع مسؤولية حفظ مايدخلها ومايخرج منها ، وأن ينتبه لئلا يصيبها التلف بسبب طول مدة التخزين ، وعليه تتبع ذلك بالإصلاح وإجراء المسح والدهان والصقل والشحذ والجلاء والخرز وغيره(٨٣) . ويقوم ديوان الجيش بالصرف على بناء الأسوار والقلاع ولاسيما قلعة حلب ، التي تعد صرحاً عسكرياً قوياً قل نظيره ، وقلاع الأقاليم الأخرى وأسوارها بالإضافة إلى شؤون الجيش(٨٤) .

وقبل الانتقال إلى التحدث عن الديوان الثالث ، نشير إلى بعض الدواوين الأخرى التي أشار إليها المؤرخون عند ذكرهم لحوادث معينة ، ولم يكن القصد ذكر الديوان . وأولها «ديوان الزكاة»(٨٥) ، والزكاة ، كما هو معروف ، واجبة على كل مسلم تام الملك ، ويصعب تحديد أوجه صرف أموالها بالرغم من ذكر «ابن المماتي» أوجه صرفها الثمانية ، وقد استندت دائرة تفكير «ابن مماتي» إلى الآية القرآنية ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾(٨٦) ، التي تحدد توزيع أموال الزكاة على المشمولين بها ، ولكن يبدو أنها كانت تصرف أيضاً على المؤسسات الخيرية المختلفة وعلى الجيش(٨٧) .

وهناك أيضاً «ديوان المواريث الحشرية»(٨٨) فقد كانت تركة المتوفى تقسم شرعاً بين الورثة ، بعد تأدية نفقات الدفن والديون والأموال الموصى بها إن كانت بها وصية . وإذا لم يكن هناك وريث أصبحت أموال المتوفى من المواريث الحشرية للدولة ، وكذلك الأمر إذا كان الوارث لا يستحق كل الميراث شرعاً ، فيأخذ نصيبه والباقي للدولة(٨٩) . ولم تذكر المراجع شيئاً عن جهات صرفه .

ديوان النظر: مهمته الإشراف على الإدارة المالية العامة للدولة، وقد استدل على وجوده من «ابن العديم» الذي ذكر «النظر في أموال القلعة والعسكر»، وذكر مستوفي الدواوين، وديوان الاستيفاء[٩٠]. وبما أنها تعود كلها إلى مايسمى «ديوان النظر» في الدولة الأيوبية، فإنه سيتم مناقشة تلك الوظائف الإدارية ضمن هذا الديوان. ويجب ملاحظة أن مملكة حلب لم تجر تغييراً جوهرياً على التنظيم الإداري، رغم الظن بأنه كان هناك بعض التعديلات في الوظائف وأسمائها وأسماء عمالها.

ويسمى صاحب هذا الديوان باسم «ناظر الدواوين»[٩١]، وقد ورد ذكر ذلك لدى «المقريزي»، حيث قال إن أبا حامد محمداً ابن خالد بن القيسراني الحلبي كان ناظر الدواوين في دمشق سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م[٩٢]، وهي كما نعلم كانت تحت حكم الناصر يوسف صاحب حلب. ومهمة الناظر الإشراف العام على الشؤون المالية من إيراد وصرف في كل دواوين المملكة[٩٣].

ويلي الناظر موظف كبير في الديوان يسمى «الشاد» ووظيفته التفتيش على مالية مختلف الدواوين وموظفيها[٩٤]، واستخلاص مايقرره الديوان[٩٥]. وقد ذكر «اليونيني» خلال سرد وفيات سنة (٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨م) أن عبد العزيز بن منصور بن وداعة أبا محمد عز الدين المعروف بابن وداعة الحلبي كان شاد الدواوين في دمشق وأعمالها في دولة الملك الناصر يوسف الثاني[٩٦]، وأيضاً كان علاء الدين أبو الرجا (ت ٦٥٤ هـ) شادا لديوان الملكة «ضيفة خاتون»[٩٧].

وقد وردت تسميات مختلفة لدى «ابن العديم»، و يظن أن أصحابها تابعين لديوان النظر فقد وردت تسمية «حافظ خزانة القلعة»[٩٨]، وأحياناً ورد باسم «ناظر القلعة»[٩٩]. ويظن أنه موظف خاص بالملك مسؤول أمامه مباشرة عن أموال خزانة القلعة، ويبدو أن مهمته قبض الغلال والأموال الداخلة إلى الخزانة، وتسجيلها وحفظها، ثم إخراجها بناء على أوامر

مكتوبة من الملك، ويلاحظ أن الحفاظ على الخزانة أمر خطير فهي مستودع أموال الملك، لذلك يجب أن يكون حافظها من القضاة الثقة[١٠٠]. وكذلك ورد اسم «النظر في أموال القلعة والعسكر»[١٠١]، الذي يظن أنه ديوان خاص بأموال القلعة وبالحرس الخاص المتواجد فيها بشكل دائم. ويمكن القول أن مسؤولية عسكر القلعة قد أضيفت إلى «حافظ خزانة القلعة» ومن ذلك اشتق هذا الاسم

وهناك موظف آخر يدعى «المستوفي»، وكان عمله ضبط الأعمال اليومية في الديوان ومراقبة الموظفين، ومراعاة جباية الأموال في مواعيدها المحددة[١٠٢]. وقد ذكره «ابن العديم» باسم «مستوفي الدواوين»[١٠٣]. وقد رأينا سابقاً أن الموظف المسؤول عن هذا الديوان أصبح وزيراً لدى الظاهر، ومسؤولاً عن ديوان حلب، مما يدل على الأهمية الكبيرة له.

ويظهر مما أورده اليونيني، أن إدارة حلب وأقاليمها تتألف من ديوانين رئيسيين: هما «الديوان العالي» الذي يهتم بشؤون الأقاليم ومايتبع لها عدا مدينة حلب، وله ناظر وصاحب ديوان، وعدد من المستوفين الذين يتوزعون على المهمات المختلفة، ويقومون بالمهام المسندة إليهم من الصباح حتى منتصف النهار، ثم يتجه كل واحد منهم إلى داره، ولايباشر عملاً حتى اليوم التالي. وأما الديوان الثاني فهو «الديوان السامي» الذي يهتم بالمدينة وجهاتها المختلفة. ويتولى إدارة أمور هذا الديوان «مشد» يدعى «أمير الديوان»، ويتبع له المتولون لأمور جهات المدينة، ويظهر أنها كانت متعددة. وكان مركزه مدرسة - لم يذكر اسمها - تقابل القلعة، حيث يجتمع فيه ولاة جهات المدينة برئاسة أمير الديوان ويصرفون أمور المدينة إلى منتصف النهار ثم يغادرون إلى بيوتهم إلى اليوم الثاني. ويتولى هذين الديوانين الوزير، الذي كان في ذلك الوقت « عيسى بن طاهر بن نصر بن جهبل أبو محمد الحلبي الحاسب بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد الشيباني» المعروف بابن القفطي الحلبي، وهو أخو القاضي الأكرم جمال الدين يوسف الذي توفي

سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م. وكان أبو محمد يتولى مالية «حران»، فنقل إلى حلب وسلم الوزارة مكان أخيه وبذلك أصبح مسؤولاً عن الأموال وأمور الولايات.

وكان يجلس على بابه كاتب يسمى «كاتب الدرج»[١٠٤] ومهمته إعداد الرسائل والأوامر التي تخرج من الوزير إلى مختلف الدواوين المتعلقة بالأمور المالية وأمور الولايات[١٠٥]، وقد كان كاتب درج الوزير «أبا محمد بن القفطي» عين الدين بن صقر وهو من أهل حلب، وقد كان لايقبل التوسط لأحد ولايساعد أحداً[١٠٦]م. ويتضح من ذلك كيفية إدارة مملكة حلب في عهد ملكها الأخير، الناصر يوسف (الثاني). ولايمكن تعميم هذا على عهدي الظاهر وابنه العزيز، رغم عدم استبعاد ذلك. ويقود هذا إلى دراسة الحياة الإدارية على قسمين «إدارة المدينة» و«إدارة الأقاليم».

- إدارة المدينة:

كانت المدينة تدار من قبل «الديوان السامي»، كما اتضح من المادة المعروضة أعلاه، وإلى جانب ذلك كان هناك عدد من الموظفين والأمراء، يديرون جهات ومصالح متعددة. وقد ذكر المؤرخون عدداً منهم في سياق ذكرهم أوامر التعيينات أو التغييرات التي يجريها الملك والحاكم الجديد الذي يملك المملكة. ويرد ذكر اسم شاغل الوظيفة دون التعرض إلى الصلاحيات وحدودها. ويأتي في مقدمة هؤلاء الشحنة، وهو قائد الحامية العسكرية للمدينة، ويظهر أن صلاحياته أمنية وإدارية فهو مسؤول عن أمن المدينة والمحافظة عليها واستقرارها ويعين من قبل الحاكم (أو الملك)[١٠٧].

كذلك تم ذكر اسم «رئيس المدينة»[١٠٨]، وكانت رئاسة المدينة من الوظائف الهامة في عهود ماقبل الأيوبيين، ويبدو أن دور الرئيس قد اضمحل ولم يعد يسمع باسمه إلا عند العزل أو التعيين أو قيام فتنة ضده، وهذا ربما يدل على سيطرة الحاكم على كل الأمور بنفسه، وعدم إتاحة الفرصة لغيره لفرض إرادة أو سلطة ما على إدارة الدولة.

وأول رئيس للمدينة في عهد الظاهر غازي هو «صفي الدين طارق بن أبي غانم بن الطريرة»[١٠٩]، وخلفه في المنصب ابنه جمال الدين علي، أبو القاسم[١١٠].

ثم يختفي ذكره حتى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م، حيث يرد ذكر اسم لرئيس حلب، في معرض الحديث عن حصار المغول لقلعة حلب. فقد قال أبو الفداء، أن جماعة من أهل القلعة قد هاجموا رئيس حلب «صفي الدين ابن طرزه» والقاضي نجم الدين أحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عصرون، وقتلوهما بسبب اتصالهما بالمغول للاتفاق على تسليم القلعة[١١١]. وقد كان لرئيس المدينة «نائب»[١١٢] يقوم بمهام الرئيس في حال غيابه. وكذلك يمكن الإشارة إلى منصب «مقدم الأحداث» الذي لم يكن أوفر حظاً من رئيس المدينة، حيث خبا دوره ولم يعد يذكر إلا في مناسبات قليلة جداً. وقد ذكره «ابن العديم» في أثناء حديثه عن قيام عامة حلب في سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م بالثورة على المحتسب «مجد الدين بن العجمي» بسبب رفعه الأسعار، إذ يقول: إن العامة هاجمت المحتسب، وخربت «دكته»، وحاولت قتل نائبه. ولم تكتف بذلك بل سارت إلى داره لنهبها، فتدخل والي المدينة وأمير العسكر وأوقفوا ذلك. لكن العامة ظفرت بأخيه «الكمال بن العجمي» فرجمته بالحجارة، مما اضطره إلى الهرب للاحتماء بالمسجد الجامع فحماه «مقدم الأحداث»[١١٣]. ويتضح من ذلك أنه كان هناك وجود لمنظمة «الأحداث» ولهم مقدم يتكلم باسمهم ويدير أمورهم. ولكننا لانعرف مدى قوتهم، وهل لهم وجود ذاتي مستقل، أم أنهم تابعون للدولة يعملون بأمرتها.

ويبدو أن حكم أسرة الظاهر الأيوبية قد ضغط إلى حد ما على المنظمات الشعبية - إذا جازت التسمية - وجعلها مسلوبة الإرادة ولادور لها. وهذا كله مجرد تخمين ولايمكن الجزم بما كان الوضع تماماً بل يمكن افتراض أنهم لم يستطيعوا مجابهة الدولة بسبب تمكنها من السيطرة على المدينة عن طريق إدارة حازمة.

أما **والي القلعة**(١١٤)، فهو موظف هام في سلسلة المناصب الأيوبية، وقد كان له تاريخ حافل في الحياة السياسية والإدارية إلى جانب والي المدينة في عهد المرداسيين والسلاجقة(١١٥). وقد كان يقيم في القلعة، وهو يعين مباشرة من قبل الحاكم، فعندما استولى صلاح الدين على حلب عين الأمير سيف الدين يازكج الأسدي والياً على القلعة(١١٦). أما الملك الظاهر فقد عين الأتابك شهاب الدين طغرل والياً على القلعة، بالإضافة لمهام الأتابكية والخزانة والنظر في مصالح الدار والنساء، وعزل الأمير «بدر الدين ايدمر»(١١٧) الذي لايعرف تاريخ ولايته القلعة بالضبط. وأما الأتابك طغرل فقد رفع الملك العزيز يده عن ولاية القلعة في سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م، وولى فيها مملوكاً له، لم تشر المصادر إلى اسمه(١١٨).

أما مهام والي القلعة فقد كانت الإشراف على فتح وإغلاق باب القلعة المخصص لنزول وصعود الجند(١١٩)، وكذلك تفقد الأسوار والمنافذ والعمل على صيانتها وإصلاحها، ثم تعدت صلاحياته إلى الفصل بين العامة في حال حدوث خصومات(١٢٠). وقد كان لوالي القلعة في عهد الملك العزيز دور كبير في الأحداث السياسية والأمور الإدارية، فقد تولى الأتابك شهاب الدين طغرال أتابكية العزيز الذي كان طفلاً، وقام بالإضافة لذلك بتولي النظر بالخزنة ومصالح دار الملك، وكذلك أصبح مسؤولاً عن المناصب الدينية(١٢١). ثم أصبح مسؤولاً عن ترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والإقطاع بعد طرد وزير حلب «ابن أبي يعلى»(١٢٢). وبذلك حكم حلب كالملوك وأصبحت فروض الطاعة والولاء تقدم إليه بشكل مساو لتلك التي تقدم للملك العزيز، الطفل. واستمر في ذلك حتى استلام العزيز الحكم بشكل مستقل، فنزل الأتابك من القلعة. ولاتخبرنا المصادر عن شخص آخر قام بهذه المسؤوليات دون أن يفكر بالاستئثار بها لنفسه، أما في هذه الحالة فقد تخلى الأتابك عن كل مسؤولياته عندما بلغ الملك الطفل السن التي تسمح له بالجلوس على العرش(١٢٣).

وأما **المحتسب**، فقد كان له دور هام في الإشراف على الأسواق

والموازين والمكاييل والقيام بالمحافظة على الآداب العامة، وصيانة المحرمات ومراعاة أحكام الشريعة ومحاربة الغش[١٢٤]. والحسبة نظام إسلامي، مهمته الإشراف على المرافق العامة، وهو وظيفة دينية شبه قضائية[١٢٥]، بسبب اتصالها بالأحكام الشرعية، وأصبح منصب المحتسب في العهد الأيوبي من وظائف الإدارة العامة.

وقد ذكر المؤرخون المحتسب من بين الرجال الإداريين الذين كانوا في حلب، فقد ذكر ابن العديم أن محتسب حلب في أيام الملك العزيز كان «مجد الدين بن العجمي» الذي لم يكن محبوباً من قبل أهل حلب، وقد تدخل في تسعير الخبز في سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م، فثارت عليه العامة[١٢٦]. وقد كان لايجوز للمحتسب تسعير المواد والبضائع إلا في سنوات القحط، وإن فعل ذلك، فهو فعل حرام[١٢٧]. وكانت حلب قد مرت بصعوبات اقتصادية بسبب احتباس المطر سنة ٦٢٨ هـ، فبادر أهل حلب إلى صلاة الاستسقاء، فهطل مطر يسير، وهبطت الأسعار قليلاً. واستمر سعر الخبز مرتفعاً إلى سنة ٦٢٩ هـ، ثم انخفض إلى النصف، فتدخل المحتسب «ابن العجمي» ورفعه قليلاً، فأدى هذا العمل إلى ثورة أهل حلب عليه، وحطموا دكته، ورجموا أخيه «الكمال بن العجمي» بالحجارة[١٢٨]. وقد أغفلت المصادر ذكر أسماء أصحاب هذه الوظيفة في حلب، إلى أن ذكر المقريزي اسم محتسب دمشق في عهد الناصر الثاني خلال ذكره للمتوفين في سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩م. وقد كان محتسب المدينة نجم الدين، مظفر بن محمد بن الياس بن السيرجي الدمشقي، الشافعي، وتولى بالإضافة للحسبة بيت المال[١٢٩].

وأخيراً فقد ذكرت المصادر منصب «الاستاذدارية»[١٣٠]، والأستاذدارية هو المتحدث في شؤون البيوت السلطانية من مطابخ وشراب وماشية وغلمان، وهو الذي يؤمن طلبات السلطان ويتحكم في غلمانه وفي باب داره[١٣١]. ثم أصبح صلة الوصل بين الحاكم والدواوين والفلاحين

وغيرهم[١٣٢] . وللأسف الشديد لم تخبرنا المصادر عن مهام صاحب هذا المنصب في حلب وماهو دوره تماماً، إنما ذكر اليونيني أن أمره كان نافذاً في المملكة كلها، وله إقطاعات كثيرة تدر عليه أموالاً طائلة[١٣٣]، مما يدل على مدى نفوذه ودوره الكبير.

ومن المؤكد وجود وظائف كثيرة سواء في الدواوين أو في قصر الحاكم، غير أن مصادرنا لم تذكرها، وهذا لايعني أنها غير موجودة، وإنما تركيز المصادر على القضايا السياسية والحربية أدى إلى إهمال الجوانب الحضارية.

أما إدارة الأقاليم فقد اختص بها «الديوان العالي» معتمداً في الإدارة على الولاة، وكانت أقاليم حلب مقسمة إلى ثلاث عشرة ولاية في عهد العزيز وأتابكه[١٣٤]، ولانعرف بدقة مراكز هذه الولايات، ويمكن أن تكون تلك المناطق التي يشير إليها «ابن العديم» بأن فيها والياً يقطع الخصام، وقاضياً يفصل الأحكام، وفيها منبر وخطيب[١٣٥].

وهذه الإدارة قد تمت من خلال النظام الإقطاعي السائد في ذلك العصر، والذي هو ظاهرة سياسية واقتصادية وحربية وإدارية، واجتماعية أيضاً[١٣٦]. ويهمنا هنا الإقطاع الإداري، الذي يعني أن يقوم صاحب الإقطاع بحماية القرى الداخلة ضمن إقطاعه من كل ما يسيء إليها، وتوفير الأمن لها، والضرب على أيدي العابثين والمفسدين بقوة، والاهتمام بالأمور الخدمية، وجمع الأموال المستحقة، وأهمها الخراج وأموال الزكاة، والضرائب المختلفة[١٣٧]، وتأمين احتياجاته واحتياجات الجند التابعين له، والذين يعيشون من إنتاج هذا الإقطاع. فقد كان شائعاً في العهد الأيوبي مايسمى «الإقطاع العسكري»، أي أن يقوم صاحب الإقطاع بالتعهد بتقديم عدد من الجند كاملي العدة، وجاهزين للقتال لمساعدة جيش الملك زمن الحرب، وكثيراً ماكان ينزع الإقطاع من صاحبه إذا أخل بهذا الشرط[١٣٨]. وفي حلب كانت تقطع الأقاليم لأمراء من مماليك السلطان[١٣٩]، الذين

يعتمدون بدورهم على عدد من المساعدين، كان يحمل الواحد منهم اسم «طواشي»[١٤٠]، ويبـــدو أنهم أخص مماليك ملك حلب وهم مماليك «خصي»[١٤١]، وقد يكونون مساويين لمماليك الأمراء[١٤٢]. وكان الملوك والأمراء يولون مماليكهم الخاصين الأعمال في الأقاليم والنواحي والقرى، وقد أورد ابن شداد مايشير إلى أن أصحاب الإقطاعات كانوا من أخص مماليك الملك الظاهر أو من أتى بعده من خلفائه، فقد أشار أثناء الحديث عن «حارم» أن الظاهر قد ولى عليها مملوكاً خاصاً به[١٤٣]. ويمكن أن يكون أحد أمراء الجيش الكبار، فقد أقطع الظاهر الأمير سيف الدين بن علم الدين ولاية «إعزاز»[١٤٤]. ويقوم الأمراء أصحاب الإقطاع، باعتبارهم الأشخاص المكلفين بمهمة الإدارة من طرف السلطة العليا، والذين يمثلون ركائز الجهاز العسكري الموزعين في أنحاء مملكة حلب، بإدارة إقطاعاتهم بالاعتماد على مماليكهم «الطواشية»، حيث يتولى كل واحد منهم جزءاً من الإقطاع، ويدعم هذا ماذكره ابن شداد عن «حارم»، إذ كان صاحبها يدعى نائب السلطان، ويتبع له أكثر من ثلاثين والياً يديرون مفردات الإقليم تبعاً لرأيه[١٤٥]، أما «بالس» فكان يديرها مع توابعها في عهد الملك الظاهر الأمير «أثير الملك» بواسطة ثمانين طواشياً[١٤٦]. ويظن أن هؤلاء كانوا مسؤولين عن زراعة الأرض والعناية بها، والاتصال مع الفلاحين والإشراف عليهم، وعلى المحاصيل وجنيها في أوقاتها، وصيانة المرافق العامة ضمن مجال عمل كل منهم، ثم جباية الخراج والضرائب الأخرى المقررة، وحفظ الأمن داخل قراهم، وأيضاً كانوا مسؤولين عن جمع الجند، وتخصيص جزء من الإقطاع لكل واحد منهم. وهذا لايعني أن الإدارة في الأقاليم غدت مستقلة عن السلطة المركزية في مركز المملكة، بل كانت الدولة تشرف على الأقاليم بإحكام، وتمنع حالات الظلم والتمرد، حتى إنها كانت تتدخل أحياناً لمنع الظلم وتجبر أصحاب الإقطاعات على التزام القواعد المقررة في مناشير الإقطاع الصادرة عن الديوان المختص[١٤٧].

ويلزم ماتقدم أن يتم الحديث عن إدارة القبائل، حيث لم تمدنا المصادر بمعلومات عن النظام السياسي والإداري الخاص بقبائل منطقة حلب. ويبدو أن الرئاسة في القبيلة كانت تتولاها عائلات معينة من القبيلة هيمنت على السلطة لسبب من الأسباب كالقوة وكثرة الأموال والجاه، أو بواسطة تدخل الملك أو أمراء الأقاليم، ويظهر أن كل قبيلة أو فرع منها كانت خاضعة لشيخ يختار من بين أفرادها حسب العادة المتبعة مدى الحياة[١٤٨]، ومن المؤكد أن ذلك الشيخ يكون منتمياً إلى عائلة محظوظة، تمكنت في وقت من الأوقات من فرض هيمنتها على أبناء قبيلتها، وهذه الهيمنة هي ما تسميها المصادر «الرئاسة». ولم يكن هناك قاعدة يخضع لها تعيين الشيخ من طرف أبناء قبيلته، بل إن ماكان يرجح كفة الشيخ المرشح هو النفوذ الشخصي الذي يتحلى به في ميدان القول والعمل والانتساب إلى عائلة قيادية في القبيلة، ومساندة من أحد الفروع القوية في القبيلة. فللشيخ أو لرئيس القبيلة دور كبير في قيادة قبيلته إلى الحرب، ويكون الأول في المعارك، وذلك بالاشتراك مع أقربائه. وكذلك يشرف على الترحال الموسمي من منطقة إلى أخرى، وهو الذي يتولى شؤون قبيلته المتصلة بملك البلاد أو الولاة المحليين، ويجمع الضرائب المفروضة من قبل سلطة الدولة التي تكون القبيلة في أراضيها. وله أيضاً دور كبير في تسوية النزاعات وحل الخلافات[١٤٩].

ويظن أنه كان يعتمد على أقربائه في إدارة شؤون قبيلته، حيث يكونون خيرة المساعدين والمستشارين، وإلا فإنهم يكونون من ألد أعدائه، لهذا لابد وأنه كان يداريهم ويعتمد على آرائهم بالإضافة إلى آراء أعيان القبيلة. وكانت تتعرض سلطة الرئيس واستقلالية القبيلة إلى خطر تدخل الحكومة المركزية التي كان لها تأثيرات تظهر بدرجات مختلفة. ويبدو أن أغلب رؤساء القبائل كانوا لايأنفون من تقلدهم السلطة من قبل الملك، الذي كان يمنح الرئيس أو الشيخ مرسوماً يقلده فيه إمرة القبيلة، وحتى أنه يؤمره على القبائل الأخرى المتواجدة في منطقة سلطان هذا الملك أو ذاك. وهذا مافعله الملك العادل مثلاً عندما قلد «حديثة بن فضل بن ربيعة» إمرة القبائل المنتشرة في الشام، من

«دمشق» إلى «قلعة جعبر» على نهر الفرات، والمنتشرة أيضاً على ضفتي النهر حتى أطراف العراق[١٥٠]. إن تقليد سلطان البلاد الرئاسة لشيوخ القبائل معناه دمج هذه القبائل ضمن مؤسسات الدولة، وبذلك يمكن للسلطان أن يتدخل بصورة صريحة أو خفية في اختيار زعماء القبائل. ومن شبه المؤكد أن سياسة الدولة تجاه زعماء القبائل، سواء أكانت صارمة أم متسامحة فهي خاضعة لمبدأ هام وأساسي، وهو عدم السماح باتحاد القبائل، وهي وإن كانت تسعى دوماً إلى ترك مساحة واسعة للخلافات والصراعات، فإنها كانت تراعي مسألة الاحتفاظ بسند فعال من القبائل أو فروعها، وكانت تقوم بتشجيع أكثرها خضوعاً للسلطة فتوفر لها الإمدادات العسكرية والمؤن. وتشجع فرعاً ضد آخر، وقد استغل الأيوبيون تنافس الفصائل أو القبائل وتحالفوا مع فرع ضد منافسه[١٥١]. وكل هذه الأعمال فقط لمنع التحالف بين القبائل البدوية خوفاً من خطرها الكبير على السلطة المركزية. وقد لوحظ أن زعماء القبائل كانوا يقبلون بسيادة الدولة إذا كان بالإمكان الحصول على فوائد منها، وإلا كانوا يقومون عليها، وقد كان لتبعية رؤساء القبائل للدولة أشكال مختلفة ومتعددة، فمنها حالات تعايش، كما حصل أثناء هجوم «عز الدين كيكاوس» ملك سلاجقة الروم على حلب سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٧م، حيث أتى الملك الأشرف لمساعدتها ضد السلاجقة استجابة لطلب أتابكها، وطلب الأشرف مساعدة قبائل عربية بدوية من طيء بزعامة «مانع بن حديثة»، فعاشت هذه القبائل في بلاد حلب، ولم يتعرض لها أحد، وذلك بسبب الحاجة لمساعدتها ضد السلاجقة[١٥٢]. وهكذا اضطرت الدولة إلى قبول هذه الحالة من العبث، لأنها لم تكن قادرة على منعها بسبب المصلحة.

وكانت القبائل، أحياناً أخرى، تنقلب على السلطة، وتقاتل إلى جانب أعدائها بسبب انحياز السلطة إلى جانب طرف آخر قد يكون عدواً لحليف الأمس. ففي غمرة المعارك العسكرية بين الخوارزمية ومملكة حلب

سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م، تحولت قبيلة آل فضل بقيادة الأمير علي بن حديثة ضد حلب، وقاتلت مع الخوارزمية لأن حلب قامت بتقريب الأحلاف[١٥٣] من «آل بشار» الذين كانوا أعداءه الألداء، وكان «آل فضل» يخافونهم وبينهم دماء[١٥٤]. وكان لعلي بن حديثة دور كبير في هزيمة جيش حلب بقيادة الملك المعظم تورانشاه، وبالرغم من تقريب حلب للأحلاف فقد نهب هؤلاء أثقال الجيش الحلبي المنهزم، وكانوا أشد ضرراً على الجيش من الخوارزمية وآل فضل[١٥٥]. واضطرت حلب أثناء جمعها العساكر لقتال الخوارزمية إلى مراضاة قبائل ربيعة المتعددة، ففارق علي بن حديثة الخوارزمية، وكذلك اتصلت حلب بطاهر بن غنام، وبادرت الملكة «ضيفة خاتون» نفسها إلى إقطاعه إقطاعاً مرضياً، وزوجته إحدى جواريها، وأمرته على سائر القبائل البدوية[١٥٦]، وهذه الخطوات كانت أهم عوامل انتصار حلب على الخوارزمية[١٥٧].

وختاماً يمكن القول إن القبائل البدوية قد شكلت خطراً على المناطق الحضرية، وخصوصاً في زمن الاضطراب السياسي والعسكري، وأيضاً في زمن الجفاف، إذ كانت المناطق الحضرية هدفاً للبدو طمعاً في الثروات والمنتجات الزراعية. وشكلوا من خلال قدراتهم العسكرية، الهجومية مصدر ترجيح إحدى كفتي الميزان، إذ كانوا ينضمون إلى الطرف الذي يشكل ضماناً أكبر لمصالحهم. ولهذا لجأ الأيوبيون إلى كسبهم بالأعطيات وبمنح رتبة الأمارة لبعض شيوخهم في محاولة لحد نفوذهم وكسبهم إلى جانبهم في الصراعات والخلافات التي دارت بين الأسرة الأيوبية من جهة، وتلك التي جرت مع القوى الخارجية، من جهة أخرى[١٥٨].

ـ الجيش:

يبدو أن جيش حلب في عهد أسرة الظاهر قد اعتمد على الجند الذين كانوا في جيش الصالح إسماعيل بن نور الدين، فقد انضم قسم كبير من أمرائه إلى صلاح الدين، وعندما تم تعيين الظاهر على حلب استمر هؤلاء

في خدمته. وقام الظاهر وورثته بإدخال عنصر المماليك إلى جيشهم، فأصبح لدينا مايسمى بالمماليك «الظاهرية» والمماليك «العزيزية» والمماليك «الناصرية»، وشكل قسم من هؤلاء الحرس الخاص للملك. ويظهر أيضاً أن الجيش النظامي لم يكن كافياً للدفاع عن المملكة، فلجأ حكام حلب إلى الاستعانة بالتركمان، وبالقبائل العربية، بالإضافة إلى الدخول في أحلاف. مع حكام الدول المجاورة لسد النقص في الجيش، وكذلك لجأ حكام حلب إلى الاستنجاد بالملوك الأيوبيين الاخرين، فقد استنجد الأتابك طغرل بالملك العادل عندما هاجم سلاجقة الروم حلب، فاستجاب العادل فوراً، وأرسل ولده الأشرف إلى مساعدة حلب[١٥٩]، واستنجدت حلب بالملك المنصور إبراهيم، صاحب حمص، ضد الخوارزمية[١٦٠].

وكان جيش حلب يتألف من حوالي خمسة آلاف فارس يعيشون بشكل مريح من موارد المملكة، وكان الأمراء يحيون حياة مسرفة ومترفة بسبب الأموال الكثيرة التي يحصلون عليها من إقطاعاتهم، ومن الأعطيات الملكية، ومن الحروب. وكان يمكن زيادة عدد الجيش إلى سبعة آلاف فارس إذا توقف الإسراف وإذا استخدمت الأموال بشكل صحيح[١٦١].

ثم زادت موارد حلب بعد سيطرتها على الجزيرة الفراتية عقب الانتصار على الخوارزمية، وربما أدى ذلك إلى زيادة عدد الجيش، فقد كانت موارد «سروج» تكفي ثلاثمائة فارس بعد استقطاع حصة بيت المال[١٦٢]. وكان بإمكان «الرها» أن تقدم خمسمئة فارس زيادة على حقوق الدولة[١٦٣]. ويرجح أن المملكة لم تستفد من هذه الإمكانات في عهد الناصر الثاني، وربما يفسر هذا الانتكاسات المتكررة التي انتهت بدمار حلب على أيدي المغول.

وكان جيش حلب يضم عساكر من التركمان والعرب، ويتألف الجيش من فئات متعددة بالإضافة إلى الفرسان منها: الرجالة والمنجنيقية والحجارين والجرخية والجاندارية والخراسانية والنقابين[١٦٤]. والرجالة هم

المشاة الذين يساهمون في معارك الحصار في حالة الدفاع أو الهجوم، وكان بينهم الصناع خاصة في حالة الهجوم. والحجارون هم الذين يؤمنون الحجارة للمجانيق والعرادات، وهؤلاء يرتبطون بالمنجنيقية الذين يشغلون آلات قذف الحجارة، وأما النقابين فيقومون بأعمال نقب الأسوار وفتح ثغرات في أسوار حصون الأعداء، وأما الخراسانية فهم الذين يحاربون في الدبابات، ويرد مع هؤلاء ذكر الجاندارية، ويرجح أنهم كانوا يشرفون على أعمال الحصار وبالإضافة إلى سيرهم في مقدمة العسكر[١٦٥]. وتقوم الجرخية بأعمال رمي السهام والنفوط والحجارة بآلة حربية تستعمل لهذا الغرض، أي هم رماة الجرخ[١٦٦]. وورد ذكر جماعة «المغاردة»[١٦٧] ضمن عساكر حلب، ويرجح أنهم نوع من العساكر الأحرار ولم يكونوا من المماليك[١٦٨]. وضم الجيش أيضاً صناع الزرد والسلاح الذين كانوا يدعون «زردخانة»[١٦٩].

- القضاء:

كانت مهمة القاضي الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتنازع، ومنعاً للإضرار بالمجتمع، ثم أصبح للقاضي مهام أخرى بالتدرج مع تطور المجتمع الإسلامي، وتبعاً لانغماس الخلفاء والملوك في السياسة، ثم استقر أخيراً على الجمع بين الخصومات والنظر في الأوقاف والوصايا. ثم وجد إلى جانب القضاء مايسمى بـ «النظر في المظالم» الذي كان يقوم به الملك أو الحاكم بسبب امتلاكه القوة، وخاصة في الأمور التي يعجز القاضي عنها. ويمكن اعتبار النظر في المظالم والحسبة محاكم نافست القاضي في عمله، وأصبح ينظر في أمور محددة عامة. فالنظر في تعدي الولاة على الرعية وظلم عمال الأقاليم أثناء جباية الأموال، وأخذ حق الدواوين وتظلم الناس ورد الولاة الظلمة كان من اختصاص الحاكم الأعلى في الدولة بسبب القوة التي يملكها والسلطة التي يتمتع بها حيث يمكنه استخدام أداة القمع والتنفيذ التي لايملكها القاضي.

وقد كان القضاة في أغلب الأحيان من رجال الدين الفقهاء، والذين كانوا يطبقون بشكل ما الشريعة الإسلامية، و التي ربما تأثرت إلى حد ما بالعادات المحلية غير الواردة في القانون. لقد عرفت حلب القضاء كغيرها من البلدان حيث كان يتولاه قاضي ذو ثقافة دينية ولغوية كان يدعى قاضي حلب أو قاضي القضاء في مملكة حلب. وبالإضافة للقاضي في مركز الدولة كان هناك قضاة في الأقاليم، ويمكن أن يكون القاضي هو خطيب الجامع في الأقاليم.

وكان القاضي يتحمل عدة مسؤوليات أخلاقية ودينية في مجال المراقبة والإدارة، وكان يتمتع بصلاحية القرارات العدلية والتصديق على توقيعات الشهود والعدول بالإضافة إلى صلاحيات النظر في أموال المحجوز عليهم وفي وصايا المسلمين، وفي النظر في القضايا التي يكون أحد المسلمين فيها طرفاً. ولم يكن مفروضاً على القاضي - نظرياً - مراعاة المراتب أو الطبقات، ومع تطور المجتمع كان على الأرجح يراعي في أحكامه الأشراف وكبار رجال الدولة.

وكان الوضع الاجتماعي للقضاة جيداً، فقد كانوا فقهاء المجتمع، وكانوا يتقاضون مرتبات من الدولة[١٧٠]، أو إقطاعات كما حدث مع «ابن شداد»، حيث وفر له الإقطاع الوافر عيشاً رغيداً، وصرف منه على العلماء الآخرين الذين أموا مدرسته.

ويرتبط بالقضاء أشخاص آخرون يدعون «العدول» و«الشهود» و«المفتون»، الذين يساهمون مع القاضي في إدارة القضاء الشرعي. وكان يوجد شهود عدول ومفتون في كل المناطق التابعة لحلب، وكان هؤلاء من الفقهاء المتعمقين في الفقه ولهم باع طويل في كتابة الشروط وتخريجاتها[١٧١].

وكانت السلطة المركزية تتحكم في القسم الأكبر من أرباب الشعائر الدينية، ورجال القضاء المدني والشرعي في كل جزء من تراب المملكة.

وكان هؤلاء هم الموظفون الشرعيون الساهرون على تطبيق الأحكام الشرعية بالإضافة إلى الموظفين السياسيين القائمين على تركيز سيطرة الدولة والحفاظ على وحدتها تحت السلطة المركزية. ويظن أن أرباب الشعائر شغلوا دوراً هاما في تلك المهمة، وأهمهم الخطيب، فقد كان لكل جامع في المدينة خطيب وكذلك في جوامع القلعة وفي المناطق والأقاليم(١٧٢). ومهمة الخطيب خطيرة وهامة، فالخطبة التي تقام كل جمعة هي تظاهرة يجدد فيها الناس بصورة رسمية، وعلى الصعيد الديني ولاءهم للحاكم، ولهذا فهي ميزة استثنائية ذات أهمية بالغة، فهي تشير إلى الحاكم المعترف به من قبل جميع المصلين الحاضرين من خلال عبارات ترد في الخطبة، وتصفه بكل صفات الحكمة والعدالة وحسن الإدارة بالإضافة إلى الألقاب الكثيرة التي تلصق به، والتي تضفي عليه هالة من العظمة والتقديس والنظر إليه بخوف وترقب.

ووجد في حلب إدارة دينية هامة هي «نقابة الأشراف»، التي هي وظيفة هامة في العالم الإسلامي، وتهتم بصون ذوي الأنساب الشريفة وإصلاح بيوتهم وتدبير شؤونها. ومهمة النقابة الإشراف على شؤون المنتمين إلى البيت الشريف «بيت رسول الله»، ثم الولاية على الأيتام، وإقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه، وتزويج الأيامى اللاتي لا أولياء لهن، وأخيراً إيقاع الحجر على من نقص عقله، وكانت تصرفاته غير موزونة(١٧٣). وكان لهم احترام وإجلال كبير بين الناس بسبب شرف نسبهم وكرمه. وكان الحاكم يولي على الطالبيين أو على العباسيين نقيباً من أجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً، وتجتمع فيه شروط الرئاسة والسياسة(١٧٤). ويبدو أنه كان يوجد رئيس للشيعة(١٧٥)، ونقيب للطالبيين(١٧٦)، وآخر للعباسيين، ويمكن أن تدمج الوظيفتان الأخيرتان وتسندان إلى شخص واحد، فقد ولى الملك الناصر الثاني الشريف أحمد الحسيني الإسحاقي، الحلبي (ت٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥م) نقابة العباسيين بالإضافة إلى نقابة العلويين، وقد كان متولياً «الحسبة» في عهد الأتابك طغرل(١٧٧). وأخيراً يمكن القول إن النظام الشرعي، الديني كان مرتبطاً بشكل وثيق بالسياسة التي سعت دوماً إلى إخضاعه، ويبدو أنها نجحت دوماً.

الحواشـــي:

١) عاشور: موسوعة الحضارة الإسلامية، ٣/ ٢٤٩.

٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ ج، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، مطابع كوستاتسوماس وشركاه، (د. ت)، ٣/ ٢٧١-٢٧٢، ٥/ ٤٧. الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٣٢٣.

٣) الباشا، حسن: المرجع نفسه، ٣٤٧.

٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٦. عاشور: المرجع نفسه، ٣/ ٢٧٧.

٥) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧ هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م، ٣/ ٢٣٨. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت٦٦٠ هـ): زبدة الطلب في تاريخ حلب، ٣ج، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٤م، ٣/ ١٧٧. أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢ هـ): المختصر في أخبار البشر، ٢ مج، ج٣، دار المعرفة، بيروت، (د. ت)، ٣/ ١١٧. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ): تاريخ ابن الفرات، مج٥ (حوادث ٦٠٠-٦١٥)، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٠، ٥/ ١/ ١٩٨-٩٩.

٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٩، ابن الفرات: المصدر نفسه، ٥/ ١/ ١٩٩. ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٢ج، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦، ص٦٨٥.

٧) ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ١١٧.

٨) القلقشندي: المصدر نفسه، ٣/ ٢٧٢.

٩) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٩.

١٠) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٢. ابن الفرات: المصدر نفسه، ٥/ ١/ ١٦٧-١٦٨. الغامدي، محمد علي عودة: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ٥٨٩-٦٥٧ هـ/ ١١٩٣-١٢٥٩م، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، السعودية، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٠٦-٣٠٧.

١١) الذيل على الروضتين، دار الجيل، بيروت. د.ت، ٢/ ٦٣. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف. ت٨٧٤ هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ٦/ ٢١٦.

١٢) ابن العديم: الزبدة، تحقيق زكار، ٦٥٩. ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ١٧٥. المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٦م، ١/ ٢١٩-٢٢٠.

١٣) أبو الفداء: المختصر، ٣/ ١٩١.

١٤) المقريزي: المصدر نفسه، ١/ ٣٩٨، ٤٠٧. أبو الفداء: المختصر، ٣/ ١٩١، ١٩٣. الحنبلي، أحمد بن ابراهيم (ت٨٧٦هـ): شفاء القلوب في متقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، العراق، ١٩٨٧م، ص٤١٥.

١٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ١٣٣.

١٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٧. ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٣٧.

١٧) ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ١٢٠. ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٧٧.

١٨) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٥٦, ٦٦١. ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ١٢٩.

١٩) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٧٨. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ١٢١.

٢٠) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٦١. ابن العديم: المصدر نفسه، ٤-١٨٠.

٢١) ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٢٨٨.

٢٢) سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزا أوغلي (ت ٦٥٤ هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الأول والثاني، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٩٥١م، ٨/ ٢/ ٥٧٢.

٢٣) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٦٣. ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ٢٧٢.

٢٤) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٧٠٧ . ابن واصل : المصدر نفسه . ٥/ ٣١٣ .

٢٥) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٣٣ .

٢٦) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٣٤ . ابن الفرات : المصدر نفسه ، ٥/ ١/ ١٣٦ .

٢٧) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٦٤ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٤/ ٢٢٧-٢٨ .

٢٨) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٢٩ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٣/ ١٨٣-٨٥ .

٢٩) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٣٤ ، ٦٦٦ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٣/ ٢٢٠ ، ٤/ ٢٨٣ . ابن الفرات : المصدر نفسه ، ٥/ ١/ ١٣٦ .

٣٠) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٢٥ .

٣١) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٦٤ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٤/ ٢٢٧ .

٣٢) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٧٠٢ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٥-٢٩٥ .

٣٣) ابن واصل : المصدر نفسه ، ٤/ ٨١ .

٣٤) ابن العديم : المصدر نفسه ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ .

٣٥) اليونيني ، أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب البعلبكي الحنبلي (ت٧٢٦ هـ) : ذيل مرآة الزمان ، أربع مجلدات ، مطبعة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط١ ، ١٩٥٤م ، ١/ ٤٦٦ . ابن خطيب الناصرية ، الحلبي ، علاء الدين أبي الحسن علي (ت ٨٤٣ هـ) : الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ، مخطوط ، نسخة مصورة في مكتبة الدكتور سهيل زكار ، ١/ ٦٦٤ . الهيب ، حسن فوزي : الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء ، ٥٧٩-٦٥٨ هـ ، مكتبة المعلا ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٧م ، ص٣٧ .

٣٦) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ١١ج ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨م ، ص١٣٤٥ ، ٣٤٧٣ ، ٤١٠٥ ، ٤٦١١ . ابن واصل : المصدر نفسه ، ٣/ ٨٥-١٨٦ ، ٩٨-١٩٨ ، ٩٩-٢١٤ ، ١٥-٢٢١ ، ٢٢-٢٣٠ ، ٣٢-٢٤٤ ، ٢٤٦-٤٧ . اليونيني : المصدر نفسه ، ١/ ٥٤٦ . الطباخ ، محمد راغب : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ج ، تنقيح محمد كمال ، دار القلم ، حلب ، ط٢ ، ١٩٨٨م ، ص٤/ ٣١٨ .

٣٧) سميل: فن الحرب عند الصليبيين، (١٠٩٧-١١٩٣م)، ترجمة محمد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ص٣٠١.

٣٨) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٩.

٣٩) الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٤٠٥.

٤٠) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٦٦.

٤١) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٨٦-٦٨٨. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥-١٨٣-١٨٥.

٤٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٤٧، ٦٠٨. بغية الطلب، ١٢٥٨، ١٥٤٢، ٣٣٢٥، ٤٣٧٢. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ٨ج، دار صادر، بيروت، ١٠٧٨م، ٢/ ٢٥٧-٢٥٨. أبو الفداء: المختصر، ٣/ ١٠٣. الداوداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع بعنوان: «الدر المطلوب في أخبار بني أيوب»، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ٧/ ١٥٣، الحنبلي: شفاء القلوب، ٢٦٥-٢٦٦، ٣١٤. المقريزي: السلوك، ١/ ١٤٣، ١/ ١٧٩.

٤٣) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٤٣. ابن الفرات: المصدر نفسه، ٤/ ٢/ ٢٢٦.

٤٤) ضامن، محمد: إمارة حلب في عهد السلاجقة، ٤٧٩-٥٢٢ هـ، دار أسامة، دمشق، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٦٨. عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص٤٠٦.

٤٥) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ١/ ٢٤٥. أبو الفداء: المختصر، ٢٠٠-٢٠١. الحنبلي: شفاء القلوب، ٢٦٩. المقريزي: السلوك، ١/ ٤١٩. ابن كثير، عماد الدين اسماعيل. ت٧٧٤ هـ): البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١٣/ ٢٤٧. الطباخ: إعلام النبلاء، ٤/ ٤٢٠.

٤٦) خليل، عماد الدين: نور الدين محمود، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٩٨٠م، ص٧٤.

٤٧) عيد محمد، سوادي: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة الفراتية، خلال القرن ٦ هـ/ ١٢م، بغداد، ط١، ١٩٨٩م، ص٤٢١-٢٢.

٤٨) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٣٨. ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٨.

٤٩) نفسه، ٣/ ٢٣٩. ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني (ت ٤٣٠ هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ص٩/ ٣١٢. أبو الفداء: المصدر نفسه، ٣/ ١١٧.

٥٠) ابن الأثير: المصدر نفسه، ٩/ ٣١٢. أبو الفداء: المصدر نفسه، ٣/ ١١٧. ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٤١. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٧٣.

٥١) ابن العديم، المصدر نفسه، ٦٦٨-٦٩. ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٩، ٣١٠.

٥٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٧٠-٧٢. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٧٢-٧٣. الطباخ: المرجع نفسه، ٢/ ٢٠٢.

٥٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٤٨-٤٩.

٥٤) عيد محمد، سوادي: الأحوال الاجتماعية، ٤٢٤-٢٥.

٥٥) الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية، ٨٥.

٥٦) الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٤٥٣، ٤٥٥.

٥٧) اليونيني: نيل مرآة الزمان، ١/ ٤٢٦.

٥٨) المصدر نفسه، ٣/ ٧١، ٧٥، ١٦٣ (٦٣٢)

٥٩) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٤٠، ٦٤٧ (٣/ ٧٥، ١٧٨، ١٨٥).

٦٠) عاشور: موسوعة الحضارة الإسلامية، ٣/ ٢٧٠.

٦١) ابن العديم: بغية الطلب، ٢٣٠٢.

٦٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٣٢.

٦٣) الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية، ٢١.

٦٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ٣١٢. ياقوت: معجم الأدباء، ١٥/ ١٨٩.

٦٥) ياقوت: المصدر نفسه، ١٥/ ١٨٩.

٦٦) عاشور: موسوعة الحضارة الإسلامية، ٣/ ٢٧٢.

٦٧) عاشور: المرجع نفسه، ٢٧٢.

٦٨) التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ٢٥٢.

٦٩) ابن فضل الله العمري: المصدر نفسه، ٢٤٢.

٧٠) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٩. عاشور: المرجع نفسه، ٢٧٢.

٧١) السبكي. معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ٢٥.

٧٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ٤/ ١٩. عاشور: المرجع نفسه، ٢٧٢.

٧٣) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٨.

٧٤) المصدر نفسه، ٦٤٠، ٦٤٧.

٧٥) ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٦٢.

٧٦) اليونيني: نيل مرآة الزمان، ١/ ٢٤٠. المقريزي: السلوك، ١/ ٤١٣.

٧٧) النويري: نهاية الأرب، ٢٠٠-٢٠٢. ربيع، حسنين محمد: النظم المالية، ٦٢.

٧٨) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ١٤٦.

٧٩) ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٢٠٣.

٨٠) عاشور: موسوعة الحضارة الإسلامية، ٣/ ٢٧٠.

٨١) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٧٦. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت٦٨٤ هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ج١/ ق١/ ٨٨-٨٩.

٨٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥٦.

٨٣) النويري : المصدر نفسه، ٨/ ٢٢٧-٢٨ . القلقشندي : المصدر نفسه، ٤/ ١١-١٢ .

٨٤) ربيع، حسنين محمد : المرجع نفسه، ٦٧-٧١ .

٨٥) ابن شداد : المصدر نفسه، ج٢/ ق١/ ٣٥٨ .

٨٦) سورة التوبة : الآية ٦٠ . وانظر ابن مماتي : المصدر نفسه، ٣١٤-١٥ .

٨٧) المقريزي : السلوك، ١/ ٤٤-٤٥ . ربيع، حسنين محمد : النظم المالية، ٧٩ .

٨٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١/ ٣٦٠، ج٣/ ق١/ ٩٩, ٦٦ .

٨٩) ابن مماتي : قوانين الدواوين، ٣١٩، ربيع، حسنين محمد : المرجع نفسه، ٤٧ .

٩٠) ابن العديم : المصدر نفسه، ٣/ ٥٤, ٣/ ١٦٣ (٦٣٢)، ٣/ ١٦٤ (٦٣٢) .

٩١) القلقشندي : صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥ .

٩٢) المصدر نفسه، ١/ ٤١٣ .

٩٣) ابن مماتي : المصدر نفسه، ٢٩٨ . ربيع، حسنين محمد : المرجع نفسه، ٨١ .

٩٤) المقريزي : المصدر نفسه، ١/ ١٠٥، الهامش (٢)، ربيع، حسنين محمد : المرجع نفسه، ٨٢ .

٩٥) السبكي : معيد النعم، ٢٨ .

٩٦) ذيل مرآة الزمان : ٢/ ٣٩٠ .

٩٧) الطباخ : إعلام النبلاء، ٤/ ٤١٣-٤١٤ . ابن شداد : المصدر نفسه، ج١/ ق١/ ٢٨٤ .

٩٨) المصدر نفسه، ٣/ ٤٥، ٥٤, ١٧٧ .

٩٩) ابن العديم : المصدر نفسه، ٣/ ٤٨ .

١٠٠) القلقشندي : صبح الأعشى، ٤/ ٣١ .

١٠١) ابن العديم : المصدر نفسه، ٣/ ٥٤ .

١٠٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين، ٣٠١ . القلقشندي : المصدر نفسه، ٥/ ٤٦٦ . ربيع، حسنين محمد : النظم المالية، ٨٢ .

١٠٣) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٣٢، (٣/ ١٦٣-٦٤).

١٠٤) اليونيني: نيل مرآة الزمان، ١/ ٤٢٦-٢٨.

١٠٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥.

١٠٦) اليونيني: المصدر نفسه، ١/ ٤٢٨.

١٠٧) ابن العديم: الزبدة، ٣/ ٧١. عماد الدين خليل: نور الدين ٧٣-٧٤. محمد ضامن: إمارة حلب، ٢٧١. أحمد علي اسماعيل: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م، ص٥٠.

١٠٨) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٧١. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٢٣٨. أبو الفداء: المختصر، ٣/ ٢٠٢. ابن الوردي، زين الدين عمر. ت ٧٥٠هـ): تتمة المختصر في أخبار البشر، أو تاريخ ابن الوردي، ٢ج، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ص٢/ ٢٩٤

١٠٩) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٧١.

١١٠) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٨.

١١١) أبو الفداء: المصدر نفسه، ٢/ ٢٠٢. ابن الوردي: المصدر نفسه، ٢/ ٢٩٤.

١١٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٣٩.

١١٣) ابن العديم: المصدر نفسه، تحقيق الدهان، (٣/ ٢١٢).

١١٤) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٥٤، ٧١.

١١٥) ابن شداد: الأعلاق، ج١/ ق١/ ١٨٢، ٢٧٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، عالم التراث، دمشق، ١٩٨٤م، ص٨٨-٨٧. الطباخ: إعلام النبلاء، ٤/ ٢٩٥. ضامن، محمد: إمارة حلب، ٢٧٥.

١١٦) ابن العديم: المصدر نفسه، ٣/ ٧١.

١١٧) ابن نظيف، محمد بن علي: التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد دودو، مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م، س٢٥٠.

١١٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٣، ضامن، محمد: المرجع نفسه، ٢٧٥.
خليل، عماد الدين: نور الدين: نور الدين، ٧٣.

١٢٠) ضامن، محمد: المرجع نفسه، ص٢٧٥.

١٢١) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٣٨، ٦٤٠. ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٢٣٩، ٢٥١.

١٢٢) المصدر نفسه، ٦٤١.

١٢٣) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٦٨، ٦٩.

١٢٤) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ص٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥١-٥٢.

١٢٥) ابن الأخوة: المصدر نفسه، ص٢٣، القلقشندي: المصدر نفسه، ٣/ ٣٧.
محمد زيود: نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٩-٣٠، آذار- حزيران، ١٩٨٨م، ص١٤٩.

١٢٦) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٧٠.

١٢٧) ابن الأخوة: المصدر نفسه، ٢٧.

١٢٨) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٦٨، ٦٧٠

١٢٩) المقريزي: السلوك، ١/ ٤٢١.

١٣٠) اليونيني: نيل مرآة الزمان، ١/ ١٢٣.

١٣١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٠.

١٣٢) السبكي: معيد النعم، ٢٦.

١٣٣) نيل مرآة الزمان، ١/ ١٢٣.

١٣٤) ياقوت: معجم الأدباء، ١٥/ ١٩٥. الطباخ: إعلام النبلاء، ٤/ ٣٩٣.

١٣٥) البغية: ١/ ٢٦٩، ٣٢٢، ٣٧٤.

١٣٦) عاشور: موسوعة الحضارة، ٣/ ٢٤٢.

١٣٧) عاشور: المرجع نفسه، ٢٤٧. أبو دمعة، أمين: الإقطاع العسكري في العهد الأيوبي، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٩-٣٠، آذار - حزيران، ١٩٨٨، ص٢٢٣.

١٣٨) أبو دمعة: المرجع نفسه، ٢٢٣.

١٣٩) ابن شداد: الأعلاق، ج١/ ق٢/ ٢٢، ٢٤، ٦٨، ٨٨-٩١، ٩٦.

١٤٠) ابن شداد: المصدر نفسه، ٢٦.

١٤١) السبكي: معيد النعم، ٣٩.

١٤٢) جب، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب، دمشق، (د.ت)، ص١١٥، ملاحظة رقم (٣١).

١٤٣) ابن شداد: الأعلاق، ج١/ ق٢/ ٦٨.

١٤٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ٨٩.

١٤٥) المصدر نفسه، ٧٠-٧١.

١٤٦) نفسه، ٢٢، ٢٦.

١٤٧) عاشور: الموسوعة الإسلامية، ٣/ ٢٤٧.

١٤٨) زعرور، إبراهيم: الحياة الإجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، ١٩٩٣م، ص٢٣١-٢٣٢.

١٤٩) زعرور، إبراهيم: الحياة الاجتماعية، ٣٢٣.

١٥٠) القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، ص٧٤ و٧٦. زعرور، إبراهيم: المرجع نفسه، ٢٢٢.

١٥١) زعرور، إبراهيم: المرجع نفسه، ٢٢٢.

١٥٢) ابن العديم: الزبدة، ٦٤٥. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٦. ابن الفرات: تاريخه، ٥/ ١/ ٦٤٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٢٦٥.

١٥٣) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٩٥. ابن واصل: المصدر نفسه ٥/ ٢٨٢.

١٥٤) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن، تحقيق دوروثيا كرافولسكي، نشر المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص١٤٥.

١٥٥) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٩٦. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٢٨٣-٨٤.

١٥٦) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٩٩. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٢٨٨.

١٥٧) ابن العديم: المصدر نفسه، ٧٠٠-٧٠٢. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٢٨٩-٩٢.

١٥٨) العمري: المصدر نفسه، ١٣-١٦.

١٦٠) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٩٨. ابن واصل: المصدر نفسه، ٥/ ٢٨٧. أبو الفداء: المختصر، ٣/ ١٦٨.

١٦١) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ٢٨٥.

١٦٢) ابن شداد: الأعلاق، ج٣/ ق١/ ١٠٩.

١٦٣) ابن شداد، المصدر نفسه، ج٣/ ق١/ ٩٩.

١٦٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، مطبعة الموسوعات، مصر، ذي الحجة، ١٣٢١ هـ، ص١٧-١١٠. ابن الفرات: تاريخه، ٤/ ٢/ ٢٤٦، ٥/ ١/ ٢٠٨. أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٢٩.

١٦٥) ابن الفرات: تاريخه، ٥/ ١/ ٢٠٨. جب، هاملتون: التاريخ الإسلامي، ١١٠. العريني: الأيوبيون، ١٦٧. بيطار، أمينة: تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٥١-٥٢.

١٦٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ٥، ٦٥.

١٦٧) ابن الفرات: المصدر نفسه، ٥/ ١/ ٢٠٠. ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٩٣.

١٦٨) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ٩٣، الهامش (٥).

١٦٩) ابن واصل: المصدر نفسه، ٣/ ١٣٥. ابن الفرات: المصدر نفسه، ٤/ ٢/ ٢٤٦.

١٧٠) ابن واصل: المصدر نفسه، ٤/ ٣١٣.

١٧١) ابن العديم: بغية الطلب، ٣٣٦٩-٧٠. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ١٤٣-٢٠٥. الطباخ: إعلام النبلاء، ٤/ ٤٠٢، ٤٠٩، ٤٢٢.

١٧٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ٢٦٩، ٢٣-٣٢٢، ٣٢٦، ١٨٢٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٢٤١، ٤/ ٣١٢-١٣. ابن شداد: الأعلاق، ج١/ ق٢/ ٧١، ١١٦، ١٢٠.

١٧٣) الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٢٧١.

١٧٤) الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٢٧١.

١٧٥) الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٣٢٢.

١٧٦) ابن العديم: المصدر نفسه، ١٣٢٨، ١٣٣٠، ٤٣١٥. الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٤١٠.

١٧٧) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٩٧. الطباخ: المرجع نفسه، ٤/ ٤١١.

* * *

مِـنَ المكـان إلى المكـان الـروائي

خالد حسين حسين *

«نشأ الاهتمام بالمكان الفني نتيجة لظهور بعض الأفكار والتصورات التي تنظر الى العمل على أنه مكان تُحدّد أبعاده تحديداً معيناً. هذا المكان (المكان الفني) من صفاته أنه متناه، غير أنه يحاكي موضوعاً لامتناهياً هو العالم الخارجي، الذي يتجاوز حدود العمل الفني».

يوري لوتمان

* خالد حسين حسين: أديب وباحث من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والنقد الأدبي.

I- المكـــان:

تنطلق هذه القراءة من مبدأ أن المكان- عموماً- ليس عاملاً طارئاً في حياة الكائن الإنساني، وإنما معطى سيميوطيقي. فالمكان لايتوقف حضوره على المستوى الحسي، وإنما يتغلغل عميقاً في الكائن الإنساني، حافراً مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءاً صميماً منها. وذلك لأن المكان هو الفسحة/ الحيِّز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم. من خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الآخر. إنه الشيفرة Code التي نتحصن بها في مواجهة الآخر، ومن هنا، يفترض تفكيكاً وتأويلاً، لكي يتحقق التواصل مع الآخر ويتواصل -هو- في الوقت ذاته معنا، لأننا (الآخر) بالنسبة اليه. ودون معرفة بأسرار المكان وفلسفته التي تتشكل بفعل الكينونة والتاريخ والثقافة يصعب التواصل، بل يقع المرء في كثير من الفجوات والانقطاعات الدلالية والإدراكية، نتيجة الجهل بفلسفة المكان وتنظيمه لدى الآخرين، فمعرفة الأنا تتم من خلال المعرفة بالآخر وثقافته المكانية إذ: «لايمكن أن نعي ثقافتنا إلا وعياً غامضاً، اذا لم نجابه أفراداً ينتمون الى ثقافات أخرى»[1] لأن المكان- فضلاً عن إسهامه ودوره الكبيرين في بِنْيَنَة «رؤية العالم» لدى الأفراد والجماعات البشرية- لايعني أن يكرس اختلافنا وتمايزنا الثقافي على صعيد السلوك الحركي والنطقي.

بيد أن المكان بقدر مايمتاز بالوضوح والإدراك الحسي، بقدر مايتوارى ويتعالى ويركن الى الغموض والمجهول على الصعيد الدلالي، فالعلاقة بالمكان تتسم بكثافة كتيمة: تبدأ بصرخة الميلاد حيث يشهد المكان انبثاق الكينونة الإنسانية، ومن اللحظة تلك تُنسج علاقات وفعاليات الكائن بالمحيط، مكاناً وزماناً، يقول أحدهم: «فالمكان يعني بدء تدوين التاريخ

(١) إدوارد هال: البروكسيميا أو علم المكان، مجلة العرب والفكر العالمي، ت: بسام بركة، ع(٢)، بيروت، ربيع ١٩٨٨، ص٦٨.

الإنساني والمكان يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، للوجود لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، للتراكيب المعقدة والخفية لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة»[٢].

واذا كان المكان بهذه الأهمية في صياغة الكائن، حيث تتجلى هذه الصياغة المكانية في التجربة اليومية على صعيد اللغة والسلوك، فإن الأمر يفترض مقاربته على أكثر من صعيد:

إن المكان كعلامة لغوية هو أحد شظايا الجذر اللغوي (ك. و. ن)[٣] على وزن «مفْعَل» وهو بهذه الصيغة- صيغة اسم المكان- يعني «موضع الشيء» أي المحل الذي يحل فيه ويتموضع، والفضاء الذي يحيط به، ويحدد موقعه بالقياس الى شيء آخر، عبر الأبعاد الأربعة للمكان: الأبعاد الإقليدية الثلاثة والبعد الزمني كإسهام من النظرية النسبية في مقاربة المكان.

لقد خاض المكان رحلة طويلة في متاهة التاريخ/ الزمان، وتعرض لفاعليات الصيرورة وتحولاتها، لكي ينتقل من الفضاء الوحشي الى الفضاء الثقافي- الإنساني، من اللاتمايز والعماء (وفق الرؤية الميثيولوجية) الى التهندس، وبالتالي الى فضاء الجمالي والفني، فكان: بيت الإنسان

(٢) ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٦، ص٣٩٥-٣٩٦.

(٣) إن المعاجم العربية تتأرجح في اشتقاق المكان من الجذرين (كون) و(مكن)، بيد أن الرأي الراجح هو اشتقاقه من (كون)، جاء في اللسان: (مكان في أصل تقدير الفعل مفعل، لأنه موضع لكينونة الشيء، فيه، غير أنه لما كثر أجروه في التصريف مجرى فعال (...) قال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعالاً لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه). ص٤٨٤، ج(١٣) بيروت، دار صادر، د. ط. ت. مادة مكن. وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس: (الكاف والواو النون أصل يدل على إخبار عن حدوث شيء، إما في زمان ماضي أو زمان راهن، يقولون: كان الشيء يكون كوناً، اذا وقع وحضر (...) وقال قوم: المكان اشتقاقه من كان يكون، فلما تُوُهِّمت الميم أصلية فقيل تمكين، كما قالوا من المسكين تمسكن) ص١٤٨، ج(٥)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٩٧٩، مادة: كون.

البدائي. وسواء أكان هذا البيت كهفاً أو مغارة، أو واقية للريح فقد كان (البيت) البدء في تأريخ «جماليات المكان»، وتأريخ الأنسنة والكينونة، غير أن هذه الجماليات البدائية وثيقة الإرتباط بالوقاية والحماية من الرعب، ومن هنا، حاز (البيت) على موقع أثير في فضاء الفكر الإنساني، فله حرمته وقداسته لدى الجميع: «كلمة (بيت) أو (مسكن) مقدسة في جميع اللغات، وصراع الحياة (خارجه) يعني صراعاً أبدياً مع العالم الخارجي»[(١)] فالبيت مهما كان شكله يختزن حزمة من الدلالات الثقافية: الراحة، الاطمئنان، الدفء، الحماية، الوقاية، الحب... يقول ليبس: «أما من يكن في بيته فيشعر بالسكينة والاطمئنان بين أحبائه، يمكن أن يرتاح قرب الموقد الدافيء»[(٢)].

إن انتقال المكان من موقعه الفيزيائي إلى الموقع الثقافي، مرّ من خلال الكائن الإنساني، لأن العلاقة الكائنة بين الإنسان والمكان تتسم بالالتصاق والتلازم بين الحدّين أكثر من الزمان، وذلك لكون المكان يدرك إدراكاً مباشراً، أي أنه قابل للقبض والإمساك به، فالإنسان بوصفه الكائن الأكثر وعياً بالمكان، يمتلك (حاسة مكانية) تتيح له القدرة على انتظام المكان بالإقامة فيه في المرحلة الأولى، ثم تشعيره ودمجه في اللغات الجمالية: أدب، مسرح، فن تشكيلي، سينما.. في مرحلة ثانية. ولهذا يبدو المكان ليس على علاقة وثيقة بالإنسان فحسب، وإنما يشكلان كائناً واحداً: «قل لي أين تحيا أقول لك من أنت؟» فكل منهما يدل على الآخر.

إن علاقة الكائن الانساني بالمكان شبيهة بتلك الصناديق المتداخلة أو (البصلة) على حد تعبير أ. مول، وإمير: «فالفرد يحتل قلب البصلة وتمثل الأماكن المحيطة به طبقات البصلة، وتتسع هذه الطبقات كلما اتسعت

(١) يوليوس ليبس: بدايات الثقافة الإنسانية، ت: كامل اسماعيل، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٨٨، ص١١.

(٢) المرجع نفسه، ص١١.

مجالات أفعاله ونشاطه»[1]. وكأن الفرد يعيش ويحيا ضمن دوائر مكانية: صغيرة، فكبيرة، فأكبر، تبدأ بالجسد ذاته والثياب وتنتهي بالعالم الكوني الشاسع اللامتناهي.

غير أن هذه العلاقة بين الإنسان والمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر مايؤثر المكان ويحفر في الإنسان خصائصه وملامحه، فإنه ينحفر -المكان- بالإنسان وفعالياته المستمرة. فالضغط المكاني يقابل بفعل معاكس، وهكذا يتفاعل الحدان وفق علاقة جدلية مستمرة. وفي ضوء هذه الاستمرارية بين المكان وساكنه، يمكن القول: إن الجسد الإنساني يعد امتداداً للمكان وحسب قوانينه يتشكل ويتكوّن، ومن هنا صعوبة بل استحالة تحديد التخوم التي تفصل الجسد عن محيطه المكاني، فثمة تقاطعات وتشابكات بينهما، وهذا يعني: «أن الجسم ومداه الجغرافي يكونان نظاماً واحداً متجانساً (ضمن سلسلة من الأنظمة الأكثر شمولاً) واعتبار أحدهما دون الرجوع الى الآخر ليس له معنى»[2]. وفي واقع الأمر تشكل المعرفة بهذه العلاقة مفتاحاً من مفاتيح مقاربة المكان والمعرفة به على مستويات متعددة، وبالتالي إن تفكيك هذه العلاقة يسهم في تفسير ممارسات ساكن هذا المكان أو ذاك المتنوعة.

ونظراً لاستراتيجية العلاقة بين المكان والإنسان، فإن أية تغييرات قسرية تلحق بالفضاء المكاني عند الكائنات الإنسانية والحيوانية، من شأنها إحداث تشويش في الشيفرة السرية التي تربط وتجمع بين الحدين. الأمر الذي يترتب عليه انشراخات وتشنجات عنيفة. وبناء على ماسبق فإن عمليات التهجير القسرية (من . . . .) تفترض اقتلاعاً من الفضاء المكاني، حيث الذكريات والتاريخ، أرض الأجداد والأسلاف ومدافن الموتى،

---

(١) عن سيزا قاسم دراز: المكان ودلالاته، ضمن كتاب جماليات المكان: مجموعة من المؤلفين، الدار البيضاء: عيون المقالات، ط٢، ١٩٨٨، ص٦٠.

(٢) إدوارد هال: البروكسيميا، مرجع مذكور، ص٧١.

وبكلمة أدق المكان المخزَّن بفاعلية الكائن الإنساني، وحيث التأقلم بين الجسد والفراغ، قد خلق نوعاً من التوازن والتلاؤم، أما التهجير (إلى. . .) فيفترض فضلاً عن ارتباك «حاسة المكان» عند المهاجر، الرفض الذي يقابل به من قبل أصحاب المكان المهجَّر اليه. فيصبح المكان بؤرة صراع بين القوى، ولهذا يبقى الغريب غريباً عن المكان مع كل الضمانات التي من الممكن أن تُقدَّم له. إن ما تمكن الإشارة اليه في هذا المجال، هو أن انتزاع الكائن من فضائه أو الفصل بينهما يؤدي الى خلل في إيقاع العلاقة المكانية: «لأن كل جسم يعيش في عالمه الذاتي الذي يتعلق بجهازه الإحساسي [الإدراكي]، وإذ ذاك، فإن الفصل العشوائي المفترض بين الجسم وعالمه بغير السياق ويشوه معناه»[1]. ومن الأهمية بمكان الإشارة الى أن «التجربة المكانية» تختلف من جماعة الى أخرى، بل من أسرة الى أخرى، وذلك لأن تنظيم المكان يخضع لعوامل كثيرة، من أهمها الحاسة المكانية التي تقوم بفاعليات التنظيم والتقطيع من ديكور وتوزيع، وطرائق الاقتراب من الجماعات الأخرى، ولذلك تدخل معرفة المكان في نطاق معرفة الآخر، يقول إدوارد هال: «اكتشفت أن الطريقة التي ينظم بها الزمان والمكان تكون شكلاً من التواصل يخضع له المرء كما لو كان جزءاً من الأفراد»[2]. فالتواصل والاندماج مع الآخر، يفترض تفكيك التنظيم المكاني لديه، أي المعرفة بطريقة إدراكه للمكان ووعيه له، مما يتيح عندئذ إدراك مساحات الاختلاف والتغاير بين الأنا والآخر.

وأهمية المكان في واقع الأمر، تنبجس من كونه مفهوماً يقوم على الاختلاف والمباينة، فعلاقة الانسان بالمكان تختلف من فضاء الى آخر: اذ تتجلى في الفضاء المديني بممارسة مطبوعة بطابع المدينة، حيث النداء الخفيّض على مستوى الصوت، وحب الأمكنة المغلقة على عكس تجليات

(١) المرجع السابق، ص٧١.

(٢) المرجع، ص٦٨.

هذه العلاقة في الريف، فالأمداء الواسعة/ المفتوحة تفترض النداء العالي وممارسات سلوكية مميزة في الجلوس والطعام، الأمر الذي يبرر لنا ثقافة المكان وسطوته عند أصحابه.

ومن الجدير بالذكر، أن المكان ذو خاصية تاريخية، أي عرضة للصيرورة والتحول، لأنه في العصر الحديث انتقل من شكله الأحادي الى المستوى التعددي (البوليفوني). إذ إن الانسان المعاصر يعيش أمكنة عدة في الوقت ذاته، فما أن يضغط على زر التلفاز، الانترنيت، المذياع حتى تتدفق الأمكنة الى غرفنا التي تتحوّل إلى مسكن للعالم الأرضي في ظل الثورة المعلوماتية المتقدمة، فبدلاً من السفر إلى باريس بإمكان الانترنيت أن يستدعي باريس إلى أمكنتنا ودون عناء. إن الأجهزة المعاصرة كتجلٍ من تجليات مابعد الحداثة Postmonderinizm والثورة المعلوماتية، قد استباحت الأمكنة واخترقتها، فالعالم- بما ينطوي عليه من أخبار وحروب وكوارث وانتهاكات لحقوق الانسان في هذه الدولة أو تلك وأحداث رياضية- هذا العالم أصبح في غرفنا، ومن هنا فالعولمة أو مابعد الحداثة عموماً قد قربت الأمكنة من بعضها بعضاً وأخرجت الأمكنة المعزولة من وحدتها وهويتها الضيقة، وانبجس المكان التعددي التناصي المركب، : «فنحن اليوم لانعيش أبداً في مكان واحد، فالمكان الذي نقيم فيه معقد، وهذا يعني أننا عندما نكون في مكان ما نفكر دائماً بما يجري في مكان آخر، وتصل إلينا معلومات عن الخارج، فإذا أدرنا مفتاح المذياع، وجدنا أنفسنا أمام مذيع تفصلنا عنه مئات أو آلاف الأميال. أنا في بيت، ولكن بيتي هذا ليس مغلقاً فهو متصل بغيره بواسطة المذياع والهاتف والكتب والأعمال الفنية»(١).

واذا كان ماسبق يخص علاقة الانسان بالمكان بشكل عام، فإن المكان مصطلحاً ومفهوماً وتصوراً، قد خضع لتغييرات حادة وانعطافات حاسمة.

(١) ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ت: فريد أنطونيوس، بيروت- باريس: منشورات عويدات، ط٣، ١٩٨٦، ص٦١.

عبر التاريخ الإنساني، فلم يكن أي منهما: المكان والزمان، كما هما عليه الآن، اذ يحملان من أصداء مسيرة التاريخ الكثير، حيث تطورا مع ارتقاءات الفكر البشري وتحولاته الفلسفية والفيزيائية والرياضية، ففي كل حقبة تاريخية كان ثمة تصور أو صورة للزمان، وبالتالي للكون والعالم، يقول محمد عبد الرحمن مرحباً بهذا الصدد: «إن فكرتي الزمان والمكان اللتين تنزلان عندنا منزلة اليقين والضرورة، يثبت التاريخ أنهما فكرتان تطورتا كثيراً وأنهما من صنع العقل، وليس من بديهة الاستبطان. فقد نضجتا بنضج العقل البشري ونشأتا بنشأته»[1]. واذا كانت القراءة الراهنة ليست معنية بتتبع تفاصيل هذه التحولات في بنية الزمكان، لكونها مشغولة بالمكان كتجربة معاشة فنياً، فيمكن الإشارة اليها على سبيل الاستئناس حتى تتكامل صورة المكان في فضاء الدراسة.

لقد استبدت منظومة نيوتن الفكرية بخصوص الزمان والمكان، بالخطاب العلمي والفلسفي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتقوم هذه المنظومة على وجود «زمكان» مطلق، أي ثمة زمان ينساب وفق وتيرة واحدة نحو الأمام دون أية علاقة بالأشياء وحركتها، أو كما يقول نيوتن في كتابه (المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية – ١٦٨٧): «الزمان المطلق، الحقيقي والرياضي والذي هو بطبيعته قائم الذات لاعلاقة له بأي شيء خارجي، ينساب انسياباً منتظماً، ويسمى الديمومة»[2]. وكذلك الأمر ذاته بخصوص المكان الذي يتسم بالثبات والانفصال عن الأشياء التي يحتويها ويتشكّل بها كما في قوله أيضاً: «والمكان مطلق الذي هو بطبيعته قائم الذات

(١) محمد عبد الرحمن مرحبا: آنشتين والنظرية النسبية، بيروت: دار القلم، ط٧، ١٩٧٤، ص٥٧.

(٢) عن عبد السلام بنعبد العالي: درس الابيستيمولوجيا، الدار البيضاء: دار توبقال، ط٢، ١٩٨٨، ص١٦٤.

لاعلاقة له بأي شيء خارجي يظل متجانساً وثابتاً»[1]. إن هذا التصور النيوتني الذي ساد العلم والفلسفة عصرئذ، يعكس لنا الحس المشترك Commonsense السائد بين الناس في مايخص الزمكان. وإزاء هذا المطلق المتعالي، وقف بعض الفلاسفة موقف المتشكك من منظومة اسحق نيوتن، كما هو الحال مع جوتفريد ليبنز Gyothfried Leibniz الذي عارض نيوتن وصرَّح بنسبية الزمكان بقوله: «اللحظات، اذا نظرنا اليها بمعزل عن الموجودات، ليست شيئاً على الاطلاق . . . اذ لاوجود لها إلا في النظام المتتابع للأشياء»[2]. وبالتجاور مع هذه الرؤية النسبية وجدت تصورات أخرى، شكّلت إرهاصات أولية تنبأت بالانعطاف الخطير والفجوة العميقة التي أحدثتها (النظرية النسبية) في بنية العلم، وقلبت المنظومة المفاهيمية السائدة بخصوص الكون رأساً على عقب. فمع النظرية النسبية التي وضعها ألبرت أنشتاين في بدايات القرن العشرين، بدأ الحديث عن حضور الزمكان النسبي وتلاشي الزمكان المطلق، فلا الزمان ولا المكان حسب النظرية النسبية Relativistic يمكن أن يوجدا مستقلين عن بعضهما وعن الأشياء والأحداث والظواهر، وبعبارة أدق عن الحركة والمادة، وهكذا تذهب النظرية النسبية: «إلى أن المكان والزمان ليسا جوهرين مستقلين، وإنما هما من الصفات والعلاقات الشاملة والأساسية من المنظومات المادية، وإن العلاقات المكانية والزمانية مشتقة من التفاعلات المادية بين الظواهر والأحداث الفيزيائية، وإن المكان والزمان، لاينفصلان أحدهما عن الآخر، بل يشكلان جانبين من كل واحد من المكان والزمان»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦٥.

(٢) عن إيين نيكلسون: الزمان المتحول ضمن كتاب: فكرة الزمان عبر التاريخ: مجموعة مؤلفين، ت: فؤاد كامل، (سلسلة عالم المعرفة «١٥٩»)الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢، ص١٧٢-١٧٣.

(٣) المعجم الفلسفي المختصر: مجموعة من المؤلفين، ت: توفيق سلوم، موسكو: دار التقدم، ط١، ١٩٨٦، ص٤٧٥.

وقد مثلت النظرية النسبية حركة تفكيكية، تحطمت إثرها الأطر المعرفية التي كانت قد تشكلت وفق منظومة نيوتن الفلسفية. حيث تغيرت المقاربات الفيزيائية بعد اعلان أنشتاين النظرية النسبية الخاصة (١٩٠٥) والعامة (١٩١٥) وبدأت أطر معرفية جديدة تنمو وتؤسّس في الخطاب الفلسفي والعلمي، كما انبثقت عن هذه النظرية حزمة من المفهومات التي تصدم الحس المشترك Commonsense: المكان المتمدد، انحناء المكان، الزمان المتمدد، المكان الرباعي الأبعاد.... وذلك بعد أن عدّ الزمان بعداً من أبعاد المكان، وباختصار: «جاءت ثورة النسبية فزلزلت بشدة المفاهيم الراسخة في أعماق وعينا ومداركنا بشأن المكان والزمان»(١). وبذلك يمكن القول إنّ تصوراتنا عن الزمكان وبالتالي الصورة التي نكونها عن العالم تتساوق مع صيرورات الرؤية العلمية وتحولاتها المستمرة.

بيد أن تسيّد الرؤية العلمية على المكان، لم تعن البتة أن التصورات الميثيولوجية واللاهوتية قد انكفأت عن الاشتغال في ذهنية الكائن الإنساني؛ فهي مازالت تحدد وتُبين الرؤية و/ أو النسق التصوري Conceptual system لدى الكثير من المجتمعات، وبناء على ذلك فإن كثيراً من المفهومات السائدة عن المكان أسيرة «الميتافيزيقيا» ومشبعة بالثقافات المحلية، فضلاً عن حمولتها السيميائية والدلالية عبر مرورها بالمنظومة الثقافية العامة، وهي في الواقع تعكس تصورات قبل علمية للكون من مثيل: المكان المقدس، الأسطوري، الدنيوي،.... وسبب ذلك أن المكان تجربة معاشة جسدياً وفكرياً، ويلج نسيج «الرأسمال الرمزي» لدى الكائن الإنساني، ويشكل - من ثم - مكوّناً من مكوّنات التفكير والتواصل وإنتاج الدلالة. فليس من السهولة بمكان، أن يحيا الناس بعيداً عن المعنى والدلالة، ومن هنا فإن الأديان والأساطير والفنون ماهي إلا آليات منمذجة، يلجأ اليها الناس

(١) ب. س. ديفيز: المفهوم الحديث للمكان والزمان، ت: السيد عطا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٦، ص٥٩.

لإضفاء المعنى على هذا العالم الغريب والمرعب واللانهائي، بقصد نقله من تلك الحالة المجهولة والغريبة الى فضاء المألوف والتأنسن.

ولكن الوعي بالمكان لم يتحقق لدى الكائن الانساني الذي لم يتمكن من أنسنة المكان - بالرغم من مهارة اليد وقدرتها الابتكارية - إلا بعد تشكل اللغة. وبظهور اللغة الطبيعية، تغيرت العلاقة مع العالم والواقع والحياة، وبالتالي مع (المكان)، إذ إن اللغة لم تعمل على انعكاس وتمثيل العلاقة مع المكان فحسب، وإنما عملت على تثوير هذه العلاقة، بتوسيع أبعادها وتعميقها، وانتقلت بموجب ذلك الفاعلية الذهنية من المحسوس الى التجريد، وأصبح بمقدور الكائن باللغة وفي اللغة أن يتحدث عن و/ أو ينسج فضاءات غائبة ميتافيزيقية متعالية عن الحس: الجنة، الجحيم، أمكنة متخيلة أخرى... استناداً الى أمكنة راهنة تحاذيه وتحيط به.

إن اللغة تعد أداة استراتيجية وأساسية في التسمية والتقطيع وإنطاق العالم/ المكان ليلج فضاء المألوف، ولهذا: «وزّع المكان الى أمكنة، وهذه الأمكنة منحت ألقاباً وتسميات عادية ومقدسة، حتى يستطيع الانسان منذ القدم، المواءمة، والملاءمة والعيش فيها»[1]. إن المعرفة بالمكان في منظومة ثقافية ماتتم من خلال المعرفة باللغة التي تتأسس بها تلك الثقافة، لأن اللغة تعد «نظام النمذجة الأولى»[2] حسب السيميائي الروسي J.Lotman ولاشك أن ثمة أنظمة منمذجة أخرى: الأديان، الأساطير، الفنون... تسهم في المعرفة بالمكان، لكنها كلها تمر من قناة اللغة. وفي واقع الأمر، إن السيطرة على المكان تتحقق من خلال اللغة ابتداءً بالتسمية وانتهاءً بشحنه بالقيمة الدلالية والرمزية. وعليه، فاللغة تتيح «سمطقة» المكان وجعله علامة

(١) ابراهيم محمود: هرطقة الصمت، مجلة الموقف الأدبي، ع(٢٩٩-٣٠٠) دمشق، آذار-نيسان، ١٩٩٦. ص١٦.

(٢) يوري لوتمان: مشكلة المكان الفني، ت: سيزا قاسم دراز، ضمن كتاب جماليات المكان: مجموعة مؤلفين، الدار البيضاء: عيون المقالات، ط٢، ١٩٨٨، ص٦٠.

لغوية/ إشارية، لأن اللغة نظام اشاري ودلالي وحامل لمنظومة قيمية، وبناء على ذلك يمكن إدراك تلك العلاقة الوطيدة بين المكان واللغة، اذ إن: «المكان الذي يعيش فيه البشر، مكان ثقافي، أي أن الإنسان يحوّل معطيات الواقع المحسوس وينظمها، لا من خلال توظيفها المادي لسد حاجاته المعيشية فقط، بل من خلال إعطائها دلالة وقيمة. وتكتسب عناصر العالم المحسوس دلالتها من خلال ادخالها في نظام اللغة، فاللغة مخزون- كنز- مجرد من العلامات ينوب عن عالم الواقع ويحل محله»[(١)]. فإذا كان المكان يلفنا ويحتوينا، فاللغة في الواقع هي سكنى هذا المكان أو كما يقول هايدغر «إن اللغة هي مأوى الوجود ومسكنه»[(٢)]، وبذلك، فاللغة تتولى تقطيع العالم الى أنساق وفئات وفصائل اذ لكل لغة طرائق مختلفة في مفهمة العالم وتحديده، ومن هنا تأتي بداهة اختلاف الأنساق التصورية من ثقافة الى أخرى، وبالتالي فإن تمثيل المكان في البنية الذهنية يتبع مهارة اللغة وغناها. ومن هنا أيضاً، يتحدثون عن فاشية اللغة وهيمنة النسق اللغوي على الإنسان للإشارة الى الدور الخطير الذي تؤديه اللغة في حياتنا. وفي هذا النطاق تدور أبحاث العالم الأمريكي بنيامين وورف الذي يرى وفق ما لخص كندارتوف أفكاره: «أن الناس لايعيشون فقط في نطاق الأشياء الذي يحيط بهم وفي نطاق عالم الحياة الاجتماعية بل يعيشون في نطاق عالم اللغة الأم. إننا نبني العالم الذي يحيط بنا وفق «عالم اللغة» وكل لغة، على حد تعبيره هو [بنيامين وورف]، تتضمن بالاضافة الى مفرداتها وجهات نظر وأحكام مسبقة ضد وجهات نظر أخرى»[(٣)]، ومعنى ذلك، أن (صورة المكان) في ثقافة ما على صلة وثيقة بإمكانيات اللغة الأم، لأنها المنظار الذي نرى من

(١) سيزا قاسم: المكان ودلالاته، مرجع مذكور، ص٦٤.

(٢) عن عبد السلام بنعبد العالي: أسس الفكر المعاصر (مجاوزة الميتافيزيقا) الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٩١، ص٤١.

(٣) أ. كندراتوف: الأصوات والإشارات، ت: شوقي جلال، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٧٢، ص٦٦.

خلاله العالم ونسميه وندركه: «يتعلم المرء لغته منذ طفولته المبكرة؛ فيبدأ في مرحلة مبكرة جداً من حياته في إدراك العالم من خلال اطار لغة الأم. ومهما كان العالم الذي حوله غنياً ومتنوعاً فإنه لن يرى ويدرك إلا تلك الظواهر التي لها مسميات في اللغة. إن لغة الأم تحلل لنا العالم وفق طريقتها الخاصة وتفرض علينا جميعاً هذا الطراز من التحليل وإدراك العالم»[١]. وبناء على ذلك، يمكن تعليل اختلافات (صورة المكان) من حيث القيمة والدلالة والبنية من منظومة ثقافية الى أخرى، فلكل لغة، كما ذكر، طرائق محددة في تعيين المكان ومفصلته عن بنية العالم.

وفي ضوء العلاقة بين المكان واللغة، يمكننا الحديث عن كيفيات تمثيل اللغة للمكان على صعيد النسق التصوري، أي مجموع التصورات التي تتشابك وتتقاطع فيما بينها وتحددُ الرؤية تجاه العالم، فتصوراتنا: «تبنين ماتدركه وتبنين الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، كما تبنين كيفية ارتباطنا بالناس. وبهذا يلعب نسقنا التصوري دوراً مركزياً في تحديد حقائقنا اليومية»[٢]. وطالما أن النسق التصوري هو تشابك لعناصر متنوعة ومختلفة، فإنه يتميز بالمخاتلة والمراوغة، ويمارس عمليات الحذف والاستبعاد تجاه الآخر، وكثيراً مايشتغل النسق التصوري بطريقة لاواعية في الممارسة اليومية، ولهذا: «فإن اللغة تعد مصدراً مهماً للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق»[٣] على الصعيد المكاني.

إن البنية المكانية على المستوى الفيزيائي المحسوس، وبما هي محددة، وممثلة بأبعاد ومساحات وأحجام.. نظمت في اللغة على شكل ثنائيات متقابلة و/ أو اتجاهات فضائية على نحو: [أعلى- أسفل، فوق- تحت،

(١) المرجع السابق، ص٦٦.

(٢) جورج لايكوف (بالاشتراك): الاستعارات التي نحيا بها، ت: عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء: دار توبقال، ط١، ١٩٩٦، ص٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص٢١.

قريب- بعيد، أمام- خلف، مركزي- هامشي . . .] وتعمل هذه الاتجاهات المكانية/ الفضائية على تمثيل حركة الكائن الإنساني وفاعلياته الفيزيائية (الجسدية) والذهنية بما يشمل الاشتغال السيميائي في وعلى المحيط الذي يغلفه ويساهم في تشكله، تبعاً للخصائص الجغرافية. ويلجأ الكائن الإنساني، نظراً لهيمنات المكان وايراداته وتوغلاته في اللاشعور، الى آليات التفضية (من الفضاء) Spatialization المذكورة آنفاً واسقاطها على ممارساته اليومية، مع الإشارة الى أن هذه الآليات مشحونة دلالياً ورمزياً نتيجة دمجها في المنظومة الثقافية العامة عن طريق اللغة، فأضحت بما تتوفر عليه من كثافة دلالية جزءاً من «الرأسمال الرمزي» الذي يحدد الرؤية العامة للكائن تجاه الواقع والعالم، وعلى سبيل المثال: فكل ماينطوي تحت حقل (السمو) يتموقع في العلوّ، وكل ماينطوي تحت حقل (الوضاعة) يتمركز في الأسفل. ومن هنا نجد أن الثنائية: أعلى- أسفل تميز البنية الذهنية في الثقافة العربية/ الاسلامية، ومن الممكن تفريع سلسلة طويلة من الثنائيات من ثنائية رئيسة. ومما له أهميته أن هذه الثنائيات ذات الخصائص المكانية تضفي بعداً بصرياً على الأفكار المجردة وتجعلها مفهومة، مثل: يمين- يسار، وتعد وسيلة أساسية من وسائل التواصل بين أفراد المجتمع، اذ: «إن التصورات الفيزيائية، مثل فوق- تحت، وداخل- خارج. . . الخ، تعد أساسية في النسق التصوري للفرد وبدونها لانتمكن من الاشتغال كأن نفكر أو نتواصل»[1]، وبذلك فإن المكان إذ يشترك في بنْيَة النسق التصوري في ثقافة ماعبر الثنائيات المكانية التي تُبَنْيِّر الخطاب Discours، فإنه مؤهل للكشف عن جانب من جوانب الرؤية العامة لدى جماعة ما، أو كاتب من الكتّاب.

وأخيراً، وكما أن المكان أو تصوره أو تمثيله في اللغة أو في المنظومات الثقافية، يختلف ويتمايز، فإنه يتسم بالتنوع والتعدد، لأنه: «نص مفتوح له

(١) المرجع السابق، ص٨١.

مقاربة مع وعي الإنسان على تعدد مستوياته»[1]. لهذا يمكن الحديث عن المكان الفيزيائي، الرياضي، الأسطوري، الفني/ الجمالي.... لأن المكان ببساطة مقولة قائمة على الاختلاف والتشظي.

II – المكان الروائي:

كان قد تمّ تعرّف مفهومات عامة عن المكان الانتربولوجي – الثقافي، من حيث موقعه وتفسيراته على المستوى المعجمي، ورحلته في الفكر البشري، ومن حيث استراتيجيته بالنسبة للكائن الإنساني، فضلاً عن علاقته الوثيقة باللغة والنسق التصوري. أما الآن، فالقراءة ستحاول التأسيس النظري للمكان الروائي. عبر تفريعاته وعلائقه المتنوعة، ولكن قبل محاولة مقاربته، ارتأت القراءة رصد مرحلة الانتقال من المكان الى المكان الفني.

لقد افترض الانتقال و/ أو التحرك من (المكان) بوصفه تجربة معاشة أنطولوجيا الى المكان الفني استعمالاً خاصاً في اللغات التي يتحقق بها تأسيس النوع الفني: مسرح، فن تشكيلي، موسيقا، رواية... أي انزياحاً وانحرافاً للغة المستعملة عن دلالاتها المألوفة. فالمكان في النص الفني ذو طبيعة خاصة، ينطوي تحت إطار فاعلية الخيال، فالنّاص (شاعر، رسام، روائي، موسيقي...) ينقل المادة المكانية الخام الى آفاق جديدة من الانحراف والرؤية، اذ إن الأشكال الفنية في علاقتها مع العالم/ المرجع تنزع الى «تقويس» علاقتنا الطبيعية مع العالم، وإحداث فجوات وانقطاعات في وتيرتها واضطرادها اليومي الاعتيادي. وفي واقع الأمر، فإن الانتقال من المكان المعاش الى المكان الفني، هو تحوّل من عالم الحياة اليومية بحسيته وأشيائه وظواهره المتنوعة والمختلفة الى عوالم فعالة من التخييل عبر لغات مختلفة: علامات لغوية، ألوان، أصوات، صور... من عالم نحيا ونعيش فيه بهدوء ودعة، حيث الخبرة المباشرة (الحدسية) بالأشياء الى الوعي

---

(١) باسم عبد الحميد حمودي: المكان كنص مفتوح، مجلة البحرين، ع(١٣)، المنامة، يوليو ١٩٩٧، ص١٣.

الجمالي بهذه الأشياء ودورها ودلالاتها ووظائفها، وبكلمة أكثر دقة: نكون إزاء صورة أخرى للعالم / المكان المعاش، وبذلك فما يميز المكان الفني: «الانزياح والتحول والنفي عن أمكنة الواقع حيث يصبح للمكان خلقة أخرى في النص»(١).

ولكن هذا لايعني انقطاع وانعدام الصلة مع المكان المعاش، فثمة تقاطعات يشترك بها المكان الفني مع المكان الفيزيائي، وإلا فمن الصعوبة بمكان أن يتحكَّم القارىء بتأويله Interpretation أو تفسيره، فهذه الوظيفة المرجعية أو الإيهامية للمكان الفني في معظم الأشكال الفنية وأنماطها هو الذي يتيح للقارىء أن يتواصل مع هذا العمل الفني أو ذاك ولو في الحدود القصوى من التواصل، فالمكان الفني كما يقول يوري لوتمان: «من صفاته أنه متناهٍ، غير أنه يحاكي موضوعاً لامتناهياً هو العالم الخارجي، الذي يتجاوز حدود العمل الفني»(٢). إن المكان في النصوص الفنية، ورغم استقلاليته وخضوعه لقواعد وقوانين النوع الفني الذي يتجسد فيه، يتبادل العلاقات مع المكان المعاش، بوصفه تجربة وجودية Existent experience، يتغلغل في كيان الذات والثقافة، وعليه يشتغل النص الفني في قلب الوجود وليس على حوافه أو خارجه، وهذا ما ألمح اليه الناقد الروسي ميخائيل باختين M.Bakhtin: «إن العمل والعالم المُصوَّر فيه يدخلان العالم الفعلي ويغنيانه، والعالم الفعلي يدخل العمل والعالم المصوَّر فيه أثناء عملية الخلق كما في سيرورة حياته، اللاحقة في التجدد الدائم للعمل وفي الإدراك الخلاّق من قبل السامع القارىء [المشاهد] لهذا العمل. إن عملية التبادل هذه زمكانية بالطبع؛ فهي تتم قبل كل شيء في عالم اجتماعي متطور تاريخياً

(١) عز الدين المناصرة: شهادة في شعرية الأمكنة: (مقدمات وخلفيات)، ج(٣)، مجلة الحرية، ع(٣٧٢)، قبرص، آب، ١٩٩٠، ص٥٤.

(٢) يوري لوتمان: مشكلة المكان الفني، مرجع مذكور، ص٦٨.

ولكن دون انفصال أيضاً عن المكان التاريخي المتغير»(١). وعلى هذا الأساس ، فإن قراءة البنية المكانية وتفسيرها وتأويلها، تتغير من مرحلة زمنية الى أخرى، لتوفر المكان على سمات الاختلاف والتغاير، لكونه يكتسب تأويلات جديدة مع تغيرات وتحولات الوعي الإنساني المستمرة.

ومن الأهمية بمكان الإشارة الى أن العلامات الجغرافية والطبوغرافية في النص الفني، ليست بذات أهمية كبيرة، لأن وظيفتها تنحصر في تحديد المكان فحسب، وإنما الأمر المهم بخصوص المكان هو تعريضه لآليات الانزياح والانكسار Refraction وتلك استراتيجية الناص في تفتيت المكان الواقعي/ الثقافي، وامتصاصه وإنتاجه بصورة متغايرة، حتى تتحقق الوظيفة الشعرية/ الجمالية Poetic function التي بها يتمظهر المكان في الخطاب النصي بنكهة خاصة ومتميزة كنتاج مركب لتشابك الأبعاد البنيوية، الدلالية، الرمزية، والإيديولوجية، فضلاً عن البعد الجغرافي الذي يعمل على تنظيم خيال القارىء «وترتيب معطيات تصوره»(٢). وبهذا الشكل يمكن الآن الانتقال الى المكان الروائي:

يعد المكان الروائي مستوى من مستويات المكان الفني، يتشكل باللغة وفي فضاء اللغة، فلاكينونة للمكان الروائي بعيداً عن علامات اللغة، إذ إن المكان كائن صامت يلج اللغة بفراغه وأشيائه ليتحدث من خلالها. فالكائن الإنساني يكمن للمكان بشباك اللغة، وهو بذلك يمنحه لساناً ولغة، وعليه تعد اللغة الوسط الذي يستيقظ فيه المكان من غفوته الأبدية، ليتحدد ويتمفصل ويحتاز على كينونته ووجوده الفني

إن اللغة هي مأوى المكان في النص الروائي على عكس الأمكنة في

---

(١) ميخائيل باختين: أشكال الزمان والمكان في الرواية، ت: يوسف حلاق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٠، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٢) صلاح فضل: شفرات النص، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢، ١٩٩٥، ص١٩٤.

الأجناس الفنية الأخرى: مسرح، موسيقا، فن تشكيلي، سينما. . . وبذلك يتمتع المكان بأهمية استراتيجية وسيميائية في تشكيل الخطاب السردي Narrative discours عبر تحايثُه (تداخله) مع المكونات السردية الأخرى، وبذلك يغدو المكان: «هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها البعض»[(١)]. ومن هنا يمتاز المكان ببعد حيوي في النص الروائي، وقد تجاوز الدور التقليدي الذي أُلصق به سابقاً بوصفه ديكوراً أو حيّزاً للقوى الفاعلة (الشخصيات)، الى احتيازه على أدوار وأبعاد استراتيجية في بنية الرواية الجديدة، حتى أصبح الهدف والمقصد الذي من أجله ينوجد النص بذاته على حد قول الناقد الفرنسي رولان بورنوف Roland Bour-neuf: «المكان الروائي ليس عنصراً زائداً في الرواية، فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معاني عديدة بل أنه قد يكون في بعض الأحيان، هو الهدف من وجود العمل كله»[(٢)].

ورغم هذه الأهمية المتبدية للمكان في الرواية، فإن الدراسات المكانية كانت غائبة عن فضاء الخطاب النقدي. بيد أن ورشات القراءة بدأت حفرياتها لمقاربة المكوّن المكاني في النص الروائي بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) وبرزت أسماء نقاد وباحثين في أوربا* رسموا المسارات الرئيسية لمقاربة المكان في النص الروائي، في حين تأخرت المقاربة العربية حتى بداية الثمانينات، وتوسعت في التسعينات، وما زالت هذه المقاربات سواء لدى الآخر الأوربي أو في العالم العربي تكشف المزيد من الأبعاد والأدوار والوظائف التي يؤدِّيها المكان في النص السردي، ولكن الطريق إلى

(١) - غالب هلسا: المكان في الرواية العربية، دمشق: دار ابن هانيء، ط١، ١٩٨٩، ص٩.

(٢) - عن حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي: بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠، ص٣٣.

* - بخصوص تاريخ الدراسات المكانية والباحثين الذين اشتغلوا على المكان يمكن مراجعة مقالة: الفضاء، المصطلح والإشكاليات الجمالية: شريبط أحمد شريبط، مجلة المدى، ع(٦)، دمشق ١٩٩٤.

المكان الروائي لم يكن سهلاً، ولن يكون كذلك، لوجود اختلافات في ضبط المصطلح والمفهوم، فضلاً عن أن حفريات المكان لا تنفك عن اكتشاف أسرار كثيرة تلف المكان، سواء في الحقول الانتروبولوجية أو الاجتماعية أو الأدبية/ النقدية.

وتدخل المقاربات ضمن نطاق المحاولات الحثيثة لضبط المكان على مستوى المفهوم والمصطلح أسوة بالزمن والشخصيات ووجهة النظر Point of view، الأمر الذي يدفع إلى القول بعدم تبلور نظرية عامة للمكان الروائي، حيث: «لا توجد أية نظرية للمكان، ولكن يوجد مسار للبحث ذو منحى جانبي غير واضح»[1]. لكون الدراسات المكانية لم تبلغ بعد في حفرياتها واقتراباتها الى تشكيل مفهومات متكاملة يمكن أن تستغرق معظم الأعمال الروائية، ولأن انتظام المكان في النص الروائي يخضع الى عمليات الإزاحة والانحراف وتكسير الأطر والنماذج المعروفة. كما يتبع هذا الانتظام لشهوة التغريب التي تميز النص الفني عموماً. ولهذا فإن المكان في النصوص الروائية سرعان مايفاجىء المتلقي في كل قراءة ببنيته المفتوحة على أفق شاسع من التحول والتغيير، وربما خاصية الانفتاح هذه هي التي جعلت من المكان: «مجالاً مفتوحاً للاجتهاد وللتصورات المتعددة التي لم تصل الى حد بلورة نظرية عامة للفضاء»[2].

لكن هذا لايعني تثبيط العزيمة على إنجاز مقاربة- هي في الأصل تدخل في باب المغامرة والاجتهاد- حول المكان الروائي للخروج بصيغة نظرية تمنح القراءة القدرة على سبر المكان في الخطاب الروائي.

١- المصطلح: المكان أم الفضاء؟

قبل الولوج الى تفاصيل المكان الروائي Space of the novel على مستوى البنية والعلاقات النصية، يفترض بالقراءة أن تميز بين (المكان

(١) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مرجع مذكور، ص٢٥.

(٢) سعيد يقطين: قال الراوي، بيروت- الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٧، ص٢٣٨.

والفضاء) جرياً وراء الدقة المفهومية، وذلك استناداً الى الدراسات المكانية المعاصرة في الخطاب النقدي. فثمَّ من النقاد من يتداول مصطلح (المكان) والبعض الآخر يستعمل مصطلح (الفضاء) وعلى الخصوص في المغرب العربي*. وفي الحقيقة، إن التمييز بين المكان والفضاء ينطلق من قانون رياضي عام: الفضاء›المكان: (الفضاء أكبر من المكان)، فالفضاء ينطوي على المكان ويتشكل ويمتلىء به. إن اللغة الإنكليزية تفصل مستويين من المكان: «place»[(١)] وهو الموضع الذي يقع فيه الحدث، وهو يقابل في العربية ملفوظ (مكان) من غير الـ التعريف على وزن (مفْعَل) وهو يدل هنا: «على (الحيز) أو (الوعاء) الذي يقع فيه الفعل»[(٢)]. والمستوى الثاني (Space)[(٣)] وهو الفراغ (الفضاء الخارجي) المحيط بالمادة والمكان وهو يقابل في العربية ملفوظ (المكان) الذي استعمله الفلاسفة المسلمون: «للدلالة على الحيز مجرداً عن الشيء الذي يحتله ويجسده وكمفهوم قائم بذاته مستقل عن محتواه. وقد أرادوا من اسم المعرفة هذا أن يصبح في اللغة العربية مقابلاً لكلمة (Spatium) اللاتينية التي تعني في الأصل الامتداد اللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية المحدودة والتي اشتق منها الفرنسيون كلمة Espace والانكليز كلمة Space»[(٤)]. وبناء على ذلك فالمكان بـ الـ التعريف من حيث دلالته الفلسفية يحوز على المشروعية في التداول النقدي، ولكن ثمة عائقان يمنعان تداوله واستخدامه في الخطاب النقدي المعاصر، فمن جهة، شيوع مفهوم (الفضاء) في الكتابة النقدية، ومن جهة أخرى فالمكان

(*) لقد شاع استعمال مصطلح المكان في المشرق العربي، والفضاء في المغرب العربي، كما أن ثمة مفاهيم أخرى مثل الحيز، المجال، تستعمل في الدراسات النقدية هنا وهناك.

(١) منير البعلبكي: المورد، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٩، ١٩٨٥، ص٦٩٤.

(٢) ب.ك.و. ديفيس: المكان والزمان في العالم الكوني الحديث، ت: أدهم السمان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٨، ص٧ (من مقدمة المترجم)، وقد سبق للقراءة أن استشهدت بهذا المرجع بترجمة السيد عطا فيما مضى من الصفحات.

(٣) المورد ص٨٨٢.

(٤) المكان والزمان في العالم الكوني الحديث، ص٧.

يومىء بالبعد الجغرافي / الحسي أو الحيز المحدود، كما يذهب الى ذلك الناقد سعيد يقطين بقوله: «ولهذا الاعتبار نحّينا في استعمالنا ونحن نرصد هذه المقولة مفهوم (المكان)، لأنه يظل يوحي الى البعد الجغرافي أو الحيز المحدود، والذي يشكل ديكوراً أو إطاراً للأفعال والأحداث»[١]، ومقابل ذلك، يستغرق (الفضاء)- كمفهوم- الأشياء المادية، ويحتويها، وهو بذلك مؤهل على الصعيد الإجرائي لأن يعدّ مسطحاً مفهوماتياً يتسع لشتى أشكال المكان وأنماطه، انطلاقاً من كونه أعم من المكان: «لأنه يشير الى ماهو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي وإن كان أساسياً. إنه يسمح بالبحث في فضاءات تتعدى المحدود والمجسد، لمعانقة التخييلي والذهني، ومختلف الصور التي تتسع مقولة الفضاء»[٢]. إن هذا الفرق الأولي بين المكان والفضاء، يتجه بالقراءة الى تعميق التمييز بينهما، ومن ثم الانحياز الى استخدام مصطلح الفضاء، والمضي قدماً في توسيع مفهومه وتدقيقه أكثر على الصعيد النقدي والإجرائي.

وفي واقع الأمر، فإن النص الروائي يتوفر في بنيته النصية Tex-tual structure على مجموعة من الأمكنة المتوزعة وفق هندسة منتظمة أو عشوائية، وليس على مكان واحد. ومن جهة أولى: هناك أمكنة جغرافية تشكل مسرحاً للعبة القوى الفاعلة (الشخصيات) وأمكنة متخيلة، علاوة على إشارات لغوية تشير الى أمكنة مختلفة تتموقع في الخطاب الروائي. ومن جهة أخرى نجد أن المكان الواحد في الوقت ذاته، يتمظهر في صور ورؤى مختلفة حسب الموقع المكاني الذي يتخذه الرائي وحسب رؤيته الإيديولوجية والجمالية التي يرصد منها وعبرها العالم. وانطلاقاً من هذه الفروق يميز الناقد حميد لحمداني بين المكان بوصفه عنصراً من عناصر الفضاء، والفضاء بوصفه الغلاف الذي يشتمل على معظم الأمكنة على

(١) سعيد يقطين: قال الراوي، مرجع مذكور، ص٢٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٠.

الشريط اللغوي للرواية، يقول: «فمجموع هذه الأمكنة [التي تجري فيها الأحداث الروائية- القراءة] هو مايبدو منطقياً أن تطلق عليه اسم: فضاء الرواية، لأن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان. والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء. ومادامت الأمكنة في الروايات غالباً ماتكون متعددة ومتفاوته، فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعاً»[١]. إن هذا التمييز بين المفهومين يسير وفق قانون الاحتواء: الكل يحتوي الجزء وينطوي عليه، ووفق ذلك فالمكان ذو سمة جزئية، أما الفضاء فيمتاز بالشمول والعمومية، وعلى هذا الأساس يحتاج المكان الى مسطّح يتموقع فيه ويشغل جزءاً من فراغه، ويتجاور مع أمكنة أخرى برسم الحضور أو الاختفاء، ومن هنا فالفضاء: «يشير الى (المسرح) الروائي بكامله، والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقاً بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي»[٢] ويعمّق الناقد حسن بحراوي هذا التمييز حيث ينزع الى استخدام الفضاء بدلاً من المكان لأنه الهيولى التي تحيط بالبنية المكانية في النص ويحقق كينونتها وعلاقتها البنيوية مع المكونات السردية الأخرى، ولم يعد يقتصر على الأمكنة الموجودة في الخطاب الروائي، وإنما يتشكل جراء تشابك وتقاطع العلاقات النصية -Tex tual relations بين المكان وعناصر السرد الأخرى. إن الفضاء حسب مايقول: «هو شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشييد الفضاء الروائي الذي تجري فيه الأحداث»[٣].

غير أن الناقد محمد منيب البوريمي يوسع من مفهوم الفضاء الروائي، فعلاوة على الحيز المكاني الذي تؤمه القوى الفاعلة في النص والأشياء والرؤى الفلسفية فإنه يشتمل أيضاً على المساحة الورقية أو الفضاء النصي: «وعلى هذا فالفضاء الروائي يتسع اصطلاحاً ليحتوي أشياء متباينة ومتعددة

---

(١) حميد الحمداني: بنية النص السردي، بيروت- الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

لاحصر لها، بدءاً من المساحة الورقية التي يتحقق عبر بياضها بجسد الكتابة؛ الى المكان والزمان، أشياء، اللغة/ الأحداث، التي تقع تحت سلطة إدراكنا عبر أنماط السرد، والتي تجسد عالم الرواية»[1]. وفي الحقيقة يبدو مفهوم (الفضاء) في الدراسات المعاصرة يمتاز بالتنوع، وينطوي على مستويات عدة ومختلفة. وحسب حميد لحمداني هناك: الفضاء الجغرافي Geographical space وهو: «مقابل لمفهوم المكان، ويتولد عن طريق الحكي ذاته، إنه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال، أو يفترض أنهم يتحركون»[2]. وفضاء النص أو الفضاء النصي Textual spaceوهو: «فضاء مكاني أيضاً غير أنه متعلق فقط بالمكان الذي تشغله الكتابة الروائية باعتبارها أحرفاً طباعية على مساحة الورق ضمن الأبعاد الثلاثة»[3]. ورغم أهمية هذا النوع من الفضاءات في استنطاق النصوص الأدبية إلا أنها مازالت في بداياتها كأدوات إجرائية، ولم تحجز لها موقعاً في استراتيجيات القراءة النصية. ويضاف الى ذلك مستويان آخران: الفضاء الدلالي والفضاء كمنظور، وهما لايدخلان ضمن نطاق هذه الدراسة إلا في حدود ضيقة. وفي ضوء ماتقدم فإن الفضاء بمعنى الأمكنة المتواجدة على الشريط اللغوي، التي تعد ساحة صراع للقوى النصية، هو الذي يشكل بؤرة القراءة وموضوعها وهدفها في الاستنطاق والتأويل.

وتجنُّباً لأية إشكاليات مفهومية، وبغية تأسيس صيغة دقيقة عن الفضاء الروائي يمكن القول: إن البنية الروائية تنطوي في شريطها اللغوي على أمكنة وأحياز تتشابك فيما بينها، وتتقاطع وتتجاوز مع أمكنة متخيلة تشير إليها القوى الفاعلة بحركاتها وخطاباتها واختراقاتها، فتتضافر وتتكاثف عبر مسار الحكي/ الخطاب على مستوى التشكيل النصي، وعلى مستوى التلقي

---

(١) عن شريط أحمد شريط: الفضاء، المصطلح والإشكاليات الجمالية، مرجع مذكور، ص١٢.

(٢) حميد لحمداني: بنية النص السردي، مرجع مذكور، ص٦٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٢.

جراء اصطدام النص بالقارىء. وبذلك لاينشأ الفضاء الروائي دفعة واحدة كما أنه يختلف في تبنينه من متلق الى آخر، وينمو مع فاعليات القراءة ويخصب بها. ومن الأهمية بمكان الإشارة الى أنَّ القراءة تنحاز إلى مقولة الفضاء للدلالة على مجموع الأمكنة التي تتوزع ساحة الخطاب، على حين يقتصر استعمال المكان للدلالة على مكوُنات هذا الفضاء.

٢- بنية الفضاء الروائي وآلياتها:

يقتضي الحديث عن الفضاء الروائي مقاربة بنيته: كيف يتبنين؟ وماالآليات التي تنتظم وفقها المكونات المكانية في هذه البنية؟

إن الفضاء في الأصل مفهوم بنيوي (علائقي) / سيميائي، أي يتكون وفق خصائص علائقية بين الأمكنة وقوى النص من زمن، شخصيات، ووجهات نظر، وهذه البنية تشتغل عبر حركتين: حركة محايثة (تداخلية) تخص النص، وحركة عمودية تتقاطع مع الحركة الأولى، وتتمثل بالتبادل المستمر بين النص والعالم المعيش، كما ذكر سابقاً. واذا كانت الحركة العمودية مؤهلة للقبض عليها من خلال الكشف عن رؤى الشخصيات في علاقتها بالمكان، فإن الحركة الأولى هي ماترتأي القراءة التموقع عند آلية عملها في الخطاب الروائي.

وتستند القراءة في الكشف عن البنية الفضائية الى مفاهيم أو مقولات نعوم تشومسكي N. chomsky، الخاصة بالبنية اللسانية. وحسب هذا الألسني يمكن تفريع البنية اللغوية الى مستويين: سطحي Surface structure وعميق Deep structure، ويقصد بالمستوى الأول: «التنظيم النحوي للجملة كما تتبدى لنا سمعاً أو رؤية»[(١)]، أما الثاني فيراد به: «تنظيم مستوى أكثر تجريداً

(١) يوسف غازي: مدخل الى الألسنية، دمشق: منشورات العالم العربي الجامعية، ط١، ١٩٨٥، ص٣١.

الجملة على مستوى أكثر تجريداً»[١]. وللانتقال من المستوى العميق الى المستوى السطحي المحسوس، فإن الأمر يتطلب مجموعة من قوانين التحويل Transference وهي تلك: «العمليات المحدودة المساهمة في مساعدة المتكلم على تحويل البنى العميقة الى بنى سطحية»[٢]. أما عمليات التوليد، فالمقصود بها توليد عدد لانهائي من الجمل انطلاقاً من فئات نحوية محددة. والآن ماعلاقة ذلك بالبنية الفضائية في النص الروائي؟.

بداية يمكن القول إن البنية الفضائية بنية لغوية وبالتالي فهي تخضع لنفس هذه القواعد التحويلية والتوليدية، وعليه فالأمكنة التي تتجاور وتتراصف وتتحاذى مشكلة الفضاء الروائي - وكما تفترض القراءة استناداً الى مفهومي البنية السطحي والعميق - إنما تنتظم في المستوى السطحي (الفضاء السطحي) وفقاً للمستوى العميق (الفضاء العميق) عبر اشتغال عدد من الآليات. وهذا يعني أن التشكيلات أو الأنساق المكانية في الفضاء السطحي ليست طارئة على بنية النص الروائي، بقدر ماهي هندسياً - وبشكل غير مباشر - نتيجة لعمل البنى العميقة أو الفضاء العميق. وعندما تقوم آليات العميق بفرز الأمكنة على مختلف أشكالها وأنماطها في الفضاء السطحي، فثمة اختيارات كثيرة وفقاً لعمليات التوليد المتنوعة أمام الروائي للانتقاء والاختيار وتنظيم الأمكنة. وبذلك فالروائي سواء أكان على وعي بذلك أم لا، فإنه يلجأ في تشكيل أنساقه المكانية وتأسيس فضائه الروائي الى جملة من الآليات التي تتحول بموجبها الكتل المكانية غير المتمايزة من الفضاء العميق إلى الفضاء السطحي، وهذا مايفسر لنا التماسك والانسجام في الفضاء الروائي، إذ إن: «فاعلية البنى، هي وحدها القادرة على البرهنة على نوعية التداخل والتشرب والاندماج لطبقات المكان، فتظهر على السطح المكاني مجموعة علاقات مكانية تعبر عن بنية ظاهرة بينما البنى العميقة

(١) المرجع نفسه، ص٣٠١.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٠٢.

تشكل أنساقاً مكانية مضمرة تستشف بوصفها كيانات قابلة للإدراك»(١).

ومن الأهمية بمكان الإشارة الى أن البنى العميقة محدودة، ولكن انتظامها في الفضاء السطحي يتكاثر ويتنوع عبر آلية التحويل والتوليد. أما بخصوص هذه البنى فيذكر نعمان نجم الدليمي أربعة أنواع أو مستويات: البنية المكانية المتوالدة، البنية المكانية المتدرجة، المتداخلة، والمتكررة. وهذه البنى العميقة تسلك طرقاً متنوعة في التمظهر والتجلي عبر الآليات التالية:

٢-١: آلية التضمن والاشتمال:

وفق هذه الآلية تنتقل الكتل المكانية في الفضاء العميق الى أنساق منتظمة في الفضاء السطحي حيث «يكون (أ) مشتملاً على (ب) حين يكون (أ) أعلى في التقسيم التصنيفي أو التفريعي»(٢)، مثلاً يلجأ الروائي في إيراد الأمكنة الروائية مبتدئاً بالكل ومنتهياً بالجزء، حيث الكل يحتوي الجزء: دار: بيت، غرفة، جدار، نافذة،.. أو كما في النسق التالي: مدينة: حي، شارع، بيوت، بيت،... الخ. والاختيارات كثيرة أمام الروائي للتنظيم كما تمت الإشارة، والمهم في اشتغال هذه الآلية، هو أن الروائي ينتقل من الكل الى الجزء، وهو مايكون شائعاً وسائداً في الوصف البانورامي.

٢-٢: الآلية العكسية (علاقة الجزء بالكل):

وينتقل الروائي من الجزء الى الكل، أي أن الأمكنة الروائية تسلك طريقاً عكسية للانتظام في أنساقها الخاصة بها، فالجزء يستدعي الكل، وتندرج ضمن هذه الآلية: «البنية المكانية المتوالدة: المتميزة باستدعاء الكل لمجرد ظهور الجزء فالباب أو النافذة تستدعي وجود الجدار، والأخير يحدد المكان، لذا فإن توالدية البنى المكانية هي استمرار العناصر المكانية وتدرّج

(١) منصور نعمان نجم الدليمي: المكان في النص المسرحي، إربد: دار الكندي للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩، ص٨٨، ويعد هذا المرجع من الدراسات المنفتحة على الحقول الأخرى والاستفادة من انجازاتها واستثمارها في القراءة والكتابة.

(٢) أحمد مختار عمر: علم الدلالة، الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٢، ص٩٩.

حضورها من خلال سلسلة معلومة مكانياً، والجوهري في هذه البنية هو تكثيفها المكان واقتصارها على الأساسي من العناصر»(١).

٢-٣: آلية التضاد:

وهذه الآلية هي الأكثر حضوراً في بنينة Struturation الأمكنة وتوزيعها في الفضاء الروائي. وتنجم عن هذه الآلية انتظامات مكانية متقابلة ومتناظرة، وهي المؤهلة للكشف عن رؤية الروائي، وكذلك الرؤى الخاصة بالقوى الفاعلة في النّص تجاه المكان، وتتفرع عن هذه الآلية الى مستويات كثيرة من الانتظامات التقابلية:

- **التضاد الاتجاهي** Directional oposition: ويمكن التمثيل له بالثنائية المتضادة: أعلى- أسفل. فالروائي كثيراً مايطرح أمكنته بهذا الشكل: أمكنة عالية بمقابل أمكنة سفلية لتعكيس التناقض الطبقي في بنية المجتمع، لأن تأسيس الفضاء الروائي لايخضع لرؤية حيادية بقدر مايخضع لهيمنة رؤية متكاملة من القيم الايديولوجية والجمالية والفلسفية.

- **التضاد التقابلي أو الامتدادي**: ويمكن التمثيل له بالثنائيتين: شمال- جنوب، شرق- غرب. والروائي هنا يعمل على توسيع الفضاء الروائي ويضع من خلاله أنظمة ثقافية متقابلة تجاه بعضها البعض، كما فعل الطيب صالح في روايته (موسم الهجرة الى الشمال) حيث يتكوّن الفضاء الروائي من مكانين متقابلين: الشرق ممثَّلاً بـ(مصطفى سعيد) والغرب ممثلاً بـ(النسوة) اللائي أقمن علاقات عاطفية وجسدية مع مصطفى سعيد. وفي واقع الأمر، فإن معظم التقابلات المكانية: مرتفع- منخفض، قريب- بعيد، خارج- داخل، مركزي- هامشي، التي تؤسس الفضاء الروائي هي إفرازات لهذه الآلية في اشتغالها النصي. وتجدر الاشارة الى أن (البنية المكانية المتداخلة) تشتغل وفق هذه الآلية، حيث تتجسد هذه البنية وكما يقول الدليمي: «من خلال التناظرات القائمة في أشكال الأمكنة الملموسة

(١) المكان في النص المسرحي، ص٩٢.

التي تصور حركة الأبطال وانتقالاتهم المكانية من شكل مكاني الى آخر»[١]، ومما له أهميته القول: إن الفضاء القائم على التضاد المكاني يضفي دينامية على النص الروائي.

٢-٤: آلية التجاور:

وفق هذه الآليــة، ليس من الضــروري أن تنتــمي الأمكنة لنفس المستـوى، وإنما يمكن لأمكنة مـختلفـة أن تـتجـاور في فضـاء الرواية دون ارتباطات فيزيائية تذكر، كأن يورد الروائي حديقة ثم ملعباً أو غرفة. . . وتتدرج ضـمن هذه الآلية (البنيـة المتـدرجـة)، والرابط الذي يربط ويوحـد الأمكنة هو الروائي أو الواصف، ويوضح الدليمي هذه البنية بقوله: «وهي البنية التي تبدو مكانياً من موقع أو شكل مكاني محدد لتضم بعدها المكان على اخـتلاف مستويات تكوينه»[٢]. وعن طريق آلية التجاور، يكشف الروائي عن مساحات كبيرة من الفضاء، ويترتب على ذلك اجتماع أمكنة من مستويات مختلفة في الفضاء الروائي.

وأخيراً هذا لايعني أن النص الروائي يلتزم بهذه الآليات والبنى، لأنه يتأسس أصلاً للإطاحة بالقوانين والقواعد المنطقية التي تعيق من فلسفته القائمة على الارتياب والدهشة والمفاجأة، فالكتابة الأدبية تخلق منطقها وقوانينها المنزاحة عن القوانين السائدة، ولكنها في الوقت ذاته لاتنتظم عشوائياً، وإنما تسلك قوانين وقواعد محددة تنظم محتوياتها ومكوناتها، وماهذه الآليات إلا محاولة للقبض على أسرار البنية الفضائية في النص الروائي. إن الأمكنة تنتظم في الفضاء وفق آليات محددة نتيجة التفاعل والتداخل بين المستويين العميق والسطحي. بيد أن هذا الانتظام، سواء تحقق وفق هذه الآلية أو تلك، فإنه في الواقع لايلغي استمرارية الفضـاء وحدته لأن الفضاء هو الذي يمسك بهذه الأمكنة ويمنحها أدوارها وأبعادها البنيوية والدلالية، ويحقق الاتصال بينها. واذا كان الفضاء في كينونته مرهوناً بهذه الأمكنة فلأنها تعد كائناته التي تمنحه المعنى.

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

ابـــداع

شـــعر

يابنتَ فاتحة الزمان!

سليمان العيسى*

إلى بيروت.. عاصمة «ثقافة»

بدَمٍ.. تَحـدَّرَ من جَـبـينك أكـتُبُ
ويَعـومُ شَـرْقٌ في الضّـيـاءِ ومَغْـرِبُ
يابنْتَ فـاتحـةِ الزّمـان.. وسـرّهُ
والـدّهْـرُ بـينَ يـديـك طـفْـلٌ يَـلْـعَـبُ
أبداً.. شراعُك في الغُـيـوبِ مُـسافـرٌ
فـي كُلِّ أُفْـقٍ من سَنَـاهُ كـــوكَـبُ

(*) - سليمان العيسى: شاعر من سورية، يساهم في الحركة الشعرية منذ الستينات من القرن الفائت.

رومـا تشـيلُكَ دُرَّةً في تاجـهـا
والنورُ.. دَفْقٌ من يمينِكِ يُسْكَبُ

والمُلْهَمون بَنُوكِ.. ما زالوا هنا
جيلٌ فجيلٌ.. لِلْحَضارةِ يُوهَبُ

ونَحُطُّ في حَرَمِ الجَمالِ.. ركابَنا
ما ضاقَ بالعُشّاقِ حولَكِ مَلْعَبُ

نأتيك.. نَسْبَحُ في مَداكِ قَصائداً
ومَداكِ مَفْتوحٌ.. وصَدْرُكِ أَرْحَبُ

بيروتُ..
ياولَهَ الحناجرِ عَذْبَةً!
ولأنْتِ أَحْلَى ما يُقَالُ.. وأَعْذَبُ

نأتيك.. وَشْوَشَةً على شَطِّ الهوى
ويُجَنُّ في الوتَرِ النشيدُ ويُغْرِبُ

نأتي.. وأَحْلامُ الطُّفولَةِ زادُنا
والحُبُّ عُرْيانُ الجِراحِ مُخَضَّبُ

نُلْقي على لَهَثات مَوْجِكِ عُمْرَنا
فإذا الدَّمَارُ
على يديْكِ مُحَبَّبُ

* * *

يا كَرْمَةَ الدُّنيا..
ويَشْتَبِكُ الْجَنَى
فيها.. فَتَعصرُ ما تَشَاءُ وتَشْرَبُ
ويَعُبُّ كلُّ الواردينَ.. سَجِيَّةٌ
أنَّ الكنوزَ بكفِّها لا تَنْضُبُ

يامُلْتَقى الأحلامِ.. راضيةً هنا
تُلْقي الرِّحالَ، وتستريحُ وتَتْعَبُ
أنا واحدٌ من ظامئيكِ.. فَهَدْهِدي
كأسي..
سَيَنْهَبُني هَواكِ.. وأنْهَبُ
أنا واحدٌ من عاشقيكِ.. فما عَسَى
ارْوي من الولَهِ القديمِ وأحْجُبُ؟

بَقيتْ على شَفَةِ النشيدِ ثُمالَةٌ
لإلهةِ الذكرى بها أتَقَرَّبُ

بَقِيَتْ . .
سأسْكُبُها بسمعك هَمْسةً
انا مِنْ طُفُولة صَبْوتَي لا أتْعَبُ

* * *

كانَ الزَّمانُ . .
وكنت أنتِ - وما تزالينَ - الزَّمانْ
يا عُنْفُوانَ الحُبِّ، في دَمنا شبابُ العُنْفُوانْ
هذي مدينتُنا - السَّنَا
هذا المساءُ لنا . .
ودَعْنا شاردين . . بلا عنانْ

ظَمأٌ إلى الأحْلَى، إلى الأشْهى، يُحركُنا . . وننطلقُ
فوقَ الرصيف . . سحابةً بيضاءَ ننطلقُ

بيروتُ تَضْحَكُ . .
وردةُ الدنيا بأحْلَى ما يشعشعُ في سماءِ الله تأتلقُ

ظَمأٌ إلى الأصْفَى . . ونحنُ نَدُقُ أحجارَ الرصيف،
وتحتَ شالٍ من رَذاذِ الضوءِ ننطلِقُ

في آخر «الحمراء» كَأسٌ من مُعتَّقةٍ، وزاويةٌ
بكلِّ حناجـرِ الدنيـا . . تُغَنّي

في الليلِ زاويةٌ . . سنَبْلُغُـهـا . .
ونرفَعُ كأسَ سيدة القصيدة والجمال،
ونحنَ في فَـــرحٍ نُغَنّي

ويضُّمنا «الركنُ الحميمُ» وثُلَّةُ العُشَّاقِ
من جنَبات كوكبنا . .
أَتَتْ مَــعَنا تُغَنّي
وتعـودَّتْ أُمُّ المدائن
أنْ تَضُمَّ بصدرِها أشواقَ صدرِ العالمين.
وأنْ تُـغَـنّـي.

* * *

بيروت تُقْصَفُ ذاتَ يومٍ . .
رُكْنُنا، ديوانُنا العربيُّ يحتـرقُ
الحَلْوةُ السمراءُ تُغْزَى فجأةً
الحَلْوةُ السمـراءُ . . تحترقُ
الكأسُ فوقَ شفاه كُلِّ العاشقين، الظامئينَ،

القادمينَ من الجهات السَّبْعِ،
تَسْكُبُ لحنَهـا الأنْقى، وتحترقُ

حَقَدوا على عَبَقِ العُصورِ، يُعَطِّرُ الآفاقَ،
من بيـروتِنا يتَـدَفَّقُ العَـبَقُ

عشرينَ عاماً.. يَضْرِبونَ، ويَقْصِفونَ،
ويَفْصِلونَ الضِّلْعَ عن ضِلْعٍ، وتُجتثُّ الجذورُ،
وكـرمـةُ اللَّهِ الوريفـةُ في لظَى النيـرانِ تختنقُ

ويُقـاومُ العَـبَقُ
وتظلُّ مَلْحمةُ الجَنوبِ تُلَقِّنُ المُتَغطرِسَ الدرسَ العظيمَ،
تقولُ للعُدْوانِ: حَدُّ السيفِ مَوْعِدُنا..
الشَّهيدُ كلامُنا..
او تُشرقَ القممُ الوِضاءُ، ويَرْحَلَ الغَسَقُ

* * *

يا أجْمَلَ اللّحظاتِ، يا مَوْئِلَنا الأبَديَّ،
لا جَـزَعٌ ولا فَـرَقُ!

إنَّا هُنَا . . ياليلُ، يا سَمَرُ
إنْ ينقصِفْ حَجَرٌ . . سيشمخُ فوقَه حَجَرُ

ديوانُنا العربيُّ باقٍ . .
واليدُ الهمَجيةُ الرعناءُ حالكةٌ وتندثرُ

بيروتُ . . سيدةُ القصيدةِ والجمالِ
ستظلُّ في حَلَكِ الليالي
سِفْرَ الضياءِ . . تظلُّ سيدةَ الليالي

لن تُطْفِىءَ التاريخَ . . ياهذا المُزَنَّرُ بالضغينةِ والخَرَقْ
لن تُطْفِىءَ التاريخَ . .
أقوى منكَ سِفْرُ الضوءِ،
يضربُ في جُذُورِ الأرضِ،
منذُ الفجرُ في الأرضِ انبثَقْ

* * *

بوابةَ الألَقِ السخيِّ . . صُبَابَةً
تطفو على الوترِ العنيدِ وترسبُ

لا تَعْـتُـبْي إنْ غَصَّ لحني في فَـمِي
انا مَنْ على اللحنِ الوجيعِ سَيعْـتُبُ

تَتَـرنَّحُ الذكـرى صَـدًى في ريشـتي
فـإذا البـعـيـدُ من الفـواجعِ أقْـرَبُ

وبَلَوْتَ حُلْوَ الـنازلات ومُـــرَّهـا
كُلٌّ على قَـسَـمـاتِ ثَغْـرِك طيِّبُ

وصَـهَرْتَ أشْتـاتَ العـصورِ بنغمـةٍ
سِـرٌّ تَحـارُ به العُـصـورُ مُـحَـجَّبُ

ويَصُبُّ فـيكَ المعـتـدونَ جـحـيـمَـهم
وعلى الجحيمِ.. يَظَلُّ صَخْرُكَ
يُعْـشِبُ
بيـروتُ عنقـاءُ الزّمـانِ.. من الردى
تأتي، ومن حَلَكِ المآسي تُخْـصِبُ

* * *

عُودي بنا للشعرِ..
أنت رحيقُهُ وجنانُهُ
قُولي لأَخْطَلِكَ الجميلِ(١).. تفجرَّتْ ألْحانُهُ

ألْمهرجانُ بيانُهُ..
والمُنْشِدونَ.. لَهَاتُهُ وكَمَانُهُ

عُودي بنا للشعرِ.. تحتَ عَرِيشةٍ
مِنْ كَرْمِكَ الأزَليِّ..
أبْدَعَنا، وراض عَصِيَّنا، لُبْنانُهُ

بيروت.. يا وَعْدَ المواسمِ والمَطَرْ
عُودي بنا للشِعْرِ..
نَنْسَى دمارَ العصرْ..

نَمْضي على الحُلُمِ الذَّبيحِ
نَنْسَى رُؤَى الزَّمَنِ القبيحِ

إنَّا سَنُعطي الأرضَ نَكْهَتَها..
ونَكسو في شتاءِ القَحْطِ عُرْيانَ الشَّجَرْ

في هذه الأرضِ العتيقة..
سوف تَبْقَى الشمسُ تَضْحكُ، والقَمرْ

(١) – شاعر لبنان الكبير الأخطل الصغير.

ابـــداع

مرافعات الكامل والرّمل

ابراهيـم الزيـدي(*)

بيننا مليونُ عامْ

وسَرجنا الحُلمَ ذاكرةً تمفصلها الرُخامْ

فامَّحتْ كلُّ المسافةِ في خرافاتِ السلامْ

وارتحلنا في دروبِ الصّمتِ قافلةً، ليقتلنا

الكلامْ

(*) - إبراهيم الزيدي: شاعر من سورية. ينشر أعماله في الدوريات المحلية والعربية.

وخرجنا من رحاب المجلس الدوليّ مثقوبينَ بالتأبيد ثانيةً /
وضعنا في الزحام!!
فليكنْ للصمت خاتمةٌ، وفي الحزن انسجامْ
وليكنْ للعشق فاتحةٌ، لنبدأ بالغرامْ
فأنا مازلتُ أرسمُ خطوتي الأولى/
ألونُ دربَك الشتويَّ، ذاكرةً
أسامرُ نقطةً في آخر السّطرِ، وفاصلةَ اختباري!!
آه كم يجتاحُني حلمُ المسافرِ كلّما أمعنتُ في عينيكِ
تشرقُ شمسُ من عبروا، وتمتدُّ البراري
فرصةً أخرى امنحيني/
علّني أشتقُّ اسماءَ الذين أحبهُّم/
ويفيضُ ظلُّكِ في انتظاري
علّني . .
كم علّني ظمأُ الأحبة/
وارتجلتُ الشوقَ مابين انكسارٍ وانكسارٍ.
فرصةً أخرى امنحيني/
علّها تأتي الشموسُ الغارباتُ من المغيبِ
علّه يأتي الحبيبُ إلى الحبيبِ
كلُّ ما نذكرهُ من مجدنا: صبرا وشاتيلا
فهل من طلقةٍ أخرى ليسمعَ مجلسُ الأمنِ الموقّرُ قبلَ
توقيعِ القرارِ؟

طلقة أخرى لتمضي في المدى الممتدِّ من شمم النخيلِ/
إلى الجليلْ
طلقةً أخرى تعانقُ هاجسَ الحجر المقدَّسِ في الخليلْ
طلقةً أخرى لينقضَّ الجدارُ، ويستوي عشقُ المهاجرِ/
بين ثانيتين/
ينبيءُ لازوردَ البحرِ : أنَّ الروحَ تأبى أن تظلَّ وحيدةً
إنْ أبصرتْ : طيفاً لخلٍّ حالمٍ بين الصواري
عودي إلى الحلمِ المسافرِ بيننا
فأنا انتهيتُ
قد ودَّعَ الأسماءَ قلبي!!
وانطوى فيما انطويتُ/
وأنا كباقي الوشمِ محوٌ/ وخارطةٌ بلا بحرٍ،
تطلٌّ على اليباسِ المرِّ في جوف الصحاري
ودمي على الجدرانِ يافطةٌ/ تودِّعُ آخرَ الشهداءِ
تسكبُ ظلها المشوقَ شاهدةً لقبرٍ فيه داري
واحتفالُ الموجِ يصلبني على الشطآنِ ظمآناً
فيتقدُ انتظاري
فأنا مذ ابتداء الوجد : محمومٌ
ومحسوبٌ على وطنٍ تربَّعَ بين مرحلتين/
أهذي بانتصاري!!
ذاهبٌ من لجّةِ الشوقِ القديمِ إلى الجديدِ المستحيلْ/

عائدٌ من ضفة البوحِ لجرحٍ فاض أغنيةً /
للحن يستبيحُ الصمتَ /
يشعلُ في ناري
هاك نهراً /
ضفتاهُ قصيدةٌ
تمتدُّ ما بين انتماءٍ وانتحارٍ!!
هاك من وجعي قليلاً/
واخلعي عني ظلالَ الأمسِ
كي لا يستبيحَ السِّلمُ:
خلخالاً
وخصرَ حبيبةٍ عرشي
وهاتيك «الهباري»
واكتبي في دفترِ التاريخ:
ذاكرتي، وعنوانَ القصيدة، واعتذاري
واكتبي:
بيروتُ أولُ نزفنا العلنيِّ في وجهِ السلامِ - الذلِّ
والصمت المعتقِ والحوارِ
بغدادُ شمسٌ عانقتْ ظلي بمنتصف النهارِ
والقدسُ تفتتحُ القصيدةَ والجريدةَ وانهياري
وبهذه الأوراق/
أغنيتي الأخيرةُ، واحتضاري.

ابـــداع

قصـــة

«الأغصان العارية»

اعتـدال رافـع(*)

يا المسكونة بهاجس الفقدان.. لا شيء يستحق التملك والامتلاك، الدرب قصير والجسد تراب والروح غيمة بيضاء.

شرعي مصاريعك على البحر وارقصي وجودك حتى ولو كانت كينونتك سراباً واكتفاؤك مذله. مشطي أهداب الغياب بأصابع توقك إلى معانقة الشمس عندما تصبح برتقالة مضرجة باحتراقها وهي تتوارى خلف الأفق.

(*) - اعتدال رافع: أديبة وقاصة من لبنان. لها عدة مجموعات قصصية. من أعمالها: «امرأة من برج الحمل».

يا التي ذاكرتها صندوق «باندورا» لماذا تصرّين على طفولتك كأنك لم تكبري بعد؟

أنت كبيرة بما فيه الكفاية لتتعلمي فن المناورة والضحك على الذقون. إلعبي لحظاتك الثكلى من غزارة الحليب حتى ولو كان الحصان خشبياً والدمية خروفاً. فهذا الكون البهي يمنحنا غزارة في يباس الحلمات!

وتقولين أن الحزن يشبهك؟ ما أروع ما أبدع الخالق!

ما همّ إذا لم يعلقوا لك خرزة زرقاء درءاً للعيون الحاسدة؟ ما نفع الخرز الأزرق إذا كانت الرؤوس جماجم والعيون مأكولة.

الفرح ينبثق من بعاق الحرمان نوافير صاخبه ترقص على زخم الأحلام النائيه، واخوتك الصغار يتراشقون بوسائد النوم المحشوة بالنخالة، يتزوبع المكان برذاذ القشور والأصوات الزاعقه التي ترعف طفولتها في حركات يائسه ومجنونه، والجارة أم عبدو تداري وجع ركبتيها بالكيّ برأس مسمار يتوهج بالحريق تثقب تحت ركبتيها، تفتح مجرى للألم وتسدّه بحبة حمص مسلوقة، وأمك تضع العلق على صدرها ليوسّع مجاريها التنفسية. الناس الذين يسكنون في أقبيه تحت الأرض يتآكلون من الرطوبه بالتدريج.

يا المسكونة بهاجس الفقدان.. هيا ساعديني في إعادة ترتيب الموجودات والأشياء التي تطالها يداك وفق قانون وجودها الطبيعي. ربما يصبح العالم أكثر نظافه وأقل قسوة وفوضى. تعالي نزل الغبار والقشور ونلمع بدمعنا المرايا والوجوه والأرضيات والأحذية (النظافة من الإيمان) والمحافظه عليها مهمةٌ بالغة التعقيد مثل (لعنة سيزيف)!

ألا تريدين مشاركتي عبثي؟ يا التي ولدت كأنها هرمة هزي جذعك المتخشب والعبي (أيروبك) مثل نساء التلفزيون العصريات. لين المفاصل ضرورة حياتيه قصوى. الركوع والانحناء والتقوس والزحف إذا اقتضى الأمر.

الحركة بركة والسكون موت واندثار، الطاقة تدمر صاحبها إذا لم يفتح لها منافذ في سراديبه السرّية. لماذا تتجاهلين قيمة ذاتك وأنت أنت؟ ما العيب في أن تهربي إلى سطح البيت تنشدين الخلوة مع كتاب (الأجنحة المتكسرة) أو كتاب (ماجدولين)؟ تصهلين وجودك دمعاً على صفحات الكتاب وأنت لست سلمى كرامه أو ماجدولين! وكأنك تشمين مصيرك من خلالها، لا داعي لكل هذا التشاؤم، ما همّ إذا كان حذاء سندريلا ضيقاً على قدميك وأنت ممددة على حصيرك في ظل المدخنه؟ في أحلامك تفصّلين لقدميك أجنحة من غيم!

في عمق نشيجك تتفتح زهرة، يرمي لك محمد من السطح المقابل ورقة ربطها إلى حجر يعرض عليك فيها صداقته.

وجاركم (أبو عبدو) الاسكافي قال لك (الحجر أنثى وذكر). للوهلة الأولى ظننت أن الرسالة بعثها لك أحد الملائكه من السماء. محمد يعرض عليك صداقته، والصداقة تجعل الإنسان أقلّ حزناً وبكاء، وأنت كلما لمحته تهرب حواسك منك ويدبّ فيك الخرس، تبدين كأنك بلهاء لا تفقه شيئاً من أمور هذه الدنيا! وأنت تعرفين ولكنك لا تعرفين أنك تعرفين!! تجرأت أخيراً وكتبت له أنه لا مانع لديك أن يكون صديقك. مططت قامتك إلى طول المدخنه وحبست أنفاسك ورميت له بالردّ. طوّح الهواء بالورقة بعيداً كجناح طائر وسقطت في الجبّ الواقع بين العمارتين.. يا لغبائك وقلة حيلتك! لقد نسيت أن تربطيها إلى حجر..

يا المسكونة بهاجس الفقدان.

في الليل تهجم عليك الظلمه بأشباحها الخرافيه. يجعدك السهاد والكوابيس تفتحين ثغرة في بطن الليل وتسرقين جسدك إلى الحكاية، يناولك محمد رسالة زرقاء وأنت في طريقك إلى المدرسة، يا إلهي كم تحبين البحر! تضعين المغلف في حقيبتك وتؤجلين قراءة الرسالة إلى ذلك الوقت الذي تكونين فيه على حصيرك في ظل المدخنه.

بوصولك إلى المدرسة دسست الرسالة في كتاب ووضعت حقيبتك على المقعد .

أثناء تواجدك في الفرصة تسلل أحدهم إلى الصف وسرق رسالتك وسلمها للمديرة .

لقد تماديت في شرودك بدرس الحساب وكانت أصابعك تعانق الرسالة دون علم منك !

استدعتك الآنسه (فايزه)، وقفت أمامها منكسرة مثل غصن معلق بالهواء .

سألتك عن مصدر الرسالة، قلت لها من محمد ابن الجيران . أنبتك بشدة لأنك سمحت له أن يتمادى في بوحه ويعلن عن اعجابه بك بالقلم العريض . ثم ألقت على مسامعك درساً في الحشمة والأخلاق بينما هي تمزق الرسالة دون أن تطلعك على ما جاء فيها .

من يومها كففت عن الصعود إلى السطح وصرت تقرئين تحت الطاولة .

قصصت خصلة من شعرك الطويل وخبأتها في مغلف مع صورة لك وأنت تضحكين .

عندما صادفت محمد لم تناوليه المغلف مباشرة . تظاهرت أنه سقط منك سهواً . .

وهرولت كأن جيوش العالم تلاحقك .

* * *

ابـــداع

أشهر معارك التاريخ

محمـد أبـو معتـوق(*)

بعد أن شاهد على شاشة التلفزيون برنامجاً عن أشهر معارك التاريخ، وانتبه الى مجريات معركة (واترلو) موضوع الحلقه.. وتأمل حركات نابليون، وهو على صهوة الفرس، والفرس على صهوة الأرض و والأرض على صهوة الدم والانفجارات، بعد أن انتبه طويلاً وعميقاً الى كل ذلك، قرر بذاته، ولاشيء سواه أن يخوض المعركة، ثم نهض بكامل هيئته، وبدأيذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يخطط للهجوم الكبير.

(*) – محمد أبو معتوق: روائي وقاص من سورية. له عدة مجموعات قصصية. من أعماله: «جبل الهتافات الحزين».

وقد أعانه سرواله الداخلي القطني الأبيض المشدود حول ساقيه الطويلتين على الاحساس بأنهما معاً، هو ونابليون متشابهان . . وكان التشابه أوضح ما يكون من الأسفل، من نقطة السرّة حتى مفرق الكاحل . . من زوابع الغبار في المعركة . . الى زوابع الأسى والرطوبة على أطراف العيون والذكريات لذلك قرر ان يخوض المعركة .

ثم اتجه الى الحمّام ليزيل الغبار . (وفي الحمّام يكرم المرء أو يُهان) .

مرات كثيرة دار حول الحمام، وطاشت روحه بالدموع، وكما يفعل العجوز بذكرياته فعل وتذكر ثم دار وتذكر، وتفقد حجارة الحمام السوداء والكلسية المتجاورة . هذه الحمام حمامه ... ، حمام آله وأسرته، وقد أورثها أجداده لآبائه، وأباؤه له ولوحدته، هاهو يدور ويدور ولا يجرؤ على الانقضاض والدخول، ويهرب دمه الى جلده . . ويركض جلده الى ذكريات أمه، يوم كانت تضعه في حجرها في الحمام، أمام دهشة المربيات والخادمات . ثم تنهال على طفولته ونقاوة جلده فركاً وقحطاً وتلويعاً حتى تخرج الدماء الى ظاهر الجلد، ويخرج الجلد الى خشونة الكيس الأسود، وعيني الأم الثاقبتين . ويا أماه، وها أنا في الوحدة والكهولة، وتكاد الدماء ان تفر الى روحي، وليس من كيس حمام حنون يعالج مخاوفي، ولا ساقين قويتين تلتفان على وحدتي وخلاياي . ويا أماه عندما أجد المرأة . . تلتفت الى سواي، وعندما ألامس جدار الحمّام يداهمني قانون الايجارات . انني اعود للحمام لاستعيدكِ واستعيد بقاياي .

كان الوزان الكبير مؤسس الأسرة، قد اشترى ارض الحمام وأشرف بنفسه على بنائها، بعد أن شاع في المدينة تقليد ان تكون للأسر الكبيرة حمامات خاصة بها، ألم يبنِ (الناصري يلبغا) حماماً لأمارته، فكيف لا يكون للوزان الكبير حمامٌ يعادله، غير ان الحمام العظيمة وبعد انجازها ذهبت بالمال والحلم، وانزلقت رجل الوزان الكبير على بلاطها بسبب نعومته المثيرة، وجودة صابون الغار الحلبي المطيب الذي دهن به اطرافه، فوقع على ظهره وتأذى عموده الفقري

وانسطم وتجلط وكانت الحمام سبباً لموته وخلوده معاً. فبعد ان شيعه الجميع الى مثواه.. أصبحت حمام (الوزان) بعده درة حمامات حلب، وقبلة الحالمين والراغبين. وهاهو الابن الأخير من السلالة العاتية يدور ويدور ولاتنجده سوى مخيلته وقبضته الوحيدة على كتم شهقاته وهو يداري بالليل الداوي رطوبة روحه وعينيه.

(من أشياء الحمّام ومعتقداتها).

لم تكن البلاغة التي صيغت بها الكوميديا الالهية لدانتي تضاهي البلاغة التي اشعلت مخيلة الذين أشرفوا على بناء الحمام... واذا كانت كوميديا دانتي تنقسم الى ثلاثة أقسام، (المطهر- الفردوس- الجحيم) فان الحمام مقسمة الى أقسام ثلاثة أيضاً (البراني- الوسطاني- وبيت النار) ففي القسم الأول البراني يتم التحلل من الألبسة والعودة الى البداهة الأولى، حيث لاتستر المعتقدات ولا المخيلة سوى خرقة من الأمام والوراء اسمها المئزر. وهو الالتفاف والاحاطة ورقة توت هائلة تلجم الأعضاء والغرائز والحاجات. لذلك ينزل الرواد بجلودهم المتعرقة واخطائهم واخطاء أسلافهم الى بيت النار ليتطهروا ويستعيدوا عناصرهم وعذرية خلاياهم ومخيلاتهم، ليعودوا مرة أخرى.. بعد أن يفارقوا الماء وغرائزه الطيبة ليتستروا ويزدادوا بالثياب السميكة قدرة على اخفاء الرجس والأخطاء.

غير ان الواحد عندما يدخل الى بيت النار، ويضع بينه وبين العالم ستاراً في خلوة تخصه، ومنه وحوله يتصاعد اللهب من المسام والحيطان. يتذكر وهو في خلوته، جيوش الغصات والشهقات والتأوهات التي اعيته، وحالت المخاوف والمحركات بينه وبين اطلاقها، لذلك يبدأ وهو يلامس الجدران بالتواصل مع تلال الشهقات الانثوية المكدسة في مسام الجدران التي تنز رطوبة واشتهاءً... عند ذلك تركض المخيلة والأعضاء الى الآثام لاقترافها، وليس في الأمام والوراء، سوى جدران لاطاقة للروح بها، وضباب من البخار الحار يمنع الواحد من التعرف على قبضته ليقتص بها من جسده. أو ينهال بها على الجدار ليفنيه.

من الصباحات الأولى وحتى ظهيرة الخلق تكون الحمام مجهزة لاستقبال النسوة والأولاد والفتيات الناهدات.

وكان الوزان الصغير، آخر الحفدة والأولاد، يذهب في صباحات يفاعته الى الحمام ترافقه أمه وأخوته الطويلات.. وكانت (القيّمة) على الحمام تغص بالحيرة وهي تعاين الولد الذي هرب من طفولته ودخلت نظراته في المراهقة والزوغان. لذلك تحاول إفهام أم الوزان الصغير بأن دخوله الحمام أصبح حراماً.. وأن الزبونات العاتيات وبناتهن، وكنائنهن وبنات حمواتهن وجاراتهن لن يوافقن.. وكانت أم الوزان الصغير تجدها فرصة لافهام (القيّمة) بأن الحمام حمامنا وأن التي لايعجبها دخول ولدنا تستطيع ان تلملم اوساخها وثيابها وتذهب.

آخر مرة دخلها الوزان الصغير.. الى الحمام، كانت الفاصلة، وحصل بعدها الانقلاب الكبير. فبعد ان تناوبت الاخوات الطويلات ونظراتهن الثاقبة على جسده بالكيس الصوفي الخشن فركاً ونحتاً واعادة صياغة، تطاير جلد الولد الملتاع. فانتهز الفرصة قبل أن تتطاير روحه وانتزع جسده المسلوق وهرب الى خلوة بعيدة متطرفة وخبأ مابقي منه فيها حتى لايموت. في تلك الآونة وفي الجرن المقابل كانت فتاة ناهدة تحاول بين خيوط الماء المتجدولة من رأسها وجسدها ومفارقها أن تتسلل بنظراتها اليه وكانت على جرن أهلها تعيش وضعاً مماثلاً وتنهال على جسدها البض اللامع أكياس الحمام وطاسات الماء الساخن وتحيط بها عيون ام عريس المستقبل التي أنزلتها للحمام لتتفقد جسدها وانتصاب صدرها وسجاياها لذلك استلت الفتاة جسدها من غرابة عالمها وهربت الى خلوة بعيدة لتستلهم العزاء.

في الخلوة التقيا معاً، واندهشا معاً، وكادت ان تفر منه.. غير أنها وبعد ان أحست بمحنته ورطوبة عينيه. وبأنه يصغرها بسنوات.. عادت لتسأله وتتفقده.. فاقتربت اليه واقترب اليها ... وتجاوبت دهشتاهما ولهاثهما.. وأرته فزعها وحاولت ان تكشف عن فزعه ثم مدته اليها وبدأت بروح دامعة

تعدد أخطاء النسوة وفضائل الرجال ... حتى أغرقتهما الحيرة والغصات ثم حصلت المداهمة، وانهال أهل الفتاة بطاسة نحاسية ثقيلة مزخرفة على رأس الولد حتى شجوه ... وجروا ابنتهم من شعرها حتى أغرقوا قلبها وروحها بالسواد . .

كانت الحمام مؤجرة منذ أجيال لأسرة من بيت (الحمامي) الذين اكتسبوا اسمهم بسبب ملازمتهم الدائمة للحمام وتناسلهم وتوارثهم فيها. وكان من شروط التأجير ان يكون لآل الوزان يوم واحد في الأسبوع يأخذون الحمام فيه من بابها، يغتسلون ويتطاولون وتزداد جلودهم شمماً وحُمرةً . . غير أن تقلبات الزمان وصعود نجم بيت (الحمامي) بسبب المتغيرات السياسية، وهبوط شوكة بيت الوزان بسبب التعالي والروح النافرة، دفع بيت (الحمامي) للتغاضي عن هذا الشرط واقصاء بيت الوزان عن الحمام.

وهاهو الوزان الوحيد وقد داهمته الشيخوخة، والعمر الطويل يدور حول الحمام ويلامس برؤوس اصابعه الجدران ويدخل في الوحشة والتذكر. ثم يقرر بعدها من وقته وساعته ان يخوض (معركة الحمام) ليستردها. بعد ان أدخله نابليون في الغواية وارتداء السراويل الطويلة البيضاء.

(المعركة الأولى)

في الطابق قبل الأخير اسكن. . الشقة مؤجرة لي. صاحبة الشقة قالت لي: عندما تم ابرام العقد منذ خمسة عشر عاماً. . يااستاذ. . أجبتها. نعم. اذا كبر الأولاد هل تترك لنا الشقة.

- طبعاً. فأنا اشتغل بتأليف الموسيقى وأفهم كيف تحن البيوت لأصحابها في آخر المطاف وها أنا وبعد خمسة عشر عاماً وقد كبر الأولاد. . وكبرت الأرض. . وشاخت الخيول. . مازلت أقعد في الشقة، والأولاد يقعدون في حضن أمهم. . حتى أعياهم الأسى فأصيبوا بالحكة والخطيئة، وبدؤوا يلعنون قانون الايجارات. . اخر معركة خضتها استمرت قرابة عشرة اعوام. . يومها

تفرغت تفرغاً تاماً للخصوم، رفعت بحقهم دعوى طالبتهم فيها باخلاء الحمام التي ورثها جدي عن جده وأبي عن أبيه. وعندما مات أورثها لي ولأخواتي البنات، غير ان اخواتي الطويلات الوسيمات وبعد ان أضاع الرجال مجد الأسرة، قررن العمل على اعادة هذا المجد وذلك بالزواج والذهاب الى دول النفط والغرب الأمريكي.. وهناك كثر حولهن الأولاد وكثرت التجاعيد فنسين المجد.. والأخ البعيد، لذلك حاولت ان اذكرهن بنفسي فسافرت اليهن وحدثتهن عن الحمام.. فقلن لي الحمام لك فتصرف.. وتصرفت. وأقمت دعوى على بيت (الحمّامي) الذين اغتصبوا الحمام، التي تعود ملكيتها لأسرتي، وعراقة محتدي، وعظمة روحي.. ولم تكن الرياح مواتية، كانت القوانين، ضدي وضد (الحمّام) وكان لزاماً عليّ أن أستشير همة القوانين وعدالة القضاء لاعادة الحق الى نصابه... لذلك اضطررت لصعود درج القصر العدلي مرات كثيرة.. تتجاوز عدد طاسات الماء التي سفحت على أرض حمامنا منذ الطاسة الأولى. وقد انعكس ذلك علي.. فبدت ساقاي بسبب الصعود الجائر أقل وسامة وتأثيراً من ساقي نابليون.. ولكنهما لم تكونا أبداً أقل حماسة في خوض المعارك... لذلك تابعت وتابعت بحماسة شديدة، رغم غضبي من ارتفاع أدراج القصر العدلي والقصور العدلية في كافة أرجاء الأرض... ربما رسخ لدى القضاة وأركان العدالة أن الوصول الى العدل يحتاج الى الكثير من الصعود وأن العدل الخالص لا يتحقق الا بصعود الأرواح وحدها دون أن تكون برفقة أصحابها... غير أنني استطعت ان التف على ارادة هؤلاء وأقلل من وزني وكثافة جسدي، وصرت أحس كأنما أطير طيراناً على الادراج، ليس لأصل الى سماء العدل وانما لاقبض على (الحمّام) واعيدها الى تاريخها وأصحابها.

بعد أن حصلت على حكم مبرم باستعادة الحمّام، حملت القرار وذهبت الى (عادل الحمّامي) مغتصب الحمام ومسيّر شؤونها وكنت قد حسبت حساباً للأمر فاصطحبت معي عدداً من الأصدقاء العتاة من أصحاب الاجساد الضخمة والشوارب الكثة الذين يعطون انطباعاً بأنهم من رجالات الاقبية ويشبهون كثيراً

فصائل الموت الذين كانت تعتمدهم محاكم التفتيش في أواخر القرن الحالي.

قانون الايجارات لم يكن يسمح بعودة الحمام.. غير ان المحامي الذي درس القضية قال: الحمام يمكن ان تعود.. فتساءلت كيف.. فقال الرجل.. بالاعتماد على الله وعلى بند وارد في صك الايجار..

--وما هو هذا البند. وصك الايجار أصبح بفعل التقادم والرطوبة، مثل الوثيقة التي أكلتها الدودة.

– انتبه هنا وأخرج المحامي من دُرج طاولته أداة مكبّرة مثل عين الفيل وقربها من الكلام...

فيالي ويال عيني مما شاهدت ورأت. تحت عين المكبره لم أشاهد الكلام وانما شاهدت الحمام برمتها... بنسائها وصحبها، وأجساد النسوة العجيبات فيها.. طفولتي كلها، والفتاة التي أرهقت مراهقتي وروحي. وأدمت مخيلتي... أمي واختاي وبيت النار والبخار العالي، ولم أر الكلام.. كأنما داهمت الرطوبة عين المكبرة فتصاعد الآسى والبخار. بعدها تساءلت وقد احمرّت عيناي.

– عيناي تكبران والمكبرة تكبر لذلك لم استطع القراءة فأوضح لي.

–انظر الى هذا البند، فمن خلاله ستتمكن من استرداد الحمام.

فسألت المحامي عن البند المثبت بالعقد وطبيعة هذا البند ومعناه.

فقال لي المحامي مشكوراً. في العقد بند صريح ينص على منحكم الحمام ليوم واحد كل اسبوع.. وقد منعتم من استخدام هذا الحق مكرهين. ويمكن على ضوء ذلك ان نبدأ العمل بعد أن نحصي عدد الأيام والسنين التي يحق لكم التصرف بها واستعادة ملكية الحمام بسببها.

وعلى ذلك بدأنا.

عندما صدر قرار استعادة الحمام.. حاولت ان يكون ذلك تحت سمع الناس وبصائرهم، فذهبت الى الحمّام، وصعدت على مصطبة الخلع والتبديل

وأخرجت الكتاب وبدأت التلاوة . . ثم نظرت الى (سعيد الحمامي) القاعد قرب الباب عند صندوق الأموال، وصندوق الامانات وقلت له ... ياسعيد ياحمامي . . احمل ثيابك واوساخك وارحل، لقد عادت الحمام اليّ والى نصابي وسلطة يدي ... ثم تلوت الكتاب .

وأعطيت المستأجر مهلة أيام لتسليمي المفتاح .

غير انني وبعد يوم على صدور الحكم، فوجئت بحركة على الادراج، وقرع على الباب، ففتحت وتأملت، كان آل الحمامي صغاراً وكباراً نساء ورجالاً على الباب . . ثم انهمروا عليّ بالصراخ والبكاء .

فتساءلت عن الاسباب، فطالبوا بالرفق والتأجيل .

فنظرت في وجه الحشد بكبرياء وقلت :

وكيف ارفق بكم وقد اغتصبتم حمام أهلي واسرتي فصاحت زوجة الحمامي من قلب الحشد وقالت :

-اغتصاب واحد مقابل اغتصابين .

فنظرت في وجه المرأة دون ان أفهم وسألت :

فقالت زوجة الحمامي : ألم تحاول في مراهقتك ان تغتصب احدى البنات الطاهرات في الحمام .

فتذكرت ودهشت .

- ألم تحاول في كهولتك الآن، أن تغتصب بيت السيدة عدالت بعد ان وعدتها بالاخلاء اذا كبر الاولاد .

عند ذلك شعرت بالريبة والاحمرار فتأمل الرجل ذو السروال الأبيض الجميع : هنالك حلٌ ثانٍ . قال الرجل بانفعال شديد وعيون رطبة .

- قل لنا ماهو، صاح الجميع .

- اذهبوا الى السيدة (عدالت) مالكة البيت الذي اسكنه واقنعوها بتأجيل مطالبتها لي بالاخلاء وبتأجيل أحزان أولادها وغضبهم، وقد ادركتهم الرجولة

والحماقة، واصبحوا امام خيارين قتلي أو قتل مشاعرهم والبقاء في ذمة العنوسة وعدم الانجاب. فان نجحتم في اقناعها بتأجيل استلام البيت فسأقوم انا من طرفي بتأجيل استلام الحمام حتى يكون تأجيل مقابل تأجيل، ولا يكون اغتصاب مقابل اغتصاب.

عند ذلك انبسطت أسارير الحشد، ونهضوا وفي نيتهم ان يطوعوا قلب السيدة عدالت وأولادها لمقتضيات الحال ويحصلوا على موافقتها في التأجيل، وفي حضرتها وفسحة صالتها وأدراج عمارة بيتها المتواضعة عرضوا معضلتهم مع المستأجر صاحب الحمام. عندما سمعتها صاحبة المنزل بكت وبكى اولادها حولها. وكزوا على اسنانهم ليخفوا غضبهم وشهقاتهم بسبب التأثر وضيق المكان. لذلك صرخت زوجة الحمامي صرخة هزّت المكان والاركان: بناتي سأزوجهن لأولادك وسيسكن الجميع معنا على سطح الحمام.

بعد هذا الكلام البليغ من زوجة الحمامي... التفت الشبان الى جهة الفتيات القاعدات في الطرف المقابل، ونهض كل فتى الى الفتاة التي تقابل أخاه وأمسك يدها ونهض الجميع لتفقد الحمام. وهكذا انتهت المعركة الأولى وذيولها دون دماء.

(المعركة الثانية)

عمري على تخوم الستين ومازلت أعزب، وقد وافقت السيدة (عدالت) على تأجيل تركي للبيت. جميعهم ذهبوا وتركوني وحيداً.. اصابعي تعين وحدتي على الرسم وغسل الصحون.. ويكاد الدم أن يفر منها بسبب ولعي الشديد بالتنظيف، أحب الصابون واستسلم لعذوبته، واتمنى كثيراً أن يدخل في تركيب جبلّة الناس وخلاياهم حتى اتمكن من مصافحتهم دون وساوس ومخاوف. وقد صرّحت لبعض المعارف والمقربين برغبتي السريعة بالزواج.. حتى أدخل الى السبعينات بثقة. ولأورث من بعدي ما يمكنه ان يحمل مجدي وسجاياي، لذلك اشترطت في الزوجة العتيدة ان تكون على شيء من الجمال وأصالة المحتد وعلى قليل من البويضات لتتمكن من انجاب وريث واحد. وان

تكون بكراً عواناً، لم يلثم فمها ويألف ضمها سوى امها ... وقد فهم المقربون الاشارة وانطلقوا الى البيوت والحارات بحثاً عن الزوجة المطلوبة . . وبعد تعب وعرق، وجدوا واحدة تقبل، فذهبت لأتفحصها . . وعند المشاهدة الاولى بكيت، لانها ذكرتني بجدتي، بعدها غضبت والقيت على الحاضرين محاضرة عن النشوء والارتقاء، وكيف يتجنس الجنس ويتأسس المقام والمحتد، ثم هرعت الى فضاء الله والامكنة مشيحاً بوجهي عن العالم وسوء الفهم.

الفتاة الثانية التي رشحت للزواج مني، ذكرتني بأمي . . لذلك صرخت في وجوه الناس، لست ولداً، ولا أريد أماً. ولا أباً فأنا مكتف بذاتي ولوحاتي وبذل روحي وأصابعي. وقررت أن أدخل العقد السابع من عمري وحيداً ... حتى لتكاد الجدران أن تعوي نيابة عني.

وهاهو المال يأتيني، والخمام يغلُّ لي ... وأكتب حوليات في هجاء الزمان والخلان وارسم لوحات تشبه اللوحات التي يعلقها الحلاقون في أعالي صالوناتهم لتتأملها العيون الكبيرة والذباب ثم بدأت الأشياء تدق علي ... شيء مثل روح هائمة . . تحضن وحدتي وتقرع الأبواب والجدران علي وقد بذلت الجهد لمعرفة القرع واسبابه ومصادره حتى تمكنت. من أعلى الغرفة عند السقف يأتي القرع المتناوب والطرقات ... ولكن من أين؟ وكيف يمكن تحديد المصادر ... والقرع قوي والروح غائمة ... كنت أسكن في الطابق قبل الأخير وفوق شقتي، شقة وحيدة ... فارغة ... غير مؤجرة . . لكن القرع والأصوات العاتية يأتيان من الاعلى فكيف ... هل تفعلها الأرواح لتغيظني وهل تجرؤ على كائن مثلي ... والأرض والأفلاك والريح والكائنات وجدت جميعاً لراحة نفسي وقد بلغ التحفز والانتباه والمتابعة بي مبلغاً لا احتمله لذلك قررت الصعود للتأكد، عندما وصلت الى باب الشقة الأخيرة وقفت امامها ثم تابعت الصعود الى السطح ... مداخن وهوائيات تلفزيونات وكرات هباب تغطي السطح ... ورياح تعصف بالاشياء الخفيفة، وتداعب الكتل والاجسام الراسخة ثم تنعطف الى آفاقها . . كانت كرات الهباب تتجمع وتتحفز في زاويه قريبة كأنما لتنقض عليّ ... وكدت

أن أطلق نحوها الشتائم وأتهمها بمحاولات الكيد والقرع . . غير أن شيئاً مداهماً حمل كومة الهباب وألقاها علي فرجعت مهرولاً كأنما جوبهت بقذيفة مدفع قديم . . ولكنني مرّة اخرى وقفت امام الباب الذي يعلو بابي- وتجرأت وقرعت الباب . . ووقفت . بعد هنيهة فتح الباب وأطلت من الفتحة المواربة فتاة في السادسة عشرة، ياللآلهة ، وملائكة الصابون، لا يوجد بريق يوازي ذلك الوجه ويضاهي نظافته ولمعانه .

نظرت اليّ ونظرت اليها . .

- ماذا تريد . . سألت .

-عفواً . . لم أتوقع . . كان المنزل فارغاً . . أنا جاركم الساكن تحت بيتكم

- لقد سكنا منذ ايام . . هل تريد من زوجي شيئاً .

-أنت متزوجة؟

- نعم .

- ولكنني اسمع اصواتاً وطرقاً مستمراً يزعجني هل يرتدي زوجك قبقاباً .

- لا . . وأنا ألبس خفاً أرضيته من الاسفنج ولا صوت له .

وانتبهت الى قدميها العذبتين طويلاً وسألت : فمن يتجرأ عليّ اذن .

-عفواً . . لا اعرف . واغلقت الباب . وما قالت هيت لك ، ولا انقضت عليّ ولا على ثوبي من قبل أو دُبر . لذلك نزلت غاضباً عاتباً مجللاً بالخيبة والهباب .

وفي البيت وبعد ان أهويت بالباب على الباب ، وضجت الشقة بالدوي بدأت نوبات عالية من القرع تتردد في رأسي ، لذلك صعدت مرة ثانية ، وطرقت الباب ، وصرخت ، انتم ياآنسة تقرعون الباب بغية اغاظتي وتنغيص عيشي واقلاق راحتي ووحدتي ، انا موسيقى ورسام ، والقرع المستمر يؤثر علي ويشتت اعصابي فلا استطيع ان أبدع شيئاً . . لا أستطيع ابداً . . انت وزوجك تنفذون

مخططا ضدي . . لقد سكنتم البيت منذ اكثر من ثلاثة اشهر ، وانت تقولين بأنك سكنت منذ ثلاثة ايام . . لابد وأنكم انت وزوجك وصاحبة الشقة التي اسكن فيها قد وضعتم خطة لاجلائي عن المنزل والاستئثار به .

– عندما يأتي زوجي حاول ان تتفاهم معه ، واغلقت الباب في وجهي فتطاير الهباب من عيني وروحي ، ونزلت الى الأرض ، دون تفاحة ودون خطايا ودون لعنات . . الغضب من أمامي ، والوحدة والقرع المتناوب من كل جهاتي

– لماذا تغامر الحياة بي فتلقي بالعوانس والغابات المحترقة في وجهي وتلقي بالورود والوعود الى الشقة العالية .

في اللقاء الغاضب الذي تم بيني وبين زوج الصبية الصغيرة ، الزوج الذي يكبرها بعامين أو ثلاثة ، نظرت الى الزوج بأبوة شديدة ، لو أنني تزوجت لكان في عمر اولادي . لكنه صاحب اسرة . . ولديه خطة لاجلائي ، وزوجته آه من زوجته ، لذلك صرخت في وجهه ، أنا موسيقي ، ورسام ، ومثل هذا الضجيج يقتلني ويقتل ابداعي ، والقوانين التي أعادت لي حمامي تستطيع أن تحميني .

– من أي شيء سأل الزوج فزعاً .

– من القرع المنظم ... كأنما تعرفان موعد نومي ويقظتي . . استيقظ في الثانية ليلاً لأسمع القرع . استيقظ في الخامسة ، أسمع قرعاً ماذا أصابكم ألا تنامون . . فكروا بالناس ، بالجيران .

– ولكننا سكنا منذ أيام .

– أي اعتذار لا يفيد إما أن تتوقفوا أو أرفع قضية ضدكم .

بعد أيام من توالي القرع المستمر ... ركضت غاضباً وطرقت باب شقتها فلم يخرج لي أحد ، عاودت الطرق مرات ومرات ، فلم يفتح الباب ، كذلك نزلت وأنا في طريقي الى الشارع شاهدت الزوجة الصبية صاعدة ... ياللآلهه ، وملائكة الصابون . . لايوجد مثل هذا البريق ولا مثل هذه النظافة اذا فهما قد تقاسما الأدوار تخرج الزوجة ويتابع الرجل القرع ، وعندما اطرق عليه الباب

لايفتح . التهمة أصبحت دامغة، والأدلة واضحة، ولا بد من خوض المعركة مرة ثانية، والقضية اقلاق راحة مبدع رجل فكر وفن، يقتله الضجيج ويوقفه عن الابداع لابد وأنه في هامش بعض القوانين عقوبات مشددة لمثل هذه الجرائم المشينة .

– بعد أدراج كثيرة ومداولات ودعوات ... استمر فيها القرع من جهة الزوجين الشابين والعناد من جهتي، ولأنني وقعت القضية باسم الزوجة الصغيرة القاصرة، وشغلت اسرتين معاً بمجريات القضية، فقد اختار الزوجان المضيئان مثل ملائكة الصابون . . الحل الاسرع، وأخليا الشقة لأتفرغ بعد ذلك للموسيقا والرسم ... لكن القرع ظل مستمراً . . وكنت اهرع الى الشقة العالية لأطرق الباب وأحلم بوجهها وأصابع خفيها تفتحان لي الأرض والباب غير أن شيئاً ما لم يكن يستجيب لضرباتي، أيها الباب العاتي . . الباب الرجيم .

– إريد أن اعرف أسباب القرع، ومصادره، هل ترك الجيران شياطينهم لتقلق روحي وتدمر رأسي بدلاً منهم .

بعد ذلك صرت انتبه ... انتبه عميقاً وطويلاً الى القرع ومصدره حتى عرفت . .

كانت الأصوات الوحيدة التي تقلق روحي ووحدتي هي ضربات قلبي واوهامي . لذلك لعنت الحروب جميعها ونابليون والمعارك الطاحنة وتوقفت عن كل شيء .

لكنني لم أتوقف عن عادة ارتداء السراويل الداخلية الطويلة البيضاء والمشي بقامة مشدودة في الممر الطويل، وفي مخيلتي تخفق الرايات والصهيل . وفي طرف ذكرياتي تركض فتاة بخفين اسفنجيين، واصابع قدميها تلتمع بالنظافة والبريق .

❊ ❊ ❊

آفــاق المعرفــة

مسألة التغرب: بحث في الحداثة وما بعد الحداثة

عفاف عبد المعطي

النقد الأدبي فرع معرفي استنبتت جذوره العربية منذ توصل العرب القدماء إلى البلاغة التي خرج عنها النقد الأدبي بصورته الناضجة، وقد مورس استخدام النقد الأدبي - بشكله البلاغي البكر - منذ القرن الرابع الهجري على يد عبد القاهر الجرجاني، ثم تواصل امتداده إلى القرن السابع الهجري على يد حازم القرطاجي.

* عفاف عبد المعطي: أديبة من القطر المصري الشقيق. باحثة في الأدب والنقد الأدبي. من مؤلفاتها: «جماليات النص».

غير أن الجمود الذي أصاب الحضارة العربية الإسلامية خلال القرون التالية التي حكمتها فيها الخلافة العثمانية أصاب النقد مثلما أصاب بقية المجالات، حتى أنه يمكننا القول إن ما نسميه اليوم بالنقد العربي القديم – وإن كنا سنجد الكثيرين من النقاد في مراحل النقد الحديث، يعتمدون على بعض طرق وأذواق القدماء، غير أنهم ليسوا محسوبين ضمن نقدنا الحديث، وليسوا شديدي التأثير في مجراه الرئيسي[١]. أما عن أولى المجريات التي تمّ فيها إدراج ما يعرف بالنقد الأدبي الحديث، فقد تمّ عند أول اتصال للأدب العربي بالثقافة الأوروبية. ومن ثم، فتح رافد عنها، وهو ما قرره طه حسين في مقدمة كتابه في الأدب الجاهلي قائلا «ثمة مذهبان أحدهما مذهب قديم كان يمثله الشيخ المرصفي، حين كان يفسر لتلاميذه في الأزهر ديوان الحماسة لأبي تمام، أو كتاب الكامل للمبرد أو كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وكان ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين في البصرة والكوفة وبغداد .. والآخر مذهب الأوروبيين الذي استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأستاذ نالينو[٢]، بل إن موقف طه حسين نفسه كان متبنى في النقد العربي من قبل الباحثين العرب منذ بدايات القرن العشرين في كتب نقولا فيّاض عن «بلاغة العرب والإفرنج»، وسلامه موسى عن «التجديد في الأدب الإنجليزي الحديث ١٩٠٠»، ومحمد روحي الخالدي «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب ١٩٠٢»، وقسطاكي الحمصي «منهج الوراد في علم الانتقاد ١٩٠٧»، وغيرها من الكتابات التي شغلت مجلتي المقتطف والهلال آنذاك[٣]، كما أنه في مهاد القرن نادى أحمد لطفي السيد بأن

يكون من أعمدة النهضة العربية الحديثة؛ القيام بإنجاز خطط كبرى لنقل منجزات الثقافة الأخرى إلى اللغة العربية، وفي منتصف القرن نبه محمد مندور إلى أن موقفنا الحضاري يدعونا - بقوة - إلى تأسيس وزارة للترجمة. إن هذا الموقف إزاء المنهج الجديد تمثل داخل الكتابات التي ناشدت بوجوده في عدد من العناصر، أولها : الإعجاب بالأدب الأوروبي، وفي مقابله نوع من الازدراء للأدب العربي وبلاغته، كما تمثل - أيضا - في التأثر بالمبادئ النقدية الجديدة التي يعتمد عليها هذا المنهج الجديد، والذي كان أقرب إلى الوضعية في الفكر والرومانتيكية في الفن [٤]، ولاشك أن الوضع السياسي العربي آنذاك قد شارك في تمثل الرغبة في تقليد هذا الأدب الغربي، وتمثّل مبادئه و تبنى المعيار النقدي الذي صاحب هذا الأدب لصهره في نقدنا الأدبي أيضا وعبر ممارسات الآخر الأوربي التي كانت تحقق - في جانبها الاستعماري - مزيجا من القمع المادي والإبهار الذهني في ذات الوقت، سواء كانت هذه الممارسات على أرض الوطن في الداخل أو على أرض الآخر بوساطة المبعوثين. على سبيل المثال بعد خروج الحملة الفرنسية ووصول مبعوثي محمد علي إلى فرنسا، ولعل ثنائية القهر (الرفض) / الانبهار أن تكون الثنائية الأكثر بروزاً في الذهنية العربية منذ ذلك الوقت وحتى الآن، منذ وصف الجبرتي لأفعال الحملة الفرنسية والطهطاوي لمقاهي باريس، وتقديم طه حسين لمنهج ديكارت ونقل الشيوعيين للنموذج السوفييتي، وحتى الرفض المنبهر الذي تمارسه الجماعات الإسلامية للزي الأوروبي والانبهار الرافض للتكنولوجيا الحديثة أيا كان مصدرها [٥].

ولكن هل هذا يعني – فقط – شعور العرب بالأقلية أمام الآخر، ومن ثم ضرورة تبنّي مقولاته ونقلها إلى الثقافة العربية وتأسيس نقدنا العربي بناء عليها، مقابل الانبهار بالأدب الغربي؟ الإجابة – فيما أتصور – لا؛ لأن الآداب الغربية أيضا قد توغلت في الأدب العربي لعدّة اعتبارات ذكرها محمد حسين هيكل في كتابه ثورة الأدب قائلاً «كما أن الثورة العرابية لم تنته إلى اليوم ١٩٣٣، لأنها لم تحقق غاياتها، كذلك لم تنته ثورة الأدب بعد إلى غاية، وكما أدت الثورة العرابية إلى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالاً اتجه بالثورة السياسية إلى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الأولى من الثورة، عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوروبا قبيل الحرب أو خلالها أو في أعقابها ممتلئة صدورهم لإعجابهم بالأدب الكبير الذي قرؤوه، فنقلوا ميدان القديم والجديد إلى الأدب ووجهوه وجهة أخرى...، وقد أعان ثورة الأدب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التي شبّت في إثر الحرب الكبرى، إذ بدأت في مارس ١٩١٩. ألم يكن المصريون يطالبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم، ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء؟ فلتكن مظاهر الفن والأدب مصبوبة عندهم في قوالب غربية، لتكون آية للناس جميعا على تقدمهم، وعلى أنهم يسابقون الغرب إلى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه»[٦]. إن مقولة الأنا في مقابل الآخر منذ مهاد القرن تأخذ مناح شتى لتصب كلها في معين واحد ونشأة واحدة، حيث لا يشعر بها ويضخمها سوى المهزوم حضارياً، الحساس إزاء القوى والمتقدم تكنولوجيا، وللأسف إن هذه المقولة قد برزت أكثر بين أبناء عالم الجنوب أو ما يطلقون عليه العالم الثالث ممن يضمرون عداءً للحضارة الحديثة سواء أعلنوا ذلك أم لم يعلنوه، الآخر هو بالعموم الغرب، ويتناولون هذا الآخر على أنه معتد ساحق، مستعمر، حتى في المسائل الفلسفية والثقافية كان هناك إحساس لدى الشرق بتآمر على العالم الثالث الفقير، وقد بدأت هذه المقولة محدودة الأفق في التراجع منذ خمسة عقود، ومع تصاعد الحوار بين الحضارات والثقافات، وصارت مقولة الأنا/الآخر فيها قدر من الضدية يعاكس مبدأ المحاورة، وبات

الشأن لدى أصحاب الفكر المسؤول، أن وضع الأنا في مواجهة الآخر، كان يتناسب مع ثقافات الاختلاف التي كانت تنهض على الصراع بين العقول والثقافات والنهضة الحضارية، أما اليوم فبات الشأن اليوم لثقافة الاتفاق وصار المشترك اللفظي الثقافي أوسع بكثير في وجوه الالتقاء بين الأنا والآخر أكثر مما يظن، مما جعل البشرية جمعاء (أنا وآخر) تلتفت إلى ضرورة إيجاد نوع ملائم من الحوار المشترك، والتفاعل بين الأنا والآخر، ومن ثم إيجاد بنى ثقافية مشتركة واحترامها، وهنا صار الأنا مدمجاً في الآخر والآخر كذلك متفاعلين. بل إن الثقة المتبادلة بينهما أضحت من ضرورات العصر، حيث أدرك الاثنان أن حسن النوايا ينتج علاقة ليست ضدية، بل صحية وصحيحة. إن شمولية الرؤية هذه المنصبة على الأنا والآخر تفرض علينا عند الخوض في الحديث عنها سعة النظرة، ولكن هذا المقام يفرض علينا هو الآخر تقليص الرؤية للنظر في الوضع الآني للنقد الأدبي في الوطن العربي وإلى أين سار منذ التطلع إلى الآخر في بدايات القرن.

زحف المناهج الغربية:

شهدت مرحلتا الخمسينيات والستينيات من القرن الذي أفل (الخمسينيات والستينيات) سيادة واضحة للمنهج الاجتماعي في النقد الأدبي، والذي سمّي بالواقعية، بل إننا نستطيع الزعم أن المنهج التقليدي الذي سماه محمود أمين العالم بالمنهج البيئي، كان هو الأساس المسيطر على مؤسسات التعليم والبحث العلمي، بالإضافة إلى هذين المنهجين ظهر منهج النقد الأمريكي الجديد على يد رشاد رشدي وتلاميذه، كما ظهرت بعض التوجهات الأسلوبية واللغوية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة عين شمس على يد مصطفى ناصف ولطفي عبد البديع وغيرهما، بالإضافة إلى تأثيرات محددة في الفكر الوجودي والنفسي. وحري بنا أن نعترف أن اللغة العربية في هذه الفترة قد بدأت تنفتح - بشكل موسع - على المناهج النقدية الغربية الحديثة، وقد بلغ هذا الانفتاح ذروته في تمثل البنيوية وما بعدها

بوصفها منهاجا لقراءة الأدب العربي الحديث، كما أصبحت هذه القراءات الأكثر تأثيرا في المنتوج الإبداعي، بل إننا نستطيع أن نلاحظ أنه مع نهاية عقد الستينيات؛ بدأ يحدث التحول الأكبر في هذه المناهج جميعها نحو ما خرج من معينها من المناهج النقدية الجديدة الأكثر حداثة ولكن ضمن أطر ومسميات أخرى مثل البنيوية التوليدية، وذلك في إطار التنوع المنهجي الذي قدمت فيه الأسلوبية والسميوطيقا والمنهج النفسي... حتى الوصول إلى التفكيكية، سواء في نظرية الأدب أو في الأنواع الأدبية ولقد كان للبنيوية هيمنتها الخاصة على طرائق التحليل الأدبي، وذلك نظرا لأنها أولى المجريات التي سيطرت على الطابع المنهجي العربي، لأنها تطرح ميدانا نظريا ثريا يقوم على منطلقات فلسفية ومنهجية غنية، كالماركسية والتحليل النفسي والفلسفة وتمارس البنيوية كحركة فكرية حديثة نسبيا، تأثيرا في عدد من فروع المعرفة المؤسسة أكاديميا كعلم الدلالة والانثولوجيا والنقد الأدبي والتحليل النفسي وبدرجة أقل علم الاجتماع.

وقد لقيت البنيوية الكثير من الاهتمام - كما سبق - من قبل الباحثين والمترجمين الذين ركزوا على الأبعاد الكثيرة التي تمثلها بدءا من جهود ليفي ستروس، أو جهود ما بعد البنيوية post Structuralism برواده؛ رولان بارت - جاك لاكان - ألتوسير - ميشيل فوكو ومن الحداثة Modernism، إلى ما بعد الحداثة Post Modernism، نجد أنهما مفهومان بدأت تلوكهما الألسن و يشكلان أشد القضايا إلحاحا على أدب القرن العشرين وثقافته، ومن ثم يدور حولهما جدل متسع، فهما معا يكونان ظاهرة تميز الثقافة الأنجلوأمريكية والأوروبية - خاصة الفرنسية منها في نهايات القرن العشرين - في المقام الأول، فتتجه الأولى نحو التقادم والانزواء في أركان الحضارة الغربية، إنني أتصور أن الجهود التي تبذل لاطلاع الأدب العربي على جهود النقد الغربي

وصهرها فيه – خاصة في جهود شمال أفريقيا النشطة – ينبغي أن تأخذ طرفاً آخر من البلورة حتى لا تعاني من مشكلة أخرى بات كثرة الحديث عنها يؤرق الدارسين في هذا المجال هي مشكلة أزمة المصطلح التي من الطبيعي أن تنتج في خضم الكم الهائل من الترجمات التي تتم لهذه المناهج سواء في بعض ترجمات الشام (لبنان/سوريا) أو في المغرب العربي، بل إن الكتاب الواحد قد يترجم في بلد بعدة مصطلحات، في حين أنه تترجم في بلد أخرى مصطلحات أخرى لكلمات الكتاب نفسه.

أزمة المصطلح :

ربما كان من الظاهر الجلي للعيان أن محاولة التطلع لمنهج الآخر لابد – بالضرورة – أن تولد بعض البلبلة في استيعاب المترجم – سواء كان مترجماً فقط أو باحث يقوم بالترجمة – للغة المنقول عنها ثم دمجها باستيعاب أيضاً في اللغة المنقول إليها. ومن هنا، تبدو أهمية اتفاق العلماء المشتغلين في الحقول العلمية على إعطاء كلمة ما دلالة جديدة، وأن اتفاقهم هذا يعطي الكلمة معنى جديدا، قد يختلف إلى حد ما عن المعنى المعجمي، ويكسبها دلالة جديدة قد تختلف عن الدلالة اللغوية المتعارف عليها سابقا، مما يفيد أنه لابد في كل مصطلح من تجاوز المعنى اللغوي، والخروج منه إلى معنى خاص يناسب المفهوم الذي يعبر عنه في مجال اختصاص معيّن ليكون مصطلحا إن إشكالية المصطلح تعدّ من أعقد إشكاليات العصر، ويعتبر سببها الأول هو بلبلة الثورة المنهجية التي أغرقت أذهان الأمة العربية بفيض من المصطلحات قد لا يكون للمتلقي قبلاً بها – مختلف أشكاله ومستوياته – من حيث استقبالها وفرزها وهضمها، وطالما أنه لا توجد ضوابط للمصطلح باستثناء ما تقرره مجامع اللغة العربية، والذي يبقى محدود الانتشار، فقد تجرأ الكثيرون على اقتحام مجال المصطلح والاجتراح فيه، مما خلّق لبساً وتعمية وتناقضاً وغموضاً ليس من السهل تجاوزه مما يحدث خللا وتضاربا في فهم الجمل وقصور في فهم الخلفية التي تنطلق منها

المقولات والنسق الذي تنتمي إليه الجزئيات، والسياق الذي تنبع منه النظريات، وتجيب عن أسئلة سواء كان سياقاً ثقافياً أو سياسياً أو اجتماعيا، وكل هذا أوقع القارئ العربي الذي لا يجيد الاطلاع على اللغات الأصلية المنقول عنها والذي أخذته الدهشة والانبهار في حالة من الصنمية إزاء المقدّم من هنا ومن هناك، وراح يردده في المنتديات الأدبية. ومن هنا يصبح بالفعل هناك عائق في تلقي المنهج الغربي بوساطة الترجمة، نظراً لتفاقم مشكلة المصطلح الذي يزج ببعضه زجاً سواء وافق ذلك السياق الاجتماعي الذي يدخل فيه أو خالفه.

إن ما أريد توضيحه هو أن الناقد العربي الممتحن على الحقيقة لابد له من أن يحدد موقعه على خارطة الثقافة المعاصرة، ولن يتأتى له هذا إلا بإضافات حقيقية تقدم للعالم التشكيلات الجمالية للغة العربية وذلك بالتوغل في اللغة لان ثقافتنا العربية جزء لا يتجزء من ثقافة العالم وحملها إلى العالم يحتاج إلى جهد حقيقي لتقديمه في صورته الرصينة الحقيقية بدلاً من الزيف الذي يمكن أن يصور الأدب العربي في صورة ما يريد، كما أن مشكلة وفود المناهج الغربية إلى الأدب العربي ينبغي أن يوضع لها - بتضافر الجهود - حدّ يقدم منها مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع، تعتمد على أسس نظرية ملائمة أو غير متناقضة، أي أن شرطا التناسب والتناسق من أهم الدواعي التي تجعل تطبيق هذه المناهج أمراً طبيعياً بدلاً من التطبيقات التي تتم - في أكثرها - عن عدم فهم للأصول النظرية للمنهج والأدوات الإجرائية التي يجب تطبيقها على الموضوع المدروس، مما يحدث خللاً كبيراً في التطبيق نظرا لعدم تماسك المنهج الذي يدرس به العمل الأدبي وكذلك عدم امتلاك الناقد لأزمته وهي إشكالية واضحة في مجال التطبيقات العربية يحتاج الحديث عنها لجهد إحصائي كبير، لتقديم بعض النماذج الفعلية الكاشفة عن عدم هضم المنهج الغربي قبل تطبيقه وهو ما يحتاج إلى مقام آخر.

الهوامش

١- سيد البحراوي، التبعية الثقافية، بحوث ندوة مركز البحوث العربية بالقاهرة، ط١، ١٩٩٩، دار الأمين للطبع والنشر، القاهرة، ص٣٢٧- ٣٤٣.

٢- طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف المصرية، ط١٠، ١٩٦٩.

٣- يراجع عن التجديد في هذه المرحلة، ماهر حسن فهمي، حركة البعث في الشعر العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١، ص ص ١٧٧-٢٠٤. وعز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة ط٢، ١٩٧٠، ص ص ١٧- ٢٠.

٤- محمد حسين هيكل، ثورة الأدب، دار المعارف، ط ١، ١٩٣٣، ص ص ٨-٩.

٥- غزي عبد الرحمن، ما بعد البنيوية والمعالم الثقافية العربية، الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، كانون الأول، ديسمبر ١٩٩٢، ط١، كذلك نشر هذا البحث في دورية المستقبل العربي، السنة ١١، العدد ١١٨، ديسمبر ١٩٨٨، ص ص ٣٧- ٤٩.

٦- ينبغي العودة إلى عدة كتب رجعنا إليها :

- البنيوية وما بعدها، من ليفي شتروس إلى دريدا، سلسلة عالم المعرفة، جون ستروك، ت: محمد عصفور، عدد ٢٠٦، ١٩٩٦.
- عصر البنيوية، اديث كرزويل، ت: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، ط ١، ١٩٩٣.
- الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية،، ط ١، ديسمبر ١٩٩٢ .
- نقد استجابة القارئ (من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية)، تحرير جين ب تومبكنز، ت : محمد جواد حسن الموسوي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٩.
- شعرية التأليف (بنية النص الفني)، بوريس اوسبنسكي، ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٩.
- الابتلاء بالتغرب ـ جلال آل أحمد، ت: إبراهيم الدسوقي شتا، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٩.
- من الكتب التي ذكرنا أنها تم ترجمتها مرتين، مدخل لجامع النص، وكانت آخر ترجمة له بعنوان مدخل إلى النص الجامع، جيرار جينت، ت : عبد العزيز شابيل، مراجعة حمادي صمود، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٩.
- برهان غليون، الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢.
- الفكر العربي اشكالية التواصل وسبله في مجتمعات متباينة، معهد الانماء العربي، بيروت، ع ٩٥، سنة ٢٠.
- الحداثة وما بعد الحداثة، اعداد وتقديم : بيتر بروكر، ت : عبد الوهاب علوب، مراجعة : جابر عصفور منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٩٩٥.

البيئة والأمن الغذائي

الدكتور طاهر سلوم *

مقدمة:

إن العلاقة بين النظام البيئي وظاهرة الأمن الغذائي أبدية أزلية إلى درجة لا يمكن تصور غياب هذه العلاقة مع وجود نظام الحياة البشرية، والسكان محور هذه العلاقة. وخلل أوسلبية هذه العلاقة يؤدي إلى خلل في نظام الحياة البشرية.

* الدكتور طاهر سلوم: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الاقتصادية والاجتماعية.

حيث أن الحالات المرضية المتكاثرة التي تصيب البيئة الإنسانية، من مثل أزمة تلوث البيئة، ترجع إلى العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة، والتي أفسدتها بعض أنماط السلوك البشرية غير الرشيدة، كما تعود أسباب الأزمة إلى عوامل علمية ومنهجية.

إن محاولة الإنسان تأمين غذائه من الطبيعة بأسلوب عدم المبالاة بنظام الطبيعة، وبمفهوم أخلاقي خاطىء للعلاقات السائدة بين الإنسان والطبيعة، مثّل الجانب السلبي في سلوك الإنسان تجاه البيئة، حيث كان دور الإنسان في الواقع الطبيعي قد تحوّل متنقلاً من حالة الاندماج الكلي بالطبيعية إلى حالة من السيطرة المطلقة عليها [١]، وفي علاقة عكسية منطلقها أثر النظام البيئي في تشكيل ظاهرة الأمن الغذائي، يحكمها توافر موارد البيئة وسلامتها، من الناحية الكمية والنوعية. هل هي كافية كي تؤمن متطلبات البشرية وأعدادها المتزايدة، هل هي سهلة المنال، هل أسيء إلى استخدامها أساساً من قبل الإنسان في علاقاته السابقة فجعلها غير صالحة، حيث ولدّت مواقف الإنسان الانتفاعية الجائرة على الأوساط الطبيعية، علاقات نزاع بين الأراضي والنباتات والحيوانات من جهة والإنسان من جهة أخرى. ولم تتوقف حالة النزاع هذه عند العلاقة السائدة بين الطبيعة والمجتمع، بل تعدتها إلى العلاقات التي تربط الدول المتقدمة بالدول النامية وإلى العلاقات السائدة بين علم الاقتصاد وعلم البيئة وبين العلم والتقنيات، وبين الكم والنوع.
لكن جانباً كبيراً من أسباب تدهور علاقة الإنسان مع البيئة يعود إلى تجاهل (النظام البيئي) ويرجع ذلك إلى المدرسة «الوضعية الاختبارية» التي بدأت في القرن التاسع عشر دون إدراك العلاقات والتفاعلات البيئوية على وجه شامل وصحيح (للبيئة) وبالرغم من أن منهجيتها العلمية الاختبارية قد أدت إلى التقدم العلمي والتقني والصناعي، إذ وفرت الغذاء للبشر بكميات كبيرة

عبر استصلاح الأراضي واستخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية، إلا أن حجم التقانة ونوعيتها التي تدخلت في الوسط البيئي تجاوزت الطاقة القصوى لسير عملية التسوية الطبيعية للبيئة، فنتج عنها هذا الخلل في التوازن البيئي من خلال: (التلوث، والضجيج، والإشعاعات النووية، والعنف المدني، وتدهور البيئة الإنسانية بانحطاط القيم) [٢] إن إدراك المأساة لا يمكن أن يتم دون إدراك التفاعلات التي يمكن أن تحدث بين مختلف مكونات البيئة، والتي تحدث بطريقة مستمرة بين الغلاف المائي والجوي واليابسة والغطاء النباتي والكائنات الحية الحيوانية والإنسانية من جهة، وبين الغلاف الحيوي والمنظومات البيئية من جهة أخرى.

مفهوم الأمن الغذائي:

ما يزال الإنسان يسعى جاهداً لتأمين ما يحتاجه من غذاء متوازن، وبشكل دائم، يتناسب مع تنامي زيادة الطلب على مختلف أنواع الأغذية، نتيجة التطور الحضاري والثقافي والعلمي، الذي تحرزه المجتمعات البشرية واختلاف الظروف البيئية المحيطة بالإنسان. لقد كافح وناضل لمواجهة المواسم والظروف الطبيعية غير المناسبة مثل عوامل القحط والحشرات والأمراض النباتية والحيوانية، والفيضانات والسيول وتباين الإنتاج من سنة لأخرى مما كان يسبب له الجوع وقلة إنتاج الغذاء اللازم لاستمرار حياته، والذي قاده إلى زراعة الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي. ولقد تطور مفهوم الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي حتى أصبح يعني. (**ضمان حصول كل الأفراد وفي كل الأوقات على كفايتهم من الغذاء كي يعيشوا حياة نشطة موفورة الصحة عن طريق توفير إمدادات غذائية مستقرة تكون متاحة مادياً واقتصادياً للجميع**) ولا يتحقق الأمن الغذائي المنشود إلا من خلال قاعدة واسعة من التدابير والاجراءات والسياسات التي من شأنها:

١ - الاستخدام والاستثمار الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية والمادية المتاحة..

٢- تطوير التشريعات الناظمة لمختلف المراحل التي يمر بها الإنتاج الغذائي وتحسينها ليصل إلى المستهلك وفق أفضل الشروط المرغوبة من خلال مختلف الأقنية والمسالك التسويقية القائمة [٣] وبذلك لن يكون هناك حديث عن الأمن الغذائي دون الحديث عن موارد البيئة الطبيعية للغذاء، وخصائص عملية الانتاج الغذائي وتطورها بما يتوافق وتنامي الطلب على مختلف أنواع السلع الغذائية.

خصائص التأثير المتبادل بين الحاجة السكانية للغذاء والبيئة:

ينعكس عن ظاهرة النمو السكاني المتسارعة المزيد من الحاجات الغذائية، ويزداد الأمر خطورة إذا كان منحى حركة النمو السكاني يقود إلى استنزاف موارد طبيعية غير متجددة (الطاقة والغذاء) أو يعكس اتجاهه نحو تنمية البيئات والمناطق الريفية والزراعية واستثمار موارد المياه. في هذه الحالة فإن الأثر السلبي يتضاعف نتيجة ما يحدثه هذا النمو من خلل في التوازن البيئي، وتنقلب الظاهرة السكانية إلى مشكلة سكانية ينبغي معالجة أسبابها وتوفير الموارد الطبيعية والبشرية وإزالة أسباب هذا الخلل في التوازن البيئي وذلك مع تأمين الحاجات الغذائية، والذي يجعل حركة النمو السكاني واتجاهاتها في صالح الاستمرارية الطبيعية لهذا النمو دون أن تصل إلى ولادة مشكلة سكانية خطيرة. إذا يقوم الإنسان لدى رغبته في زيادة الإنتاج الغذائي، بأعمال ذات نتائج سلبية وأخرى إيجابية. فإذا أفضت التأثيرات الإيجابية إلى تحسين حياتنا، فإن التأثيرات السلبية ستزداد سريعاً بحيث نواجه عواقب خطرة يصعب علينا تخطيها أو تعديلها.

الأساليب التي اعتمدها الإنسان لرفع الإنتاج الغذائي، وتأمين الأمن الغذائي:

أولاً – زيادة الإنتاج في المناطق المزروعة (زراعة ثقيلة): عبر الأساليب التقنية التالية:

آ- استخدام نظام الري وتطوير النظام القديم: لقد لعب الري الذي يمارس منذ مئات السنين دوراً مهماً في زيادة الثروات الغذائية بأتاحة بسط المزروعات الغذائية على مساحات واسعة من الأراضي التي كانت ستبقى بلا استغلال لولا ذلك الري، وساعدت أنظمة الري الحديثة الناجمة عن بناء السدود في خلق استقرار نسبي في الإنتاج الغذائي بديلاً عن تقلبات المواسم المطرية أو التي تعتمد على مياه الأمطار أو ما تقدمه فيضانات الأنهار، وهذا ما أسهم في الأمن الغذائي.

لقد أدت الزيادة في عدد سكان العالم إلى تشجيع الاستثمارات الهائلة في مجال الري من أجل تأمين الغذاء، حيث تضاعفت مساحة الأراضي المعتمدة على الري خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٠٠ وعام ١٩٥٠، ثم تضاعفت مرتين ونصف منذ ذلك الحين، إلى أن بلغ مجموع المساحة المروية نحو ٢٥٠ مليون هكتار في جميع أنحاء العالم النامي حيث النمو السكاني الأكبر، وحيث تتعرض موارد المياه لتقلبات موسمية واقليمية واسعة في أغلب الأحيان، حتى إن بعض الدول كالصين ومصر والهند وإندونيسيا وبيرو تعتمد في الوقت الحاضر على الأراضي المروية كي توفر نصف إنتاجها الغذائي المحلي. لكن المياه العذبة مورد محدود بصورة مطلقة، وبسبب ذلك فإن أي زيادة في السكان تؤدي إلى انخفاض نصيب الفرد منها.

ووفقاً لعالم الماء السويدي مالين فولكنمارك: يعد بلد ما في حالة شح

المياه حين ينخفض نصيب الفرد إلى ألف متر مكعب في العام. وهذا لا يعني أن الناس سيموتون عطشاً ولكنه يعني أن شح المياه سيجعل الاختيار صعباً بين الزراعة والصناعة والصحة الشخصية والملاءمة. وقد يتم تقنين المياه وقطع إمداداتها بصورة منظمة أيضاً[٤] وتعد البلدان التي يقل فيها نصيب الفرد من إمدادات المياه عن ١٧٠٠ متر مكعب في السنة في حالة إجهاد مائي. ويمكن أن تترتب عن ذلك الحاجة إلى نقل المياه لمسافات طويلة وإعادة استعمال مياه الفضلات المعالجة أو الإمدادات في فترات الجفاف، وفرض حظر على استعمال خراطيم المياه في مناطق عديدة وأدى النمو السكاني إلى زيادة واسعة النطاق في أعداد الناس الذين يتأثرون بنقص المياه، ففي عام ١٩٩٠ بلغ عدد البلدان التي كانت في حالة إجهاد مائي أو شح المياه ٢٨ بلداً يبلغ مجموع عدد سكانها ٣٣٨ مليون نسمة[٥] وسيرتفع عدد البلدان المتأثرة على أساس الإسقاط المتوسط الذي وضعته شعبة السكان التابعة للأمم المتحدة، ارتفاعاً حاداً ليصل إلى ٥٠ بلداً يبلغ عدد سكانها ٣,٣٢ ملايين نسمة عام ٢٠٢٥، وسيصل عدد هذه البلدان، بحلول عام ٢٠٥٠ إلى ما لا يقل عن ٥٨ بلداً يبلغ عدد سكانها ٣٩٠٤ ملايين نسمة. وفي عدد من البلدان الأفريقية ستتحول حالة المياه من الوفرة إلى الشح الشديد إبان نصف القرن المقبل وفي عام ١٩٩٠ بلغ نصيب الفرد في نيجيريا ٢٢٠٠ متر مكعب ولكنه سينخفض بحلول عام ٢٠٥٠ ليبلغ ٩١٠ متراً مكعباً على أساس الإسقاط السكاني المتوسط. وستجد بلداً مثل الصومال وكينيا ورواندي وملاوي تنتهي إلى حالات من شح المياه الشديد أشبه بتلك الحالات التي تواجهها بلدان مثل الأردن اليوم بحيث يقل نصيب الفرد فيها من إمدادات المياه عن ٣٠٠ متر مكعب. وعلى صعيد الوطن العربي عام ١٩٩٥ فإن ١٢ اثنتي عشرة دولة عربية يبلغ نصيب الفرد فيها من المياه أقل من ألف متر

مكعب أي في حالة شح منها سورية (٣٨٥م^3)، ويبلغ أقل من ٢٠٠٠ متر مكعب في ثمانية دول أي في حالة إجهاد، ولا تتجاوز حصة الفرد السنوية ٢٠٠٠م^3 إلا في دولتين هما العراق والسودان [٦]، والخطر الكبير على الأمن الغذائي من مشكلات المياه في الوطن العربي فيما يتعلق بالأنهار العابرة (الفرات، دجلة، النيل) مع دول الشراكة والتي لا توجد قوانين دولية ناظمة لهذه الشراكة مما يجعل مشاريع الري المقامة عليها في خطر التغذية المائية التي تهدد استمرار الإمدادات المائية لري هذه الأراضي وتجعل الإنتاج الغذائي في خطر التقلبات السياسية.

ويترتب عن أعمال الري مشكلات على البيئة منها:

١- انخفاض مستوى المياه الجوفية نتيجة لاستغلال المياه الجوفية لاستخدامها في ري الأراضي، وانخفاض مستويات المياه في الآبار، وجفاف الينابيع والجداول المحلية، وعلى سبيل المثال المشروع الطموح الذي تبنته الحكومة السعودية بغية تخضير الصحراء بوساطة المياه الجوفية من أجل تنويع مواردها الاقتصادية واستثمار عائداتها النفطية. لقد أسفرت أموال الدعم الهائلة وكميات المياه الضخمة التي استخرجت من باطن الأرض من مضاعفة المساحة المروية من الأرض عشرين مرة في عام ١٩٨٨ قياساً إليها في عام ١٩٧٥. كما تضاعف إنتاجها من القمح نحو ألف مرة عما سبق وغدت السعودية اليوم، وعلى نحو مذهل واحدة من الدول التي تنتج ما يفيض عن احتياجاتها من القمح والبيض ومنتجات الألبان. ولكن الماء لا يتجدد في الطبقات الصخرية التي تراكمت عبر آلاف السنين. لقد انخفض احتياطي السعودية من هذه المياه بمقدار الخمس، فيما تشير إحدى التقديرات إلى أن هذه المياه قد تنفد تماماً بحلول عام ٢٠٠٧ [٧]، وأدت الآبار التي حفرها الفلاحون في منطقة السلمية في سورية إلى جفاف الينابيع،

وانخفاض المياه الجوفية. وتهديد المنطقة بالعطش، ويتكرر الأمر نفسه بالآبار التي حفرت في حوضة دمشق.

ويمكن مقارنة نضوب المياه الجوفية العربية بما يحدث الآن لمياه (أوجا لا لا) الجوفية التي تمتد من تكساس إلى داكوتا الجنوبية وتغذي خمس الأراضي الزراعية الأمريكية، لقد دفع هذا النضوب الكثير من المزارعين للتوقف عن ري أراضيهم، فيما عادت أجزاء من الريف الأمريكي القهقر، إلى المرحلة التي سبقت استخدام الضخ في الري، الأمر الذي يثير أسئلة خطيرة حيال مستقبل الاقتصاد الزراعي لهذه المنطقة[٧].

٢- تمخضت المشروعات الضخمة الرامية إلى تحويل التدفق الطبيعي للمياه عن مشكلات أخرى، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الجهد الذي بذله السوفييت سابقاً لتعزيز الإنتاج الزراعي في جمهوريات آسيا الوسطى عن طريق تحويل مجرى مياه النهرين العظيمين (آموداريا - وسيرداريا) اللذين يصبان في مجرى الآرال، ولكن النتائج على ذلك كانت واضحة للغاية، فقد أصبحت تلك المنطقة موئلاً لزراعة معظم المحاصيل السوفيتية من القطن والأرز والفواكه والخضراوات غير أن البيئة الجافة تحتاج إلى ري، وبعد ثلاثين عاماً انخفض منسوب المياه في بحر الآرال بمقدار أربعة عشر متراً وانكمشت مساحته من (٦٧) ألف كم٢ إلى (٤٠) كم٢، أي أنه فقد أربعين بالمائة من مساحته و٦٠٪ من حجمه. وتضاعفت فيه نسبة التركيزات المعدنية وبخاصة الملح ثلاث مرات مما أهلك جميع أنواع الحياة البحرية فيه، وهاهي ذي الأرض التي انحسرت عنها المياه تنبسط أمامنا اليوم صحراء شاسعة من الملح، تقع في وسطها بصورة كئيبة مدينتان كانتا ساحليتين يوماً ما، هما آرالسيك ومونياك[٩] ومن أمثلته نتائج تحويل مياه نهري قويق والساجور من قبل تركية عن واديه في الأراضي السورية وما آل إليه وضع واديه في سورية بعد جفاف مياهه، والإساءة إلى بيئته النباتية.

٣- أسهمت زيادة الري في زيادة نسبة الملوحة في الأرض، إذ يتم تحويل كمية هائلة سنوياً من مياه الأنهار والجداول لري المحاصيل، وتقدر هذه الكمية بستة أضعاف المياه المتدفقة من نهر المسيسبي سنوياً، وقد تمخض عن ذلك بمرور الزمن وجود أراض ملحية مشبعة بالمياه. ولما كانت المياه جميعها تحوي تركزات ملحية، فإن الري المفرط الذي يتعرض له حقل ما على مدى عام كامل سيؤدي إلى زيادة كبيرة في نسبة الأملاح الموجودة في كل هكتار من ذلك الحقل، وتشير التقديرات إلى أن ما يقرب من ٢٠ مليون هيكتار في الهند (٣٦٪ من مجمل الأراضي المروية) قد تراجعت في إنتاجها بسبب الملوحة، فيما أحال الملح سبعة هيكتارات أخرى أرضاً يباباً. وهكذا أسفرت الطريقة التي كانت أصلاً وسيلة لزيادة المحاصيل عن نتيجة مغايرة إلى حد بعيد[١٠] وسببت عمليات الري في وادي الفرات في سورية إلى تملح التربة مما ترتب عليه ضرب المحاصيل الزراعية وتطلب الأمر مبالغ طائلة لغسل التربة وتأمين قنوات تصريف للماء الزائد، وحصل الأمر نفسه في الجزائر وتونس، والأردن.

٤- ارتفع مستوى الحقول المائية الجوفية من جراء خلل نظام تصريف المياه وقد يرتفع الحقل المائي الجوفي بضعة سنتمترات فوق سطح التراب بفعل ازدياد المياه الجوفية، وهذه الظاهرة لا تعيق فقط نمو البذور في تربة مشبعة، بل تسبب ارتفاعاً في ملوحة الطبقات السطحية بحيث تتبخر المياه تاركة وراءها كثيراً من الملوحة الكثيفة، وهذا ما حدث في غربي باكستان بعد قرن من ري السهول والأراضي الخصبة بمياه نهر الهندوس، ولقد لوحظ تكرر هذه الظاهرة خلال التاريخ في مناطق مختلفة من العالم[١١].

كل هذه المشكلات البيئية الناجمة عن الإهمال والإسراف في استخدام المياه في الري، لتأمين الري الدائم والثابت لأراضي هذه البلدان،

بغرض الوصول إلى زمن غذائي فيها، جعل الحركات (الخضراء) المدركة لأوضاع البيئة تبذل الجهود للحفاظ على البيئة، ولكن تبقى شعوب هذه البلدان هي صاحبة المصلحة في الحفاظ على بيئاتها، وينبغي أن يخلق الوعي لديهم وعدم تركهم وشأنهم.

ب- **استخدام الأسمدة**: أدى استخدامها إلى استهلاك التربة، وتلوث المياه، والتأثير في النباتات والحيوانات والإنسان، إن استخدام الأسمدة الكيميائية على نطاق واسع لم ينشر قبل هذا القرن، وقد اضطر المزارعون إلى استخدامها بسبب ازدياد الطلب على المواد الغذائية الذي أثاره الضغط السكاني وقلة الأراضي العذراء الجديدة، وقد أثبتت التجربة أن الأسمدة والمياه التي يتم استخدامها مع أشياء أخرى مساعدة، وبشكل دقيق تبعاً لأساليب ملائمة، ترفع قدرة الأراضي الزراعية للإنتاج أربعة أضعاف.

ولئن أفاد الإنسان حين أمن استخدام الأسمدة فقد ترك ذلك بعض التأثيرات الثانوية. وثمة خطران أساسيان لذوبان المخصبات الكيميائية في الأنهار والبحيرات والحقول المائية والجوفية:

١- التلوث الكيميائي لمياه الشرب، علماً أن معدل مادة الآزوت في مياه الينابيع في بعض المناطق بلغ درجة التسمم.

٢- الطحلبة، وهذا خطر أهم من الأول، فكميات الآزوت والفوسفات المنسكبة في أقنية المياه التي تسبب ظاهرة الطحلبة، أي النمو السريع والعشوائي للطحالب عن طريق ما تحمله هذه المواد الغذائية، يؤدي إلى انعدام الأوكسجين من المياه وهكذا تموت الأسماك، وتتحول البحيرات تدريجاً إلى مستنقعات. وبينت تقارير وزارة الزراعة ومنظمات الفلاحين في سورية، حجم هذه المشكلة وضمت برامج الإرشاد الزراعي مراقبة ذلك.

ج- استخدام المكننة: إن استخدام المكننة أدى إلى تعرية التربة وتلوثها وعقمها، وقام الإنسان بهذا الإجراء من أجل زيادة الإنتاج الغذائي عبر طرائق جديدة في زراعة الأرض، لقد أسهمت المكننة في تهيئة مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وأتاح استبدال الحيوان بالآلة تسريع العملية

السنوية لتعاقب المزروعات. إن أساليب الزراعة القديمة كانت تسبب أضراراً قليلة جداً للأراضي، فالجرار بات يحرث بسهولة الكثير من الهكتارات ساحباً وراءه بضع سكك تشق في التربة أخاديد عميقة، في زمن قليل، ولكن إذا كان ارتفاع إنتاج بعض المواد الغذائية يعود إلى الآلات الزراعية الحديثة، فإن هذه الآلات تتحمل بعض المسؤولية عن تعرية التربة، فالأرض التي تقلبها عميقاً لتجعل من التراب حبات صغيرة تصير لقمة سائغة للرياح والمياه الجارية، وهذا ما لحق بأراضي البادية التي حرثت وبعض أراضي الجزيرة السورية أيضاً، يضاف إلى ذلك أن الآلات تلوث الجو بالدخان الذي يخلفه وراءها، كما أن التعاقب السريع للمزروعات في أرض واحدة وخلال فترات زمنية متقاربة بسبب الاستنفاد السريع لخصوبة التربة، لذلك يجب تعويض هذه الأضرار.

د- استخدام مبيدات الطفيليات وحشرات الأعشاب: أدى إلى تلوث البيئة والتأثير في النباتات والحيوانات وكذلك الإنسان: إن أكبر نجاح حققه إنسان القرن العشرين كان في مجال كفاحه ضد الأعشاب الضارة والحشرات التي تهدد محصولاته، وأسهمت في تأمين حاجاته من الغذاء وتأمين الأمن الغذائي لفترة من الزمن. لكن هذا النجاح كان له آثاره السلبية على الإنسان نفسه، وعلى بيئته فقد أثرت في التوازن الأيكولوجي، حيث أدى الاستخدام الدائم للمبيدات الكيميائية وعلى مر السنين إلى خطر أساسه زيادة تركيزها، الذي يهدد النمو الطبيعي باستمرار. فلقد تم العثور على ال الـ د. د. ت. في أنسجة حيوانات كثيرة على سطح الكرة الأرضية، واللواحم معرضة لهذا الخطر بشكل خاص لأنها تتغذى بالعواشب التي كدست هي الأخرى كميات كبيرة من ال د. د. ت. الآتي عن طريق النباتات التي أكلتها العواشب.

وقد أصبح ضرورياً في الزراعة المختصة بمحصول واحد، أن ترش الطفيليات والأعشاب الضارة على فترات متقاربة وحين يتم رش هذه

المبيدات بالطائرة، فإن تلوث البيئة يكون كثيراً ويسبب أضرار فادحة للأنواع الأخرى التي تؤدي دوراً حيوياً في الحفاظ على التوازن الطبيعي(١٢).

٥- استخدام الهرمونات أو المخصبات الهرمونية: استعملها الإنسان بقصد زيادة الانتاج بما يكفي الطلب على الغذاء من السكان، أو نوع من القدرة على التحكم في المنتج الغذائي الحيواني والنباتي بصرف النظر عن الأضرار التي يمكن أن تحملها هذه الهرمونات على الإنسان والبيئة، وما زال العديد من آثارها غير مضبوط بدقة، ومن أمثلتها الهرمونات التي تقدم للدجاج أو لتسمين الأغنام والبقر وهي مصادر اللحوم والحليب والهرمونات التي تعطى للخضار والفواكه، والتي أثبتت التقارير الطبية أن الكميات الزائدة لها تأثير صحي واضح في الإنسان وليست الأمراض التي وصلت إلى البقر في بريطانيا إلا نتيجة لها.

و- الزراعة الكثيفة عبر البيوت البلاستيكية: أسهمت حالة البيوت الزجاجية الزراعية مع الأنشطة الاقتصادية في زيادة خطيرة في الدفء الكوني، ترتب عليها نتائج على مجمل النظام البيئي للأرض، الأمر الذي يحذر اليوم خبراء البيئة المهتمون مما قد يشكل التهديد الأخطر على المدى البعيد، إذ ينعكس التسخين على كل شيء، ويظهر الأثر السلبي المحتمل منه على طبقة الأوزون بشكل واضح الآن.

ز- الرعي المفرط والجائر: الذي أدى إلى التصحر، حيث تحولت البوادي وخاصة في المناطق المعتدلة الدافئة والحارة إلى صحارى، وهذا ما عرف بظاهرة التصحر، مما حدا بالحكومة السورية إلى حماية البادية، وتنظيم الرعي وتأمين مصدر علفي دائم للأغنام والمواشي، من أجل الوصول إلى أمن غذائي بعيداً عن تقلبات المناخ وتهديد الثروة الحيوانية أو تهديد البادية بالتصحر.

ح- لابد من الإشارة إلى أن أعداد رؤوس الماشية في العالم تبلغ ١,٣ بليون رأس وهذه تسهم بنسبة ١ في المائة سنوياً في تركيز غاز الميثان في العالم، وهذا إسهام كبير في أثر الدفيئة(١٣).

ثانياً: استصلاح أراض جديدة (زراعة خفيفة): عبر قطع الأشجار

والغابات تم استصلاح مساحات واسعة من الغابات لجعل التربة جاهزة للزراعة دون النظر إلى الغابات على أنها تلعب دوراً مهماً في التوازن بين الكائنات الحية، إذ تولد الأوكسجين، وعندما تتفكك المواد النباتية تعيد تكوين التربة بتغذيتها، إن الفائدة الأساسية للغابات تكمن في أنها تحافظ على رطوبة التربة وتمنع الفيضانات وبالتالي السيول، ويسبب قطع الأشجار خسارة فادحة في التربة الصالحة لزراعة الأشجار، وربما بلغت هذه الخسائر ٢٥٠ طناً في الهكتار الواحد سنوياً في بعض المناطق الكثيرة الأودية وخصوصاً الاستوائية. لقد قضي على قسم كبير من الحيوانات والنباتات البرية عندما استغل الإنسان السهول وأقدم على الغابات يقطعها كي يشغل بعض الأراضي الجديدة، وهكذا اختفت أنواع عدة من الحيوانات إثر التدمير المتوالي الذي قام به الإنسان، وهناك أنواع أخرى في طريقها إلى الانقراض ما لم نحافظ على الحيوانات والنباتات البرية، وأينما ذهب الإنسان بفأسه ومحراثه، فهو يقطع الصلة القائمة بين الحيوانات والنباتات تلك الصلة التي تضمن توازناً بين جميع الكائنات الحية [١٤] وتشير التقديرات إلى أن العالم قد خسر منذ نصف قرن فقط قرابة خمس التربة السطحية من الأرض الصالحة للزراعة، وخمس غابات المطر الاستوائية، ونحو عشرة آلاف نوع من الأجناس النباتية والحيوانية [١٥] وأخذت مساحة المراعي في العالم في التقلص من أواسط السبعينات بعد أن غدت بفعل الرعي المفرط صحار مقفرة، كما تقلصت مساحة الأراضي الزراعية. إلا أن الخطورة الكبرى تمثلت في تسارع انحسار غابات المطر بوتائر لم يسبق لها مثيل. فقد أشارت تقديرات عام ١٩٨٠ إلى أن معدل إزالة الغابات في المناطق الاستوائية بلغ نحو ١١,٤ مليون هكتار سنوياً فيما قدرت إحصائية أخرى ذلك المعدل بحوالي ٢٠,٤ مليون هكتار سنوياً أي ما يعادل مساحة بنما، وهي إحصائية تنذر بخطر أشد، ويشكل زوال الغابات الاستوائية ولا سيما في أمريكا اللاتينية (التي تضم أكثر من ٦٠ بالمائة منها) مصدر قلق للمهتمين بشؤون البيئة لأسباب عديدة، أولها أنه يدمر نمط الحياة الذي تعيشه قبائل بريئة

عديدة تستوطن تلك المناطق. كما تضم هذه الغابات أعظم مستودع عالمي على الإطلاق لأنواع مختلفة من النباتات والحيوانات، إن تدمير هذا العدد من التنوع الحيوي من شأنه أن يوجه ضربة شديدة إلى حاجة الإنسان الدائمة لتجديد المحاصيل الإنتاجية المقاومة للافات وتحسينها (١٦)، ومن هنا فإن إزالة الغابات من أجل تأمين الغذاء لملايين المستهلكين الجدد من الضغط السكاني سوف تحد من قدرة الزراعة العالمية على تجديد ذاتها، ناهيك بأن ازالة الغابات تشكل ضربة أخرى لخصب الحيات وسحرها، ويتم ذلك كله بسرعة فائقة، فقد جاء في نداء تحذيري وجهه غابريل غارسيا مركيز ومعه شخصيات مرموقة أخرى في شهر تموز ١٩٩١ إلى رؤساء دول أمريكا اللاتينية، أنه بحلول عام ٢٠٠٠ وربما ستكون ثلاثة أرباع غابات أمريكا الاستوائية قد اجتثت، وانقرض ٥٠٪ من الأنواع البيولوجية المتوافرة فيها، وبذا نكون قد دمرنا في غضون أربعين عاماً ويزيد ما أوجدته الطبيعة على مدى ملايين السنين (١٧).

ولم تكن الغابات في سورية وأقطار المغرب العربي في مأمن من أذى الإنسان والحيوانات التي يربيها على أوراق الأشجار مما أدى إلى انحسار الغابات في سورية من مساحات كبيرة منها، ويضاف إليها في المغرب العربي إشعال الحرائق في الغابات من سود استخدام الفلاحين للغابة مما حدا بالحكومات في هذه الدول لإعادة النظر في سياستها حول الغابات، واتخاذ اجراءات لحماية الغابة ما زالت ليست كافية.

إن جل ما ذكر من إجراءات تقوم بها الهيئات والأفراد والحكومات من أجل تأمين مورد غذائي لهم على صعيد الأفراد والحكومات وليؤمنوا متطلبات النمو السكاني السريع ويوفروا في الوقت نفسه مورداً ثابتاً لهم من أجل تأمين حاجاتهم وفق تقديراتهم.

وإلا أن الأمر الأهم هو خلق توازن بين المحافظة على البيئة وتوفير الأمن الغذائي عبر خلق تشريعات ناظمة لمختلف المراحل التي يمر بها الإنتاج الغذائي وتحسينه ليصل إلى المستهلك وفق أفضل الشروط المرغوبة من خلال

مختلف الأقنية والمسالك التسويقية القائمة وفي كل الظروف، والحفاظ على البيئة وتوازنها من خلال استخدام متوازن لمواردها في الأنتاج وصيانتها وحفظها من التلوث الذي يمكن أن يحصل في مختلف مراحل الإنتاج والاستهلاك. وهذا يتطلب وعياً على مستوى الدولة والأفراد، وهنا يمكن أن نذكر إعلان الحكومة الإندونيسية (بتحويل ٢٠٪ من غاباتها إلى مزارع) من أجل تأمين الحاجات الغذائية لـ ١٧٠ مليون نسمة دون الدراسة الكاملة للنتائج التي يمكن أن تحصل في البيئة الإندونيسية من جراء إزالة هذه الغابات.

لم تكن الإجراءات التي قامت بها الحكومات والأفراد على جانب سلبي دائماً ضد البيئة، كما أسلفنا من أجل الحصول على الغذاء أو توفير الأمن الغذائي، فقد كان للعلاقة مع البيئة آثار إيجابية في جوانب عدة نذكر منها: - بناء السدود وآثرها في تغذية المياه الجوفية، وتعديل المناخ، ومنع كوارث الفيضانات عن البيئة الطبيعية والسكان، ... والأمثلة عن مثل هذه السدود كثيرة في سورية.

- بناء المدرجات وزراعة الأشجار على المنحدرات، وآثارها في حفظ التربة، ومنعكساتها على المناخ ...

- المحافظة على العديد من الحيوانات من الانقراض ... الخ.

وفي الختام لا بد من الاشارة إلى أهمية الإعلام والتربية والقانون والتشريع في تنظيم العلاقة بين البيئة والأمن الغذائي، من أجل خلق الوعي على مستوى الهيئات والأفراد أي خلق الوعي الجماهيري الذي يحافظ على التوازن هذه العلاقة فالفلاح هو الذي يستخدم السماد الكيماوي والمبيدات الحشرية ... وغيرها، من هنا تأتي أهمية أن يعرف تعليمات استخدامها وأخطار التفريط باستخدامها، وهذا يتجلى جانب من دور الاعلام والتربية ودور القانون في ضبط النظام البيئي، وهنا إشارة هامة إلى وجود نقص في القانون البيئي وهذا يتطلب تطوير التشريع البيئي ليقوم بهذا الدور على أكمل وجه.

المراجـــع:

١- مورينو، أنطونيو: "الرؤية الشمولية في مجال التربية البيئية" مجلة رسالة الخليج العربي، العدد ١٦، الرياض، ١٩٨٥، ص٣١٩.

٢- المرجع السابق: ص ٣٢٠.

٣- الحلبي، محمد سعيد: "المسألة السكانية والأمن الغذائي"، محاضرات ودراسات في البيئة والسكان والتنمية، مجلس الشعب، دمشق، ١٩٩٦م، ص ١٧٢.

٤- صندوق الأمم المتحدة للسكان: حالة السكان والتنمية المستدامة، ٥ سنوات بعد ريو، منشورات صندوق الأمم المتحدة للسكان، نيويورك، ١٩٩٦، ص١٧.

٥- المرجع السابق: ص ١٨.

٦- الزعبي، الأرقم: الغزو اليهودي للمياه العربية، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص ٨٣.

٧- كنيدي، بول: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، ترجمة: محمد عبد القادر، غازي مسعود، منشورات دار الشوق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣، ص ١٤١.

٨- المرجع السابق: ص١٤٢.

٩- المرجع السابق نفسه: ص ١٤٠.

10-ibid,M.southe imer,"Diezeit, 28 December 1990, Dossier, P.44.

١١- اليونسكو: إعداد المعلمين في مجال التربية السكانية، منشورات اليونسكو، باريس، ١٩٨٦، ص١٥٠.

١٢- المرجع السابق: ص١٥١.

١٣- صندوق الأمم المتحدة للسكان: قضايا سكانية، منشورات صندوق الأمم المتحدة للسكان، نيويورك، ١٩٩٣، ص١٤.

١٤- اليونسكو: المرجع السابق نفسه: ص١٥٠.

١٥- كنيدي، بول: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٨.

16-S.Postel, Water: Rethinking Management in an Age of scarcity, World Watch Paper 62 (December 1984), esp-(NewYork, 1986), Passim, P.20.

١٧- كنيدي، بول: المرجع السابق نفسه: ص١٣٨.

آفــاق المعرفــة

الكوكا: تقاليد في ثقافة الهنــود الحمــر الكوكا: النبتة المقدسة

تأليف: أ. لازار
ترجمة: لينا كيلاني *

١ - الأسلاف:

نبتة الكوكا قديمة قدم الانسان، أما زراعة أوراقها واستهلاكها فهي مقدسة في حضارات اميركا قبل الاسبان. ويعود وجود الكوكا إلى ما قبل خمسة آلاف عام أو أكثر، وبعدها التاريخي والثقافي والاجتماعي مستمر عبر الزمان.

---

* لينا كيلاني: أديبة وقاصة من سورية. تهتم بالقصة القصيرة وقصة الأطفال.

شجيرة الكوكا تلك على صلة وثيقة بالاسطورة والخرافة وهي تشكل جزءاً متكاملاً من الثقافة الهندية اذ تجسد حكمة الانسان وتشكل عاملاً حيوياً في القوة الجسدية والروحية للهوية الوطنية.

ومن بين النباتات الطبية المتعددة لدى الهنود الحمر في الانديز والذين هم السكان الاصليون لأميركا، لا توجد أي نبتة أكثر قداسة واحتراماً لديهم من نبتة الكوكا.

أما ابناء امبراطورية تاهوانتينسويو (Tahuantinsuyo) والتي كانت بلاد البيرو، وبوليفيا، والاكوادور، وشمال تشيلي، والارجنتين تشكل جزءاً منها فهم يزرعون الكوكا كما تزرع الكرمة في أوروبا.

في أخبار تاريخ حضارات الشعوب البدائية نجد ان زراعة نبات الكوكا مغرقة في القدم وتصل إلى ما قبل التاريخ، وتتواجد في عالم هذه الشعوب الأصلية بعد ان أغنت تقاليد الأجداد وكانت رمزاً لحيوية المقاومة ضد قهر الاستعمار وسيطرته.

وعرفت نبتة الكوكا من قبل الفاتحين الاسبان على انها احدى الرموز ذات العلاقة العميقة مع الأرض والسحر، والمعتقد الديني، وتاريخ الطب عند الهنود الحمر. وفوق كل ذلك عرفت النبتة على انها تشكل عامل تماسك اجتماعي كما تشكل عامل مقاومة لدى الهنود الحمر في سبيل كرامتهم وانتمائهم.

إن ورقة الكوكا كانت ولا تزال تُطارد وتُحارب على انها (عشبة شيطانية). ومن وجهة النظر الدينية للمستعمرين الاوروبيين فالورقة الغامضة التي تستخدم في الطقوس والقرابين الدينية التي تقدم للشمس وللأرض الأم، تقف عائقاً أمام هداية السكان الأصليين إلى المسيحية.

وظهر الأعداء الأوائل لنبتة الكوكا مع بدايات نشوء المستعمرات، وكان أعداؤها يطالبون ببساطة ووضوح بالاستئصال المباشر وغير المشروط

لهـا بحجـة انقـاذ أرواح السكان الأصليين. وذلك حصل حين قـرر ملوك إسبانيا وقساوستها القضاء على العشبة الخضراء، فهم يرون ان الهنود الحمر يجترونها كالحيوانات، إضافة إلى انها تجسد الوثنية والرقية.

بين هاتين الحضارتين المتضادتين: الحضارة الغربية وحضارة الهنود الحمر تقع هذه النبتة الاسطورية التي ترمي محصولها ثلاثة مواسم في العام، فالهنود يدافعون عنهـا باستمرار بينما المستعمرون يطاردونها باستمرار ويقاتلون دونما شفقة في سبيل الثقافة الغربية والتبشير الانجيلي القسري.

لقد دافع السكان الأصليون من الهنود بقوة ذاتية في مقاومة الحضارة الغربية، تلك الحضارة المندفعة برغبة متوحشة نحو الذهب والفضة والثروة التي تغفو في أعمق أعماق العالم الهندي الأحمر.

وعلى الرغم من المساهمة التي لا تقدر بثمن للحضارات ما قبل الكولومبية في حياة أوروبا العجوز بمدها بمجموعة من النباتات الضرورية والتي لا غنى عنهـا مثل: البطاطا، والذرة، والبندورة، والقطن، وأنواع الفاصولياء، وغيرها فقد بقيت الكوكا هدفاً لمعاملة عنصرية وغير عادلة، فما هو السبب؟السبب يعود لعام ١٨٥٥ عندما قام طبيب الماني ومن بعده آخر نمساوي هو آلبرت نايمان باكتشاف طريقة لعزل (١٤) مادة شبه قلوية تسمى (الكوكائين).

وأمام الهجوم الشرس الذي لا هوادة فيه بالأسلحة القديمة والحديثة على نبات الكوكا كان على الشعوب الهندية الأصلية ان تربط هويتها بالكوكا التي هي تعبيـر حي عن الثقـافـة الهندية، وتعـيش ذكـراها مع السلف والأجداد، وتعتبر رمزاً للعلاقة العميقة مع الـ (باتشاماماPachamama)أي الأرض الأم. وعندما يدافع الهنود عن هذه الورقة الخضراء إنما هم يدافعون عن حقوق الانسان الهندي الأحمر وعن إرثه الفكري والثقافي.

٢ - تقاليد الهنود الحمر :

لم تستخدم ورقة الكوكا في الحضارات الهندية كسلعة قط ، ولم تكتسب القيمة التجارية في علاقات الحياة اليومية ، وإنما بقيت هذه الشجيرة تؤدي وظيفتها الأساسية وهي ارتباطها الوثيق بالميثولوجيا التي تتجلى بالتضامن والتماسك والتكامل الاجتماعي ما بين الاسر والمجتمعات الأصلية .

وفي تقييم علاقة شجيرة الكوكا العميقة مع الأرض والكون نجد ان وريقاتها السحرية حاضرة في كل دقائق الحياة الهندية ... فهي ترمز للتآخي والتضامن اللذين يتجليان في العمل المشترك والتعاون المتبادل وكذلك الاحترام ، وكلها أساس في أبجدية امبراطورية تهوانتينسويو (Tahuantin-suyo) .

في العالم الهندي تبدأ وتنتهي مع نبتة الكوكا ، أما الاحتفالات الدينية مثل طقس (آنتي رايمي Anti Raymi) فهي فارغة من مضمونها الروحي والاجتماعي بدون أوراق السلف .

وفي نطاق القوانين والتقاليد والعادات الهندية لا يمكن للأسرة ان تستغني عن الكوكا أو ان تستعيض عنها بأي بديل آخر فهي التي تحل محل الكلمة عندما يتقدم الشاب لطلب يد فتاته زوجة المستقبل . كذلك تفرض التقاليد قبل بدء مواسم الحصاد وجني المحصول ان يجتمع السكان الأصليون حول أوراق الكوكا الخضراء المنثورة فوق رداء المرأة كتعبير عن الامتنان العميق للأرض الأم .

وفي الوقت نفسه لعبت أوراق الكوكا وما تزال دوراً دقيقاً وحيوياً في حل النزاعات والجدال بين الأفراد والجماعات ، وتشكل عاملاً في التصالح وبالتالي في تحقيق التعايش الودي ، والعمل الجماعي المسالم ، كما انها تعمل كوسيط في الصفقات وسداد الدين المؤجل .

وقد استخدمت ورقة الكوكا المقدسة في جميع العلاقات الاجتماعية والروحية لدى شعب الانكا منذ الآف السنين ولدى الهنود الحمر فيما بعد، اقول استخدمت في الطقوس للتعبير عن تبجيل الالهة واحترامها وكذلك الأرض جزاء سخائها وكرمها بما جادت به لتحقيق استمرارية الحياة وما منحته من رقعة للتكاثر الاجتماعي الممتد عبر الزمان والمكان.

وفي النظرة الكونية لدى الهنود الحمر تلعب ورقة الكوكا دور الرباط الطبيعي في التوازن ما بين الانسان الهندي والطبيعة، بين العمل وميزان الكرامة الانسانية والتمتع العقلاني بالموارد الطبيعية.

وعلى ضوء هذه النظرة الجدلية كان لابد من المواءمة ما بين التطور والنماء وتوازن المجتمعات التي كانت الأكثر تقدماً والأفضل تنظيماً بالنسبة لعصرها، ومازالت ينبوع إلهام لكل من يسعون لتحقيق العدالة الاجتماعية، وبقاء الجنس البشري، والحفاظ على الأرض وتنوعها البيئي.

ومن بين الممارسات الاجتماعية المتعددة التي تتمثل في العلاقات التقليدية للسكان الأصليين من الهنود تلعب الكوكا دوراً مهماً يتجلى في الكرم وحسن الضيافة، . وترافق أوراق الكوكا الهندي الأحمر، عامل المناجم وعامل الزراعة، من المهد إلى اللحد. وفي أوقات المعاناة واليأس، وحالات الضعف الجسدي تنهض تلك الأوراق الخضراء لا لتقطع الجوع والظمأ أو لتواسي الأحزان وتبدد الآلام فحسب بل لتعمل كمقو يعزز مقاومة الهندي المقهور أمام ظروف الزمن الصعب والعمل الشاق في الأرض القاحلة التي أحرقتها الشمس، ولتساعدة علي مقاومة الموت في حفر المناجم المعتمة. كذلك تنهض نبتة الكوكا ليقاوم الهنود الحمر شروط هزائمهم، وأسباب التفرقة والاستغلال والاذلال لكرامتهم.

وهكذا يصبح من المحال تخيل سكان الأنديز الأصليين في المناطق الجبلية والوديان محرومين من نبتتهم بسبب طمع الآخرين فيها.

تلك النبتة الثمينة التي تجسد الاحترام بقدر ما تجسد الاعجاب عبر

القرون. ولما كانت للكوكا أهمية صوفية واسطورية عميقة في الديانة والثقافة الهندية كما في الصحة والعمل، فقد اعتبرت نبعاً لا ينضب في النضال من أجل الهوية، وبالتالي لا يمكن استبدالها بأي زرع بديل آخر. ومن يحاولون القضاء عليها بتعصب وجنون إنما يعملون على تقويض أسس الإرث الثقافي الهندي لا جتثاث جذور تقاليد الاسلاف والثقافات القيمة بخبث، واقتياد السفينة بعكس اتجاه التيار أي نحو الحضارة الغربية.

٣ – فضائل الكوكا:

في ضوء الأبحاث التي تؤكدها الحياة اليومية تعتبر الكوكانبتة طبية أساسية وبلا منازع ذات خصائص وقائية، كما اثبتت تجارب علم مداواة الأمراض فعاليتها في علاج كثير من الأمراض.

بعد (٢٥) سنة من البحث استطاع عالم النبات (آندرووِيل)-(Andreu-wiell) الاستاذ بكلية الطب في جامعة آريزونا بأميركا ان يؤكد فعالية الكوكا الطبية العظيمة، وكذلك الفوائد الغذائية لأوراقها. وبالنظر إلى النتائج العلمية نجد ان التركيب الكيميائي لأوراق الكوكا هو الأكثر اكتمالاً وغنى بالسعرات الحرارية والبروتينات وكذلك بالدهون والكاربوهيدرات، والألياف، والرماد، والمعادن مثل: الكالسيوم، والفوسفور، والحديد، والبوتاسيوم، والمغنيزيوم، والصوديوم، وحمض الاسكوربيك وغيرها. هذا اضافة إلى فيتامينات A، C وE بمقادير كبيرة وأكبر مما تحتوي عليه باقي النباتات الغذائية وخاصة التي تستخدم كمنقوع أو مغلي مثل القهوة والبابونج وغيرها.

وبعد سنوات طوال من البحث وُجد ان ورقة الكوكا تحتوي على نسبة كبيرة من البروتين تبلغ ٩,١٩٪ في الوقت الذي لا تتجاوز فيه نسبة البروتين في اللحم ١٩,٤٪. كذلك تحتوي ورقة الكوكا على نسبة من الكالسيوم مقدارها٢١٩١٪ تفوق بمرات ما يحتويه الحليب المركز. وهي الأكثر غنى بفيتامينB١ وبنسبة ٢٧٦٪ أي أعلى مما يحتويه الجزر الغض، وهذا مما يبرر انتشار نبتة الكوكا واستخداماتها المتنوعة في الطب التقليدي عند الهنود.

من فضائل الكوكا انها لا يمكن ان تستبدل عبر الزمان في بلاد

امبراطورية (التاهونيتنسويو) الشاسعة، وقد غدت ورقتها الدواء التقليدي الأكثر استخداماً كعلاج وقائي ولمداواة الأمراض الفيزيولوجية والنفسية، وتركيبها الكيماوي يبين انها عبارة عن مقوٍ فعال يعطي طاقة لشفاء أمراض سوء الهضم، والتهابات الحنجرة والحبال الصوتية، والدوار، والضغط الشرياني، ويساعد على استقلاب الكاربوهيدرات، واعادة التوازن العصبي، وتقوية الطاقة الجنسية. وأكثر من ذلك للكوكا علاقة مباشرة بالجوع والتعب الجسدي والنفسي، وتستخدم بشكل تقليدي بدءاً من المضغ وانتهاءً بالمنقوع المغلي كامد اللون أو حتى كلصقة أو لبخة.

في حالات الفقر الشديد تظهر أمراض سوء التغذية عن نقصان السعرات الحرارية والفيتامينات، ولكن الكوكا، وشكراً لتركيبها الكيميائي الذي لا يضاهى، تعطي المقاومة للبرد والجوع، وتزود الجسم بمخزون من الفيتامينات والبروتينات.

وفي أيامنا هذه يعرف السياح الأجانب عن خصائص هذه النبتة المقدسة ومنافعها أكثر مما يعرفه السكان الأصليون، فمغلي الكوما يستخدم للتخفيف من أعراض الاصابات نتيجة صعود الارتفاعات العالية لهضاب الانديز الخلابة.

من أكثر الأمور رمزية هو ان البابا(خوان بابلو الثاني) قَبِل في احدى زياراته إلى بوليڤيا ان يشرب منقوع الكوكا المركز واعترف ضمنياً بفضائل أوراق الكوكا النبيلة والمقدسة لدى شعب الإنكا. كذلك لم تتردد صوفيا ملكة اسبانيا في شرب منقوع الكوكا الذي قدمه لها نائب رئيس جمهورية بوليڤيا عند وصولها لبلاده تعبيراً عن حسن الضيافة.

مَنْ يعتقد ان الكوكا مخدر لعين فهو يسيء للحضارات الهندية ويتجاهل قيمة هذه النبتة التي يزرعها الانسان الهندي منذ زمن بعيد. أما (ماتشو بيكتشو Machu Picchu) الأسطورية التي ترمز آثارها إلى ذكرى شعب عريق بتصميمها المذهل ما كانت لتشاد على ارتفاع ٣٦٠٠م دون الحضور المادي والروحي لتلك النبتة.

٤ – الالتباس ما بين الكوكا والمخدر:

يجب التأكيد أولاً على الفرق الجوهري ما بين المضغ التقليدي للكوكا في العالم الهندي والاستخدام غير المشروع للكوكائين في العالم الغربي. ولهذا السبب أكد رئيس جمهورية بوليفيا الأسبق في خطاب له ألقاه أمام الجمعية السنوية لمنظمة الصحة الدولية عام ١٩٩٢ أن: الكوكا تقليد هندي على عكس الكوكائين الذي هو عادة غربية.

صحيح ان البلاد المستهلكة للكوكا تربط عمداً بين هذه الورقة ذات الأهمية العميقة لدى السكان الأصليين وبين المخدر اللعين الذي يقبل عليه الانسان الغربي بشهية كبيرة على شكل كوكائين مستخرج كيميائياً رغم تأثيراته الدرامية على كامل الصحة البدنية والعقلية للأجيال المعاصرة والمستقبلية في مجتمعات الاستهلاك.

من وجهة نظر اعداء الكوكا الغارقين في منطق الانتاج والاستهلاك، وهم بالنتيجة ضحايا يتساقطون في سوق العرض والطلب، فإنه يجب مكافحة ادمان المخدرات بالاستعانة بوسائل قسرية وبتعبئة القوة الرادعة ضد استثمار ملايين الدولارات في زراعات الكوكائين، مما يؤثر بدوره على استمرار بقاء هذه النبتة على قيد الحياة رغم كونها تعود لتقاليد قدماء الانديز. بينما من وجهة نظر اخرى تتعلق بالاستخدامات الطبية للكوكا وتأثيراتها على الصحة العامة وطاقة العمل فإن استهلاك أوراق الكوكا بالشكل التقليدي هو غير مؤذ أو ضار بالاجهزة العضوية وهي مثل الكافئين والنيكوتين والشائين التي تستعمل وتسوق كسلع ضرورية في المجتمعات الدولية.

وهنا تجدر الاشارة بأن الاستهلاك المطرد للكحول والتبغ يحصد كثيراً من حيوات الناس بينما الاستخدام التقليدي للكوكا بأشكالها المختلفة لم يجعلها في يوم من الأيام سبباً في الادمان على المخدرات، بل على العكس ان استهلاكها بشكلها الطبيعي ومنذ آلاف السنين ونظراً لخواصها الطبية لا يسبب امراضاً ولا يحولها إلى عقار منوم أو مخدر.

هذا ما يُسلم به هنود الـ (كيتشواس Kechuas) وال (ايماراس Aymaras) والسكان الأصليون لمناطق الامازون الذين يعيشون

على مضغ الأوراق المقدسة منذ عهود بعيدة ولا يعانون من أعراض داء الادمان، وهذا ما أكدته بالفعل الأبحاث الطبية.

وهكذا تقف الشعوب الأصلية ومنتجي الكوكا وقفة حائرة ومستنكرة لتبريرات الغرب العنصرية والمتناقضة، ويتجلى الصراع احادي الجانب ضد الآثار الشريرة التي يخلفها تناول المخدر في المجتمعات الغنية، دون الأخذ بعين الاعتبار للأسباب الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية التي تسببت بإيجاد آفة الادمان تلك الآفة الأكبر والأخطر في العالم الغربي.

ونطرح سؤالاً على أعداء الثقافة الهندية الذين يحملون كأس الويسكي بيد والسيكار بيد أخرى وهم يندون بنبات الكوكا ويصرخون عالياً من أجل استئصالها ويعاملون منتجيها كما يعامل المنبوذون: اذا كان الكحول أحد آفات أوروبا الكبيرة وهو في الوقت نفسه سلاح بطيء ضد الشعوب الأصلية في أميركا، وكندا، واستراليا فلماذ لا يستأصلون زراعات الكروم في تلك البلاد بالرغم من انها تجسد الهوية الثقافية للعالم القديم؟

ومن جهة أخرى اذا كان الادمان على التبغ يتسبب بسقوط اعداد كبيرة متزايدة من الضحايا في مجتمعات الاستهلاك فلماذا اذن لا تُحرّم زراعته؟ ولماذا لا يملك منتجو الكوكا حق التعويض -والذي هو تقليد في المجتمع الغربي- عند سرقة الكوكائين واعطاء التراخيص للشركات متعددة الجنسيات والمرخصة في الولايات المتحدة الأمريكيه من أجل تصنيع الكوكاكولا؟

من الواضح انه لا توجد لدى الحضارة الغربية ردود مقنعة لهذه الأسئلة. ومما لا ريب فيه ان الرجل الأبيض أو الـ (غرينغو Gringo)[1] جشع للثراء ولم تأت حضارته بدون مفهوم التجارة والقيمة النقدية للأشياء بما فيها الذهب والنبات.

وتحت حماية قانون السوق يفاوض الرجل الأبيض الهنود لتحويل أوراق الكوكا التي تحتوي على ١٪ من بين ١٤ مادة قلوية إلى تجارة غير شرعية. وتتعدد طرق التحويل الكيميائي لأوراق تلك النبتة لتصبح عقاقير علاجية منها ما هو على شكل معجون ومنها ما هو صلب، وتسجل مباشرة حسب منطق اقتصاد السوق الشهير وتقرر كما باقي السلع تبعاً لقانون العرض والطلب في العالم الرأسمالي.

هذه الحقيقة يؤكدها سبب وجيه هو استجواب الهنود الحمر ومحاكمتهم بجرم آفة العصر. بينما من الاجدر البحث عن حقيقة أسواق المخدرات الكبرى وجشعها الاقتصادي وتمويلها من قبل المافيات العالمية والشركات متعددة الجنسيات، وليس مطاردة تلك الطبقات الاجتماعية الفقيرة التي تعاني من الكرب والألم ويتزايد خوفها من تحدي العولمة، وفقدان العمل في معركة المنافسة الشرسة.

وأخيراً تجدر الاشارة إلى فساد الطبقات الاجتماعية المهيمنة في بلاد الجنوب ونفاقها تجاه الكوكا كعامل تحذير للهنود، بينما هم يتهافتون دونما خجل على فتات الأرباح والمكاسب المادية في الأسواق غير المشروعة وتحريك اليد الخفية للسوق.

ويبدو التناقض واضحاً في سياسة الولايات المتحدة الاميركية اذ تعلن الحرب الكاملة من جهة ضد زراعات الكوكا، وتبدي رضاها من جهة أخرى عن الانقلاب الذي قام في بوليفيا في الثمانينات على يد تجار الكوكائين من العسكريين. وباسم الديمقراطية يبررون سياسة الحكومات المتورطة في تجارة المخدرات وغسل الأموال ويتسامحون مع الأنظمة التي تديرها مافيات حقيقية كما في روسيا.

ومن منطق هذا النحو الفوضوي في البلدان المستهلكة للكوكائين تقع الضحايا نتيجة تأثير الاقتصاد الليبرالي والحريات الجنسية والاخلاقيات التي تبيح كل شيء، عدا السهر على كرامة الانسان وسلامته.

هل يجيب الغرب اذا ما تساءلنا: كيف يمكن لمنظمة اجتماعية مريضة ان تعمل تحت غطاء الحرية؟ وما هو العلاج من أجل اعادة التوازن الاجتماعي والاخلاقي في المجتمع الاستهلاكي.

وبانتظار حل غير مؤكد تبقى الشعوب الهندية تعاني على مدى القرون من لعنة الثراء بعد ان كابدت من لعنة الذهب والفضة، وها هي تقع للمرة الثالثة ضحية لأوراق الكوكا، والجريمة المنظمة، وخرق السيادة الوطنية في زراعات الكوكا، وقمع المنافسين والاعتداء على كرامتهم.

نافذة على الوطن العربي

عبد الرحمن الحلبي

أفكـــار علميّـــة

الكترونيّات تنتصر على الصَمَم

فقد السمع مشكلة بحدّ ذاتها يعاني منها كثير من الناس في جميع أنحاء العالم، وقد يكون فقدُ السمع بسيطاً جداً وقد يكون كلياً. ثم قد يكون توصيلياً أو عصبياً، أو يكون توصيلياً عصبياً معاً.

لفقد السمع التوصيلي حلول علاجية وأخرى جراحية، أمّا فقد السمع العصبي فلقد أمكن التغلب عليه بمكبّر الصوت كمعين سمعي وكأداة تساعد على حلّ مختلف درجات فقد السمع العصبي إلا إذا كان هذا الفقد كلياً!.

الفقد الكليّ للسمع العصبي ظل مشكلة قائمة وكبيرة حتى بداية العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، حيث بُدئ بما يسمّى زرع «القوقعة الالكترونية»، كما يخبرنا الباحث العربي المصري كمال الدين أبو أحمد[١]، لفاقدي السمع العصبي الشديد جداً كحلّ ناجع لهذه المشكلة.

إنّ عملية زرع القوقعة الألكترونية للأذن الداخلية تهدف إلى إعادة قدرة المريض المصاب بالصمم الكلّي على الاتصال سمعياً بالبيئة الخارجيّة عن طريق الاستثارة الكهربائية لقوقعة الأذن الداخلية للمرضى الذين لايستفيدون من المعين السمعي القوي.

والمعين السمعي هو مكبّر ألكتروني للصوت، سهل الاستعمال، على أنواعه المختلفة، فهو إما أنه يحمل خلف الأذن أو داخلها أو أنه يرتبط بالنظارة أو في الملابس الداخلية للمحتاج إليه.

يتطلب إجراء عملية زرع القوقعة الألكترونية- حسب الباحث- الأمور التالية:

١- أن يكون المريض فاقداً السمع فقداً كاملاً بكلتا أذنيه.

٢- غير ممكن استفادة المريض من المعين السمعي القوي جداً.

٣- أن يكون المريض على دراية وأن يكون متوقعاً للامكانات المحدودة للجهاز.

٤- أن لايكون مختلاً نفسياً وعقلياً.

٥- ألا يكون ثمة من مانع طبي لزرع القوقعة مثل الضعف الصحي الشديد أو عدم قدرته على احتمال التخدير الكلي.

٦- ألا يكون هناك مانع عظمي للأذن الداخلية بالأشعة المقطعية مثل عدم تكوّن أذن داخلية أو وجود خلل بعظام قناة القوقعة للأذن الداخلية.

٧- أن يكون عمره أكبر من ستين وأقل من سبعين عاماً.

وهناك موانع لإجراء عملية زرع القوقعة الالكترونية مثل:

١- أن يكون المريض مولوداً فاقداً السمع كلياً، وعمره أكبر من ست سنوات.

٢- ألا يكون هناك قوقعة أذن داخلية بكلتا أذنيه.

٣- أن يكون لديه قدرة ولو بسيطة جداً على السمع.

٤- عدم قبوله نفسياً لتركيب القوقعة الألكترونية. وتتكوّن القواقع الالكترونية من عناصر أساسية متشابهة هي:

١- الميكروفون.

٢- منسّق الملام والملف الناقل.

٣- الملف المستقبل.

٤- الأقطاب التي توضع داخل قناة قوقعة الأذن أو خارجها.

ومع تشابه العناصر المكوّنة للقواقع الالكترونية فمنها أنواع شتى هي:

١- قواقع الكترونية ذات القطب الواحد، وتركب داخل القناة الداخلية لقوقعة الأذن الداخلية.

٢- قواقع الكترونية ذات القطب الواحد يتم إلصاقها بجدار القوقعة التي للأذن الداخلية.

٣- قواقع الكترونية متعدّدة الأقطاب ويتم إلصاقها بجدار قوقعة الأذن الداخلية.

٤- قواقع الكترونية متعددة الأقطاب تركّب داخل القناة الداخلية لقوقعة الأذن الداخلية.

ويرى الباحث أن أشهر هذه الأنواع، على مستوى العالم، هي القوقعة الالكترونية ذات الاثنين والعشرين قطباً.

إذن عملية زرع القوقعة هي العملية التي يتم فيها إدخال أقطاب القوقعة داخل قناة القوقعة للأذن الداخلية أو ملتصقة بجدارها في الأذن الوسطى، ويتم فيها أيضاً تثبيت الملف المستقبل للقوقعة بجدار عظمة الجمجمة خلف الأذن وتحت الجلد. وبعد التئام الجرح يقوم المريض- أثناء استخدام الجهاز- بوضع الملف الناقل على الجلد في مقابل الملف المستقبل (بكسر الباء)، وعن طريق التجاذب المغناطيسي فيما بينهما تثبت في مكانها، أما الميكروفون فإنه يستقبل الموجات السمعية، ويحولها إلى منسّق الكلام، وعن طريق نظام (ف.م، F.M) تنقل إلى ملف المستقبل، ثم إلى الأقطاب وبإشاراتها الكهربائية إلى بقايا عصب السمع الحية، ثم إلى مراكز السمع بالمخ، وبذلك يتم سماع الصوت. إلا أن قدرة فاقدي السمع على تمييز الكلام تختلف تبعاً لاختلاف عوامل كثيرة، منها نوع القوقعة المزروعة وفترة فقد المريض للسمع وحالته قبل فقده السمع وقدرة مجموعة التأهيل التخاطبي ومدى مداومة المريض على برامج التأهيل.

يخبرنا الباحث أن عملية زرع القوقعة الألكترونية، على الرغم من أنها توضح مدى ماتوصل إليه العلم من تقدم وتكنولوجيا في خدمة الإنسان فهي في الوقت الراهن ذات تكاليف مرتفعة بسبب ارتفاع ثمن الجهاز بالذات، لكنّ الأمل يظل معقوداً على المستقبل القريب حين تقوم بعض الشركات العالمية بتصنيع أجهزة بتكاليف أقل بحيث تصبح مثل هذه الأجهزة متيسّرة مادياً لكل من يحتاجون إليها من فاقدي السمع الكليّ.

ثم يشير الباحث إلى بعض المحاذير البسيطة التي قد تنجم عن هذه العملية أمثال:

١- التهاب الجرح.

٢- تحرك الأقطاب من أماكنها، أو التواؤها أو كسرها.

٣- تحرك الملف المستقبل وخروجه من خلال الجلد.

٤- فشل القوقعة الكترونياً.

وفي كل حالة، إذا ماحدثت، يتم استقصاء النواحي الآتية:

التاريخ المرضي والفحص الاكلينيكي والفحص السمعي وعمل أشعة مقطعيّة؛ ويختتم هذا الاستقصاء بقرار فريق زرع القوقعة ثم يتم إجراء عملية الزرع لمن تستوجب حالته ذلك.

من ناحية التاريخ المرضي يتم استقصاء عناصره الثلاثة: الحاضر والماضي والعائلي. ويُستقصى في التاريخ المرضي الماضي عمّا إذا كان المريض قد تعرض لمشكلات أثناء الولادة أو بعدها، وعمّا إذا كان تعرّض لالتهاب السحائي الوبائي... الخ.

أما استقصاء التاريخ المرضي العائلي فيشمل حدوث حالات ضعف للسمع في محيط العائلة من عدمه ويستتبع ذلك الفحص الإكلينيكي للمريض ويشمل الأذنين والأنف والحلق للبحث عن سبب موضعي لضعف سمعه من عدمه، ثم يتم إجراء الفحوصات السمعية كمقياس السمع دون استخدام المعين السمعي، ثم باستخدامه ومقياس ضغط الأذن، ومقياس قدرة الأجهزة العصبية السمعية بالمخ والمخيخ والأذن الداخلية على السمع بالأجهزة الالكترونية، ثم يتم إجراء أشعة مقطعية على الأذنين لتحديد مدى ملاءمة القناة الداخلية لقوقعة الأذنين لإدخال أقطاب القوقعة الالكترونية.

وبعد اتمام إجراء العملية وقبل قفل الجرح يتم إجراء فحوصات سمعية للأطفال للتأكد من أن الأقطاب في أماكنها المطلوبة وأنها تعمل بكفاءة، ثم يتم إجراء برامج تأهيل تخاطبيّة لمدة شهرين إلى ثلاثة أشهر.

إنّ عملية زرع القوقعة الالكترونية للأذن الداخلية غدت سهلة

الإجراء في أماكن مختلفة من العالم ومنها بعض أقطار الوطن العربي. كما أن الجهاز مقبول لدى الأطفال والكبار نساءً ورجالاً، ولكن إلى أي حدٍّ يُسمح لمن يستخدم القواقع الالكترونية بالقيام بكل أنشطته المعهودة إليه؟.

في الواقع أن الباحث يخبرنا بوجود بعض الموانع، كمانع القيام بالأنشطة الرياضية التي تتطلب التحاماً جسدياً مثل الملاكمة والتي قد تحرك الملف المستقبل من مكانه، كما يمنع استخدامه الأشعة ذات الموجات المغناطيسية واستخدام جهاز الكي الكهربائي أو العلاج الإشعاعي بقرب الجهاز.

* * *

فنــــون

فن العمارة من أجل الإنسان

في الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ المعماري حسن فتحي[٢] في تصميماته المعمارية متأثراً بما توارثته بعض المدن العربية من فن العمارة في العصور الوسطى (القاهرة مثلاً) بقصورها الرائعة وآثارها التي بناها المماليك والعثمانيون، وبالبيئة الريفية حيث يمكن تزاوج هذه الأشكال؛ ومن هذين المصدرين وجد المباني الطينية وعمل على معالجتها لتغدو أكثر منهجية في مصطلحات الاحتياجات الإجتماعية والتكيّف التكنولوجي؛ وطوّر سلسلة من أشكال البيوت بدمجه التكنولوجيا العامة لصناعة «اللبن» والملامح المأخوذة من مكوّنات فن العمارة الإسلامي، وأقام معرضه الأول عام ١٩٣٧ في المنصورة والقاهرة، مقدماً نماذج متكررة للإقامة في الريف لملاك الأراضي. وكانت الصور المعمارية المقدمة في هذه الدراسات تتميّز

بالخصوصية ونابعة من معماري على درجة عالية من العلم، كما وصفه الناقد الفني المصري عبد الغني داود.

فالأقواس المدببة والقباب الممتدة تكرّر الأشكال المعماريّة الحضرية في تلك العصور منظّمة بشكل حرّ مع أحجام «المقرنصات» والمستطيلة التي تميّز مباني الفلاحين الشعبيّة، وعلى الرغم من أن المعرض قد أثار اهتمام الذين شاهدوه، إلا أنّ ذلك لم يدفع إلى إجراء التجارب المباشرة للتنفيذ حتى العام ١٩٤٠ حين طلبت منه «الجمعية الملكية الزراعية» أن يصمم لها مزرعة مركّبة في موقع «بهتيم»، فأتاح له هذا التكليف فرصة ممتازة للإفادة من تكنولوجيا اللبن، حيث لم يكن متاحاً في فترة الحرب العالمية الثانية استخدام الحديد أو الاسمنت المسلّح.

صمم الفنان حسن فتحي هذه المزرعة بنظام «الحوائط الحاملة والأقبية والقباب. وقد تم بناء الحوائط دونما مشكلات أو تعقيدات. لكنّ هذا البناء واجه عقبة، حيث أن الفنان فتحي كان قد اعتمد على البنائين المحليين الذين فشلوا في محاولاتهم مع الأقبية والقباب، الأمر الذي اضطره للذهاب إلى «النوبة» عام ١٩٤١ ليأتي باثنين من البنائين النوبيين، كان أحدهما علاء الدين مصطفى خبير التنفيذ، فقام البنّاءان بعملهما التنفيذي وهما يعتمدان في ذلك على معطيات نظرية الميل. فساعدت هذه التجربة الفنان فتحي على بلورة معجمه المعماري عن العناصر الأولية التي كان يفكر فيها منذ منتصف الثلاثينات، وهي: القبة المعروضة فوق قطر التصميم، والقبة المستخدمة لإغلاق الحجرات الطويلة والمستطيلة، كبناء إضافي، أو ملحق، والقوس الذي ارتبط بالحائط الحامل، وبهذا يحرره من الناحية التخطيطية. وهي الهندسة الأساسية للبناء، وقد جسّدها هذا نموذجاً معمارياً متكرراً مرئياً من كثير من الناس.

بعد هذه البدايات شرع في تصميم المنازل في الفترة المبكرة التالية لبداياته، فكان أول هذه المنازل - البيوت - التي صممها للفنان حامد سعيد

عام ١٩٤٢ وتم تصوّره في إطار «القبوة والقبة وملحق إضافي ذي قبوة هو الإيوان» وترفع القبة على أقواس تُبنى عبر زاوية الغرفة لتدعيم مافوقه، وهو الأسلوب البنائي الذي يعتمد على حوائط مربعة مع الأساس والقاعدة الدائرية للقبّة خلال ثمان، وبعد ذلك ستّ عشرة منطقة جانبيّة انتقالية. ثم بيت «سيف النصر» ١٩٤٥ الذي يتألف، بشكل دقيق، من مساحات ذات قباب، ولايشبه بيوته التي بناها في الفترة المبكرة، لأن التعبير في البناء الذي يقاس «بالأشبار» مخفي في الحوائط ذات المتراس؛ كما أن القبة الموجودة فوق الساحة الرئيسية للمعيشة ترتفع بشكل مرئي فوق الكتلة المحيطة المغلقة، ومزوّد بفناء خارجي، ويحاط من جانب واحد برواق مسقوف (Logia)، لكنها بعيدة كليّة عن البهو المغلق.

أما منزل «ستوبلاري» ١٩٥٢ فيضم ثلاث ردهات داخلية، وافتراض ردهة رابعة في المدخل، وفي هذه المرحلة ظلّت تفاصيل البناء بسيطة، والتغيير الكلي لهذه البيوت منفرداً، مع إمداد كل الأوجه في الكتلة المشكلة بالطين مع وضع الفتحات في الحائط. كذلك يستخدم حسن فتحي النسب المعيّنة، ومفصلات السطح، مما يضفي على الأبنية مظهراً قاتماً في إطار المنظر الطبيعي العام، وتبرز مراكزها المنخفضة الجانبية عن طريق زوايا خارجية عارضة للحوائط، فهو رومانسي في الطبيعة، وهذه الأعمال المبكرة اعتمدت اعتماداً كبيراً على حسّ المعماري - المنفذ - في التوازن والتكوين.

استمر الفنان حسن فتحي بالتجريب، وعبر فترته التجريبية الأخيرة بنى بيوتاً قليلة كان أبرزها منتجعه الخاص الذي كان في العام ١٩٧١ في منطقة (سيدي كرير) على شاطئ البحر.

في السنوات العشر التالية تغيّرت المواد التي بنيت بها بيوت هذه الفترة من اللبن الطوبي إلى الحجر والطوب الأحمر. لكنّ التغيّر بالخامات - على أية حال - لم يكن له حساب في الاختلافات المعمارية. وتُبرز بيوت المرحلة الأخيرة دراسته المستفيضة في الشكلية التجريبية، كما أنها تجسّد توازناً

ناضجاً يتد بقاموس المصطلحات البنائية الأساسية لبيوت الفترة المبكرة ليشمل نظاماً كلي التعانق، ومكتملاً، وسجلاً كاملاً في التطور للعناصر التي تملأ الفجوات.

وقد جاء مصدر إلهام حسن فتحي فيما يتعلق بنظام التناسب الشكلي من خلال عالم الحفريات (سفيللير دي لوتيش) عندما كان يعمل بـ «الأقصر» في مشروع (القرنة الجديدة) حيث استلهم فتحي من هذه الحفريات نظرية معمارية ممكنة، يستخدم فيها الوظائف الرياضية ذات العلاقة بالأبعاد التي تستطيع أن تقدم مدى انسانياً في فن العمارة، حيث ترتبط كل العناصر في وحدة كلية متناغمة.

فقد قدمت القبة والقبوة، مسبقاً، المساحات والكتل المتناغمة، وبدأ في تصنيع الـ «PI» وتصنيع وازدواج الذراع الفرعوني (٦٤سم) فيما بين المساحات المستخدمة في رسم الحجرات، وارتفاع الحيطان والأبواب وعمق المناطق ذات الأقواس التي تبنى عبر زاوية الغرفة لتدعيم مافوقها لكي تصبّ كل واحدة مكانية في (د) أي حركة دائمة جيدة التمركز ومرتفعة؛ وقد استخدم معدل الارتفاع مع الاتساع في منحنيات قطعية ومتكافئة في عمل الأقبية، ووضعت كعامل في بناء مقياس الرقم التقريبي [٢ط نق الـ phi] أي «الوسيط الذهبي»، والشبر.

وقد أراد فتحي أن تلعب «الأبهاء» دوراً مهماً في البناء الذي صممه في هذه المرحلة، بينما تظل الحجرات الفردية تتجمّع حولها من أجل الإضاءة والتهوية. ويؤدي البهو دوره أيضاً كمساحة مستقلة بشخصيته المندمجة التي يثريها الرواق المسقوف، وأحياناً يجمّلها نافورة، وعندما تغلق تماماً تمد بجزء مرئي متحكم فيه يطل على السماء، والقاعة تتكوّن من مساحة مركزية ذات قبة، وهي دائماً أكثر الغرف تعقيداً من الناحية المعمارية، وطرقة محاطة من جانبيها بفجوات مشعة تسمّى (إيوان)، وتوظف كمساحة داخلية أساسية، وهي دائماً ملتصقة بعتبة- مدخل- البناء، والصالة ذات قبة، وإذا

كانت القاعة أكثر الغرف تعقيداً في التصميم فلأنها قادرة على أداء وظائف متنوعة مثل تناول الغداء، والغسيل والدراسة، والنوم؛ وكل يتم في قلب البناء الذي يقاس بالتغير حسب الحاجة.

صمم فتحي تحت شرفات السطح أبنية أشبه بالموضوعات النحتية التي تحيط بالمكان، وعند زيارة البيوت التي بنيت في المرحلة الأخيرة يندهش المرء بالنموذج الحيوي الذي يرسم الممر الانتقالي من مساحة إلى مساحة. فعندما يتمشّى الزائر في الأبهاء ويمعن النظر شمالاً ويميناً أو إلى أعلى أو أسفل سيجد مشاهد مفتوحة أو مغلقة الحركة تنبعث فيها الحياة بالتغيرات التي تحدث في هذا القسم وموقعه بالإضاءة الطبيعية، وعند الراحة تسافر العين خلال حواجز تتضمن فضاءً أو مساحة مختلفة-، لتصل - خلال أجزاء منفصلة أو حواجز ذات أطر- بمشاهد غير محورية الضوء والظل.

أما المكونات المعمارية، كما تشخصها نظرية فتحي فمتوحدة مثل نوتات التأليف الموسيقي، بالإضافة إلى فترات تتحكم فيها قواعد رياضية محددة، تشبه العلاقة النغمية المتناسبة في الموسيقا، مبنية على فيزياء الذبذبات البسيطة. ولقد كان طموح فتحي- الطموح الأكبر له- أن يعطي هندسة ذات كميات كبيرة ترفع موضوع المادة إلى أقصى بعد روحي، وهو يعتقد أن هذا كان أيضاً هدف الفراعنة.

بدأت تجربة فتحي في فنّ العمارة في المناطق الجافة بـ «القرنة الجديدة» التي خططها في الأصل لسكنى / ٩٠٠/ أسرة. ولقد كانت رؤياه في هذا المكان مزيجاً من الواقعية الإجتماعية والرؤية الطوباوية. وتم تقسيم المنازل على شكل أقسام تفرض التنوّع في خط التنازل. وقد راعى فتحي في تصميمه المساحة الضرورية لحيوانات الفلاح على مستوى مساحة كل منزل، وفصل حجرات النوم في وضعها على مستوى أعلى. ويشير استخدامه اللبن الطوبي في بناء الحظائر إلى المرونة في خدمة الاحتياجات الملحة

للسكان، وأعطى البيوت في «القرنة الجديدة» صورة مختلفة حيث يشارك التصميم الواحد قرى غرب أسوان في الشكل.

بنيت قرية «القرنة الجديدة» عام ١٩٤٨ وقد صممت أصلاً لحساب الآثار المصرية، وهي أكبر المشروعات العامة شهرة واكتمالاً ونجاحاً منطلقاً فتحي من مقولة «العمارة من أجل الفقراء» التي أصبحت عنواناً لكتاب ألفه فتحي بهذا الصدد. وتعد منجزات هذا الفنان كبيرة بحق على مدى مراحله جميعاً نذكر منها «بيت الملك»، بيت قليني، بيت بابل، مزرعة الجمعية الزراعية، عزبة البصري، مزرعة العمري، منزل سعيد، بيت سيف النصر، قرية القرنة الجديدة، لولية الصحراء، استراحات متعددة، دير الرهبان، بيت الأصطبولاري، مصنع السيراميك، المدرسة الابتدائية في فارس، جامعة وسط الجزائر، الجامع الكبير، مركز التدريب، مركز الأقصر الثقافي، المنزل الجبلي، المعهد العالي للانترولوبوجيا والفن الشعبي، قرية باريز الجديدة، استراحة الرئاسة، منزل صدر الدين آغا خان، دار الاسلام في نيومكسيكو- الولايات المتحدة- وسواها وسواها... ومنها المساكن المركبة في العراق.

صمم فتحي هذه المساكن المركبة العراقية لحساب وزارة التنمية في حكومة العراق العام ١٩٥٩. يرتبط المشروع المركب بخطة أساسية لمدينة جديدة وتصميم معماري مفصل لواحد من أجزائها أو مربعاتها. فبالنسبة للمجتمعات الإسلامية التقليدية يضم كلّ مربع مسجد، وحمام، ومقهى، وسوق مفتوحة، ومساكن.

وطالب مشروع (فتحي) أيضاً بحدائق ومركز إداري، مع ميدان للقرية. وتتحدّد أبعاد المربع مع المسافة التي يصلها صوت المؤذن دون مكبرات للصوت عندما يؤذن للصلاة من فوق المئذنة؛ وهناك مجموعة من المباني بنيت في الخطة من أربعة إلى سبعة طوابق في بلوكات يسكنها الرسميون والعائلات التي لاتعمل بالزراعة والحرفيون وعائلات المزرعة،

ويرتبطون معاً في الداخل بشبكة من طرق المشي، والمساحات الخضراء، ويرتبط هذا المربع بالشكل الحضري الأكبر بشوارع ومواصلات وطرق سريعة مقسّمة.

أمّا الجامع الكبير فقد تم تصميمه عام ١٩٦٠ مع رابطة الصداقة، ويقع في الباكستان، وصمم لحساب حكومة الباكستان، ويضم التصميم بهو أمامي يطل على منظر طبيعي، والمسجد مع البهو محاط بمساحات مغطاة بالطوب الأحمر في شكل لوحات مجسّمة، ويتميّز المحراب بقبّة جيوديسيّة، أي أقصر خط بين نقطتين على سطح معين.

هذا ولقد قام الفنان حسن فتحي بتخطيط مدينة (نصر) بالقاهرة في الستينات من القرن العشرين، وهي أحد أهم ضواحي القاهرة الأكثر جذباً للسكان حالياً لما تتميّز به من رحابة واتساع شوارعها ومساكنها.

* * *

دراسة

المرأة في اللغة

ظل الرجل يتأملّ المرأة «التي هي جزء منه» من أجل فهمها، فوقع في اختلاط لامخرج منه، وحيرة مؤرقة، فطوى صفحة التأمّل معلناً أن المرأة لم تخلق لنفهمها، وإنما خلقت لنحبها و«نروضها ونبعدها عن كل ماقد يزيد من غموضها وقوتها الكامنة فيهاكمون النار في الكبريت». وكانت أنجع وسيلة اعتمدها الرجل لبلوغ ذلك، حسب الناقد العربي السعودي عبد الله محمد الغذامي، هو تذكيره للغة وحرمانه للمرأة من الكتابة وحبسها في حريم الحكي الشفهي المظلمة.

فما أسباب هذا التذكير اللغوي والانحياز للرجل على حساب الأنثى؟ ومامفهوم تذكير اللغة وطرق الخروج من هذا الحيّز الذي يعد،

حسب تحليل الغذامي، أحد الأسباب والنتائج لما مارسته الثقافة الذكورية من إرهاب منظم ضد المرأة؟ وهل تذكير اللغة خاصيّة مشتركة بين كل اللغات بما فيها اللغة العربية؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كثير تُطرح بإلحاح على القارئ وهو يتابع معطيات صفحات كتاب الغذامي الموسوم بـ «المرأة واللغة»، وذلك وفقاً لمراجعة رشيد الإدريسي [٣]، الذي لم يشأ عرض الكتاب بقدر ماأراد الوقوف عند تحليله، وماذلك إلا لأن أي عرض مهما كان مستفيضاً لايغني عن قراءته والتنقل بين فصوله المتنوعة، وقد هدف من هذا التحليل تقديم مايوافق أفكار الغذامي من المعطيات والمناقشات ومايعارضه منها وبيان حدود بعض تأويلاته.

الكتاب، حسب الإدريسي، يفيض بالطريف من الأفكار، وينطلق من منطلق اللغة ليطرق موضوعاً طالما شغل المصلحين الاجتماعيين؛ وهو حق المرأة في الوجود والكرامة، وحقها في الكشف عمّا عانته وتعانيه لتحسيس الرجل بجسامة مااقترفته يداه في حقها طوال «ستة آلاف سنة من النظام الذكوري، ومن الهيمنة التي مارسها على المجتمع بجمله» كما يقول رجاء جارودي في ص/ ٧/ من بحثه «في سبيل ارتقاء المرأة، الصادر عن دار الآداب ببيروت سنة ١٩٨٨ بترجمة جلال مطرجي.

وقد شغلت مسألة التذكير والتأنيث في اللغة كثيراً من الباحثين الذين عرفوا باهتمامهم بقضايا المرأة، ويمكن الاكتفاء هنا بذكر كتاب واحد يحمل عنواناً غنياً عن كل تعليق، حسب الإدريسي، هو كتاب (ديل سبندر) الموسوم بـ «الرجل صانع اللغة MAN MADE LANGUAGE الذي تذهب فيه مؤلفته إلى أن الرجل هو واضع اللغة الانكليزية، وأنه يسيطر عليها سيطرة تامّة، تركيباً ودلالة؛ مما يجعل اللغة تنطوي على تحيّز واضح للمذكر، يتحوّل مباشرة إلى تحيّز ملموس على أرض الواقع، وهو التحيّز الذي يكشف عن نفسه في تفضيل الرجل على المرأة، وجعل الذكر أصلاً

والأنثى فرعاً. فما الخلفية الثقافية التي تجعل من الذكر أصلاً ومن الأنثى فرعاً؟

وفي معرض رد الإدريسي على هذا السؤال يورد قصة آدم وحواء كما وردت عند ابن كثير، في تفسيره التي أغفلها الغذامي والتي كان من الممكن استثمارها بغية تعميق الفهم في هذه القضية المختلف حولها. ذلك أن آدم، وفقاً للميثولوجيا المتوارثة والمتداولة هو (المذكّر) وهو الأصل الذي عنه تفرّعت حواء (المؤنث). وهي لم توجد مباشرة بعد وجوده وخلقه، بل تطلّب الأمر، حسب الرواية التوراتية، فترة إلى أن أحسّ آدم بالحاجة إلى معين، وبعد أن دعا جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء محددة، فتسمية أشياء العالم، دائماً حسب هذه الرواية، أطلقت والأنثى غائبة، فكان من الطبيعي إذن أن يستحوذ المذكر على اللغة ويغلب على المؤنث الذي هو فرع عضوي «بيولوجي» من المذكر والذي لم يخلق إلا بعد أن تمّ إطلاق الأسماء وتشغيل آلة اللغة المعجزة. «حواء ولدت من ضلع آدم» كما تشير بعض الكتب المقدسة.

فهل تم الأمر على هذا الشكل؟ وهل الرجال بعد أن كثرت أعدادهم بفضل المرأة الولود، وهم ينوّعون في اللغات، ويبتكرون الألسن، ويخرجون بعضها من بعض، تحكمت فيهم رموز هذه القصة (آدم وحواء) بطريقة لاشعورية، فطبعوا بها لغاتهم في صورة تغليب المذكر على المؤنث؟ إن الأولية في اللغة للذكر على الأنثى؛ لأنه، في الواقع، حسبما تحمله الذاكرة الإنسانية، وجد الرجل في غياب المرأة، فلما ظهرت هذه الأخيرة التي هي جزء مختلف عن الرجل، تطلب الأمر إظهار هذا الاختلاف في تسميتها وفي صفاتها وفي كل مايرتبط بها، فأضيفت تاء التأنيث أو غيرها من العلامات اللغوية حتى يتم تمييز مجالها في مجال الذكر. وهذا تفسير محتمل «لتحيّز» اللغة للذكر على الأنثى وهو صحيح على الأقل بالنسبة إلى

اللغات التي تمت في بيئات شاعت فيها هذه القصة (آدم وحواء) أو مايشبهها، وهو قد يُعتمد سبباً من ضمن الأسباب الخفية والمعلنة التي قد تكون وقفت وراء تذكير اللغة، وهو لاينفي وجود أسباب أخرى قد تكون أبسط وأقدر منها على تفسير هذه الظاهرة

يذهب عبد الله الغذامي إلى أن الضمير المذكر في اللغة العربية يسيطر كسيطرته في اللغات الأخرى، فالتذكير عند الغذامي «هو الأصل، وهو الأكثر، ولن يكون التذكير أصلاً إلاّ إذا صار التأنيث فرعاً. ومن هنا فإن الفصاحة ترتبط بالتذكير، فتقول عن المرأة: إنها زوج فلان، وليست زوجة فلان إن كنت تتحرّى الفصاحة والأصالة». / ص٢١/.

وقد توصل الأستاذ الغذامي إلى هذه النتيجة اعتماداً على ذكره لظواهر لغوية ارتبطت بالتذكير أكثر من ارتباطها بالتأنيث، واعتماداً على أقوال ترى أن تذكير المؤنث واسع جداً؛ لأنه ردّ إلى الأصل كما يقول ابن جني في الخصائص أو مايقوله عبد الحميد الكاتب من أن «خير الكلام ماكان لفظه فحلاً ومعناه بكراً»، فيذهب «للرجل بذلك أخطر مافي اللغة (اللفظ) بينما يخص المرأة بالمعنى الذي ليس له وجود أو قيمة إلا تحت مظلة اللفظ». الغذامي / ص٧/.

وبعد أن يبيّن الادريسي أن ماقاله عبد الحميد الكاتب يمكن أيضاً أن نربط اللفظ «بالأنثى» و«المعنى» بالذكر، لأنه جمال أوجه، وإذا كانت هذه القراءة غير صحيحة لهذا الاعتبار أو ذاك فمن الممكن قراءته قراءة متحيّزة للمرأة من خلال تركيزنا على أهمية المعنى وقيمته في تثمين اللفظ.

وقد أراد الإدريسي من هذه القراءة المزاجية، الأهوائية، أن يبيّن إمكانية وجود القراءة القسرية للنصوص القديمة وتحميلها أعباء أكبر من طاقتها، ويبدو أنه في مثل هذه القراءة أراد الإشارة إلى أن الناقد الغذامي سلك هذا المسلك في قراءته بعض الوثائق التي اعتمدها خدمة لبحثه، وكان

منهاقول عبد الحميد الكاتب الذي ذكرناه قبلاً. ثم رأى الإدريسي أن الغذامي اعتمد الدخول على القول بمعنىً يحمله مسبقاً، مع محاولة جرّه قسراً إلى دائرة الحقل الدلالي الذي شكله من قبل. أي ذكورية اللغة وتحيّزها للرجل، قبل أن فحص وتشريح لملفوظات هذا القول.

والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة إلى «الفصاحة» وربطهابالمذكر، فالمذكر ليس دائماً قرين الفصاحة، بل قد يأخذ مكانة التأنيث أحياناً، فهاهو الذكر الذي يقال إنه رجل اللغة، وذكّر اللفظ وجعله فحلاً، هذا الذكر نجده، في اللغة العربية على الأقل، عندما يبلغ أعلى دراجات العلم والمعرفة، فيسمّى تسمية الأنثى، فيقال له «علاّمة» فتصبح تسمية الأنثى أكثر دلالة وبلاغة من تسمية «عالم» المذكرة العارية من التضعيف والتاء، والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة إلى أكثر من لفظ؛ فالشديد الطغيان يقال له «طاغية» والعاكف على البحث يقال له «بحّاثة» والمكثر من السؤال يقال له «سؤلة» وهلّم جرا.

اللغة العربية، كما يراها الإدريسي إذن بخصوص هذه المسألة بالذات، تُسعف على إثبات الشيء وعكسه، وأنها محيط من الألفاظ والأقوال المترادفة والمتناقضة والمؤكدة لما ينفيه جزء منها والنافية لما يؤكده جزء آخر، والقارئ يدخل عليها بفرضية من الفرضيات (تأنيث اللغة أو تذكيرها) فينشط فيها العناصر المؤكدة لفرضيته، ويعقم تلك التي تحظى بأكبر قدر من القرائن المؤكدة لها.

ويرى الإدريسي أنه إذا ماوقف عند الفرضية التي انطلق منها الغذامي فإنه سيجد أن لها، بالفعل، من القرائن مايؤكدها ويعضدها، وإن سلك الغذامي لإثباتها «طريقاً وعرة» طريق الدخول من اللغة التي تسعف كلّ من ملك زمامها إلى إثبات مايروم إثباته.

لاشك أن أول مايؤكد فرضية ذكورية اللغة، هي تلك القرنية المرتبطة

بالتاريخ الذي يثبت بأن الأنثى كانت فعلاً مضطهدة، وأنه قد مورست عليها شتى أنواع الحيف والفصل من طرف الرجل الذي قد يكون هو الآخر قد ذاق أكثر مما ذاقت المرأة من آلام، وهنا كذلك يقف التاريخ شاهداً على ذلك. إلا أن الفرق بينهما، حسب الإدريسي، هو أن ماذاقه الرجل من اضطهاد، مارسه عليه في الغالب رجل مثله، كما أن اتجاه الاضطهاد ليس ثابتاً، فقد يتحول المضطَهَدُ في هذه الحالة إلى مضطَهِد فينتصف لنفسه، أمّا الأنثى فهي لم تُضطهَد من طرف أنثى مثلها، بل من طَرف ذكر بائن الاختلاف عنها، وهو اضطهاد غالباً مامورس في اتجاه واحد: [ذكر ــــــ أنثى]، وبذلك فقد يسّر هذا الاختلاف البائن، ويسّرت هذه العلاقة الأحادية الاتجاه، تَبين الطرف المعتدى عليه ومحاولة انصافه، وتحسيس المتلقي بما مورس ويمارس عليه من حيف وضرورة رفعه عنه، وهو ماحاول القيام به الأستاذ الغذامي في كتابه هذا بألمعيته المعهودة.

وعلى كل هذه الاعتبارات، فإن ذكورية اللغة العربية كما يذهب إلى ذلك الغذامي، وقبله المهتمون بمسألة المرأة، مسألة قابلة للمنازعة، ولايمكن التسليم بها قياساً على ذكورية اللغات الأخرى التي ثبت بأكثر من دليل على أنها بالفعل منحازة للمذكر على المؤنث، وبغض النظر عن ذهاب علماء العربية إلى أننا نستعمل جمع المذكر في مخاطبة جماعة النساء إذا كان بينهنّ رجل واحد، فإنّ هذا الرأي يبقى نظرياً ليس غير، إذ يكفي ليجد المخاطب نفسه أمام ثلة من النساء، حسب الإدريسي، يذوب فيها رجل واحد ليستعمل جمع المؤنث بطريقة تلقائية.

ويخلص الإدريسي إلى نتيجة هي أن العربية، حسب المعطيات المذكورة، ليست ذكورية ولاأنثوية بل هي مفتوحة على المذكر وعلى المؤنث، وهما متساويان في الاستعمال لم يكن التأنيث أحياناً أحسن من التذكير كما بيّن ذلك الزركشي.

أمّا نحن فإننا نقول لكلٍّ من الأخوين الأستاذين الغذامي والإدريسي.

لقد أغفلتما معاً أن «اللغة» التي تتماحكان فيها هي مؤنثة بحد ذاتها وهي التي أوجدت الضمائر المذكر منها والمؤنث، كما أن «المجلة» التي تنقل ماتكتبون مؤنثة و «المعرفة» مؤنثة و «الثقافة» و «الحقيقة» و «البلاغة» و «الفصاحة» و «الجريدة والإذاعة والمحطة والسماء والأرض والدنيا والآخرة والجنة والنار» كلها مؤنثة، وإذا كان الدعاء مذكراً فإن «الصلاة» مؤنثة وهما بمعنى واحد، وقد شاع المؤنث «الصلاة» لتكون أصلاً بينما ظل الدعاء المذكر فرعاً! . فهل يعيد الباحث العربي السعودي د. عبد الله محمد الغذامي النظر في بعض ماورد لديه من معطيات؟ . ربما .

* * *

روايـــة

سبعة أبواب

نظر الناقد العربي المغربي عبد العالي بو طيب[٤] في ثلاثة نصوص روائية للأديب والمفكر العربي المغربي أيضاً عبد الكريم غلاب، هي على التوالي: «سبعة أبواب، المعلم علي، صباح ويزحف الليل» وقد أعطى عنواناً لنظرته هذه هو «بلاغة الاستهلال» .

من الواضح بقوة أن الأخوة المغاربة يلحون على مسائل الاستهلال في الأعمال الإبداعية إلحاحاً يشي بأن مثل هذه الاستهلالات أو الافتتاحيات تشكل مفاتيح الأعمال التي يتناولونها، رغم أن إلحاحهم هذا يشي أيضاً بأن الاستهلال يكاد ينفصل عن المعنى العام للنص المعني بقراءتهم! . مع ذلك سنكتفي هنا بالوقوف عن رواية «سبعة أبواب» وفقاً لما قرأها عبد العالي بوطالب منطلقاً من «الاستهلال» الذي ألمحنا إليه . علماً أن الناقد يخبرنا منذ كلماته الأولى بأنه سيكتفي بالنظر إلى نصوص عبد الكريم غلاب الروائية

«بطريقة مجهريّة تبثّر الاهتمام على خاصيّة محددة» ، اعتقاداً منه بأن المقاربة البانورامية عاجزة عن تحديد خصوصية الكتابة . وهكذا ، ستكون الجزئية التي ستستأثر باهتمام الناقد هي الجمل الاستهلالية ، أو المطالع Incipits في روايات غلاب .

ويرى الناقدأن «المطلع» يعني في السيميائية النصيّة المتوالية السردية الأولى بما هي «عتبة استراتيجية» يتحقق فيها شروع النص في الوجود ، أي في المرور من مجال الواقع إلى مجال الخيال ، من الماقبل إلى المابعد ، وذلك بوساطة «محفل سردي» سيمكن النص من الانبساط التدريجي كديمومة خطابيّة في فضاءي الكتابة والقراءة . ويتفاوت طولُ المطلع من رواية إلى أخرى . كما يكتسي أشكالاً متنوعة تحدّدها طبيعة البنية التلفظيّة الشاملة التي تندرج فيها ، ويضطلع بوظائف مختلفة بحسب الجماليّة الروائية التي يستند إليها النص . ثم يشير الناقد إلى أن الخطاب النقدي والبلاغي العربي القديم قد عُني بـ «مطالع» النص الشعري (أو «ابتداءاته» واستهلالاته» و«افتتاحاته») من حيث انتاجها لآثار أسلوبية .

بعد ذلك ينتقل الناقد إلى «فحص المطالع» التي استهلت بها روايات غلاب ملفوظها الحكائي ، بهدف تحديد وظائفها ودلالاتها . فيخبرنا أن «مطلع» رواية (سبعة أبواب) تكتنفه ، مثل كلّ استهلال روائي مشكلة الحدّ الذي ينتهي عنده ؛ وهي المشكلة التي «ستنحلّ من تلقاء ذاتها» بالاستناد إلى نصّ المطلع نفسه . وبالفعل ، حسب الناقد ، تُعلن نهاية المطلع عن نفسها بالتحولّ من صيغة الخطاب التي تميّز عتبة الرواية التي تقول : «لم تكن المرة الأولى التي عرفت فيها السجن ، ولذلك لم أكن لأتهيب السجن كما يتهيّب الأطفال باب المدرسة لأول مرة ، ولم أباغتْ بالسجن يُصدر حكماً من فم القاضي أو رئيس الشرطة . كما يباغت الخارجون عن القانون حينما لايتوقعون نتيجة مايرتكبون ، بل إني كنتُ أسعى إليه عن عمدٍ وسبق إصرار كما يقول رجال القانون» / ص٩/ إلى صيغة سرديّة خالصة تنفتح . يقول

السارد، المؤلف، «واقتربتْ محنة عشرين غشت وابتدأت تتجمّع نذر الكارثة في الآفاق»/ ص١١/ فكأن هذا الاقتراب، حسب الناقد، إيذان بالابتعاد عن روح التعليق التي تطغى على الخطاب، وهذا الابتداء مؤشّر على انتهاء نبرة التقرير الذي تطبعه.

ولعلّ الانطباع الفوري الذي يرتسم في ذهن المتلقي، لدى مباشرته اقتحام مطلع الرواية، هو أن هذه- باعتبارها جوهراً نصياً في طور الوجود، أي في بداية تخلقها- تحيل على جوهر آخر غير نصيّ يتمتع بوجود قبْليّ، وذلك بدليل أن ابتداءها بهذا الملفوظ «لم تكن المرة الأولى التي عرفت فيها السجن»، يفيد ضمنياً بأن السارد قد عرف السجن من قبلُ مرات عديدة. وهذا يعني، من جهة، أن السارد- ومعه القارئ المفترض- مايزالان متعلقين على نحو وثيق بعالم سابق على السرد والكتابة، هو العالم الواقع.. ويعني من جهة أخرى أن ملفوظ «المطلَع» هو ذلك المجاز النصيّ الذي يَعْبر فيه كلّ من السارد والمسرود له من عالم الواقع ذاك إلى عالم التوقّع، أي إلى عالم التخييل الروائي، الأمر الذي يجعله في موقع التّخم.

وكما هو شأن سائر المطالع، فإنّ هذا العبور قد تمّ بنوع من العسف. فالنص لايدشّن محكيّة مثلاً بإعداد القارئ لاقتحام عالمه بتعابير مثل «يُحكى أن...» بل يحتال في اقتلاعه من واقعه وقذفه بقسوة إلى واقعه الخاص. وسيكون هذا القارئ في آن واحد التجربة التي سيعيشها- بحكم رجحان تماهيه مع الأنا المتلفّظة- وذاكرة لما عاشه، بحيث أن الكلمات التي سيشرع في قراءته؛ من دون أن تكون بعد مرجعيّة أخرى غير مرجعيّة العالم الذي يكتنفه والذي سيبارحه بعد حين، تفترض أن بينه وبين النص تجربة مشتركة تتعلّق بعالم الممكن والمحسوس.

فلئن كان هذا المطْلع يحتل، مثل كل مطلع، موقع التّخم كما تقدّم، أي «الحدّ بين الصمت والكلام، بين الماقبل والمابعد، بين الغياب والحضور»،

فإن هذا «لايعني الحدّ بين العدمَ والوجود، لأن أي عمل أدبي لاينبني على العدم، فلا يمكن للشروط التاريخية والاقتصادية والإجتماعية والايديولوجية والفكرية والنفسية واللغوية التي تسبقه أن تكون فراغاً» على حد تعبير جين رايموند. وبالفعل تعلن رواية «سبعة أبواب» عن انخراطها في التخييل بواسطة متوالية خطابية استهلالية ذات نبرة مزدوجة تختصّ بها عادة لغة التأملات والخواطر: نبرة استطرادية «كنت، إذن، أعرف المصير وأسير في طريق السجن راضياً مطمئناً. وقد دهشت حقاً إذ مرّت مناسبات مهمّة لتصفية الاستقلاليين والمثقفين والعاملين، ولعزلهم خلف الأسوار العتيدة أو وراء الأسلاك الشائكة والمراكز المنعزلة. ولكني رغم الدهشة كنت أومن بأن دوري آتٍ فيه» / ص١٠/ .

وتبرز هذه المتوالية الخطابية على خلفية ضمنية من الاشارات المادية المشتركة بين القارئ والنص، والتي تدلّ على مناخ تاريخي واجتماعي ما، وتحدّد بالتالي عتبة إدراك معيّن. فإضافةً إلى كونها فضاء يتحقق فيه «أثرُ الواقع» بامتياز، فالمتوالية فضاء يعكس سياقاً سياسياً محدّداً في لحظة تاريخية محدّدة كذلك، ألا وهي «ثورة الملك والشعب» في أوغست ١٩٥٣، ومساهمة المؤلف / السارد في إشعال فتيل تلك الثورة- وهو ماقاده إلى السجن، إيماناً منه بضرورة الالتزام بقضيّة الوطن واتخاذ موقف ضد قوى النكوص والخيانة.

ولاريب في أن مايقوّي أثر الواقع في المطلع هو أن السارد، كما يراه الناقد لايباشر وظيفة الحكي فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى التورّط في الأحداث المحكية، مستعملاً ضمير المتكلم. فهو إذن ساردٌ «داخل حكائي» أي مشخّص في المحكي. وقد خوّلته هذه الصفة تبئير السرد على ذاته دون سواه من الشخصيات أو الأماكن أو الأزمنة. فزيادة على إهماله تحديد مكان الحدث المحكي في المطلع وزمانه- وهو مايعني تأجل سيرورة الانتقال من الواقع الى المتوقع- فإنه يستأثر بامتياز البروز على حساب باقي

الشخصيات، متخذاً من نفسه بؤرة لخطابه. ألا يتعلّق الأمر في (سبعة أبواب) بـ «ذكريات تصوِّر تجربة حية عاشها الكاتب فعلاً، وهي تجربة السجن ستة أشهر رهن التحقيق أيام الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي لتحرير الوطن المغربي من سيطرته» كما في غلاف الكتاب؟ لذلك، فهو الأنا السارد والأنا المسرودة في آن واحد بالأمر الذي أعطى لخطابه نسبة عالية من قابلية التصديق، فكأن مهمته تتعدّى السرد الموضوعي لتجربته الى الادلاء بشهادة منزّهة عن الافتراء والمغالاة، فهو بمثابة شاهد أو مؤتمن على أسرار، أو ملاحظ يحوّل حضوره النصي الى محاكاةٍ للواقع غير مشكوك في أمانتها على حد تعبير تشارل غريفل.

يتضّح، إذن، إن مايميز هذا المطلع هو كونه فضاء ينبض بآثار الواقع الذي يبدو أن المحكي يتردّد، حسب الناقد، في مبارحته من أجل ارتياد آفاق السرد التخييلي. لذلك ليس غريباً أن يستنفر في المتلقي كفايةً قرائيةً إحاليّة، تجعله منجذباً بقوة نحو الأنا المتلفّظة إلى حد التذاوت معها، وأن يضطلع بالتالي بوظيفة تحقيق التواصل بين النص وهذا المتلقي- وهي وظيفة تزدوج بوظيفة مناورته- من أجل اغرائه باقتحامه... خاصة وأن توسّل المطلع، بل والمحكي كله، بضمير المتكلّم، كفيل بتحويل القارىء من ذات مستهلكة للنص الى ذاتٍ منتجة له ومتورّطة فيه.

احـــالات

١- قواقع تسمع الصم، د. كمال الدين أبو أحمد، ضمن مجلة العربي / الكويت/ ع ٤٨٤ آذار/ مارس ١٩٩٩

٢- بحث عبد الغني داود (حسن فتحي وفن العمارة من أجل الانسانية). ضمن المجلد ٢٧ /ع٢/ من عالم الفكر/ ١٩٩٨.

٣- هل الأنثى هي الفرع، رشيد الادريسي، مراجعة لكتاب «المرأة واللغة» للباحث عبد الله محمد الغذامي. ضمن مجلة الفيصل ع ٢٨١ شباط / آذار ٢٠٠٠/ الرياض/ السعودية.

٤- مجلة الآداب العددان ١ و ٢ / السنة ٤٨/ كانون الثاني/ شباط ٢٠٠٠/ بيروت.

آفــاق المعرفــة

كتـــاب الشـــهر

حركـــة الحداثـــة ١٨٩٠-١٩٣٠

ميخائيــل عيــد

كثيرة هي الأمور التي نعرفها جيداً، حتى لتكاد تبدو بدهية أو كالبدهية، ثم نعجز عن أن نضع لها تعريفاً جامعاً مانعاً، ويكون الأمر أصعب إذا كان ما نريد أن نعرفه شأناً من شؤون الابداع الأدبي أو الفني خصوصاً والفكري عموماً. فما من ظاهرة اجتماعية أو ابداعية تولد من عدم وما من ظاهرة تصير الى العدم. فقانون «لا شيء يفنى في الطبيعة» ينطبق على الحياة المجتمعية بكل مناحيها...

كتاب «حركة الحداثة ١٨٩٠-١٩٣٠» هو الجزء الأول من الكتاب الذي يحمل العنوان «حركة الحداثة» وهو من تأليف عدد كبير من الدارسين لكنه يحمل على الغلاف اسمي باحثين اثنين هما مالكولم برادبري وجيمس مكفارلين» ويحمل الرقم (٤٠) من سلسلة «دراسات فكرية» التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق وقد ترجمه الاستاذ عيسى سمعان.

في الصفحة الثالثة من الكتاب كلام على الباحثين جيمس مكفارلين ومالكوم برادبري... وكلاهما قد درّسا في الجامعات ولكل منهما دراساته... يلي ذلك كلام على المساهمين في الكتاب وهم عشرون باحثاً، ومن طبيعة الأمور أن يكون التعريف بكل منهم مقتضباً.

في السطر الأول من المقدمة يلفت «المؤلفان» نظرنا إلى أن الكتاب لايمكن أن يكون «عرضاً شاملاً جامعاً، أو دراسة أنيقة الاكتمال ...» فأدب الحداثة «يبقى مربكاً...» ونحن مازلنا «ومن نواح هامة، ننتمي إليه» والمجادلات «النقدية التي تدور حوله لم تخرج بعد من المرحلة التكوينية»(ص٩). ومن «يعتقد أن الحركة الحداثية ذاتها مطواعة له؟»(ص١٠). وفي بعض الأوقات كانت التعقيدات بالجملة...»(ص١١)

على الصفحة(ص١٣) عنوان هو «الحركة الحداثية، تسميتها وطبيعتها...» وتحت العنوان قول ج. م. تريفليان: «بخلاف التواريخ، ليست الأحقاب حقائق واقعة. إنها مفهومات استعادية نكونها عن حوادث غابرة، وهي تفيد في تركيز النقاش، لكنها، في كثير من الأحيان تقود الفكر التاريخي الى الضلال». يلي ذلك كلام على «علم الزلازل الثقافية» حيث يشكل العقد الوحدة الصحيحة لقياس المنحنيات التي تمتد من الصدمة الأولى مروراً بذروة النشاط لتصل إلى الدمدمات المحتضرة للورثة التابعين المتفرعين عن الأصل». ثم تكون الانزياحات الأكبر «التي تصل تأثيراتها إلى غور أعمق، وتستغرق زمناً أطول، مكونة تلك الحقب الممتدة من الأساليب والحساسيات التي تقاس، بشكل ناجع، بالقرون». ثم تأتي «الجيشانات الكاسحة في الثقافة، وتلك الارتجاجات الأساسية في الروح البشرية الخلاقة التي يبدو أنها تقوّض دعائم أعتى معتقداتنا وافتراضاتنا»(ص١٣) «ففي علم السياسة، والدين، والقيم

الاجتماعية، والفن والأدب، يقع إنهدام بيّن»(ص١٥). ومع ما يكتنف ظاهرة الحداثة من «التنوع والتضارب في الآراء» فإن هناك «اتفاقاً متنامياً حول تسميتها»(ص١٦).

«والحداثة في الاستعمال العادي، شيء يسير قدماً بمواكبة السنين» «فحديث السنة الفائتة ليس حديث السنة هذه». والحداثة كلمة حاسمة لنا «لكنها مربوطة بتعاريف لحالتنا عرضة للتغير». وقد «تنفتل في المعنى حتى تصبح واجهتها في الاتجاه المعاكس». ومع ذلك «فالكلمة تحتفظ بقوتها بسبب من ارتباطها بشعور معاصر متميز: الشعور التاريخاني بأننا نعيش في أزمنة جديدة بالكامل ...»(ص١٧) مع أن التسميات «هي مجرد ستر للعيوب التي لا تحصى ...»(ص١٨) «وفي بعض البلدان بدت الحركة الحداثية مركزية بالنسبة لتطور الموروث الأدبي والفني، أما في بعضها الآخر. فقد بدت أنها تحط الرحال ومن ثم تشده»(ص١٩). وقد «غدت الحركة الحداثية اسلوباً مشاعياً على نحو خفي». وقد ارتبطت «بمقدم حقبة جديدة من اللا تقريرية والشعور الذاتي ذي الجمالية الفائقة، يشيح فيه الفن عن الواقعية والتصوير المتسم بالنزعة الانسانية صوب اسلوب، وتقنية، وشكل فضائي ابتغاء نفاذ أعمق في الحياة»(ص٢٠). «وها قد أصبح بامكان الوعي البشري وخاصة الوعي الفني أن يكون أكثر حدساً، وأكثر شعرية، لقد أصبح بإمكان الفن الآن أن يحقق ذاته». «فالعالم، الواقع، متقطع حتى يأتي الفن، الذي ربما يكون أزمة حديثة بالنسبة للعالم»(ص٢١). ذلك أن «الأزمة هي أزمة ثقافة، وهي تنطوي غالباً على رؤية غير بهيجة للتاريخ»(ص٢٢). والحداثة «فن العالم وقد تغير وأعيد تأويله» «فن التعرض الوجودي إلى الانكشاف أمام اللا معنى أو العبثية، إنها أدب الثقافة، إنها الأدب اللازب عن تقويض الواقع الجمعي والأفكار الشاملة التقليدية عن السببية، وعن تدمير الأفكار الشاملة التقليدية عن كليانية الشخصية الفردية، وعن الفوضى اللغوية التي تعقب التشهير بالافكار العامة عن اللغة، وعندما تغدو الواقعيات بكافة تخيلات ذاتية». وليست «الحركة الحداثية حرية الفن، بل ضرورة الفن ...»(ص٢٣) إنها «نزعة دولية» «لكن من العسير أن نحولها إلى اسلوب أو تقليد عالمي» إنها «جزء من فننا المحدث، وليس مجمله». إنها «حركة

من العسير الوقوع على مكان أو تاريخ واضحين لها ... »(ص٢٦) وهي متباينة على «نحو مدهش» لقد رباها الفرنسيون ثم انتقلت «ببطء الى ما بعد القنال ومن ثم عبر البحر الايرلندي حتى استلمها الأمريكيون أخيراً»(ص٢٨). ويعتبرها بعضهم «ارثاً رمزياً»(ص٢٩).

ويرى بعضهم أن في مركز زلزال التغيير كل من «باوند وإيلوت، وجويس، وكافكا»(ص٣٠). ثم جاءت الطليعية «وأصبحت السلوك الغريزي أو الراديكالي، ونحن في عصر اسلوبي جديد، انتهى فيه مشروع الانسانية والحضارة الذي حاولت الحركة الحداثية جاهدة أن تُعيد اقامته ثانية عن طريق تهديمها للشكل ... »(ص٣٣) والجدل الدائر «حول ما بعد الحركة الحداثية الآن ينضاف إلى الوفرة الموجودة في النسخ المتعددة للحركة الحداثية»(ص٣٤). واتخم العالم «الادبي» في المانية بالمصطلح «واصبح «المحدث» حتى النعت «حديث» امارة على كل ما كان عتيق الطراز وبورجوازياً»(ص٣٨). ويمكن «لكلمات من قبيل «محدث» أن تبدل مضمونها فجأة، لم من الحساسية ينحسر وينمو آخر دون تبدل في المصطلحات»(ص٤٠) وسرعان «ما يرتبط المحدث بمجموعة جد مختلفة من الصور»(ص٤١). وظهر «ليس مجرد تمدد بل انشعاب في الدافع نحو المحدث».

«وإنه لمن المغري أن نفترض أن الحركة الحداثية الانجلو امريكية والحداثتين الالمانيتين قد كانتا شيئين جد مختلفتين، حدثتا في أوقات مختلفة، واتفق ان اكتسبتا تسميتين مشتركتين في الأصل»(ص٤٥). ومع ذلك «يمكننا أن نتبين وجود روابط بين شتى التطورات الالمانية وشتى أطوار التجربة الانجلو-امريكية. لقد كان تأثير ابسن ونيتشه معروفاً منذ أمد في انكلترا وأمريكا كلتيهما»(ص٤٦). «كانت الحركة الحداثية، في معظم البلدان، مركباً غير عادي من المستقبلي والعدمي، الثوري والمحافظ، الطبيعي والرمزي، الرومانسي والكلاسي. لقد كانت احتفاء بعصر تكنولوجي وإدانة له ... »(ص٤٧) وربما تكون تدامجاً «بين المنطق وانتفاء المنطق، العقل والعاطفة، الذاتي والموضوعي»(ص٤٩). أو «ابتكار لا نهائية من العلاقات الجديدة من «الانسان والحيوان والحلم والشيء»(ص٥٠). أو هي «مركب من كافة الخبرات الممكنة»

أو من «التعددية والفوضى الحاويتين في العالم»(ص٥١). وتبقى الحدود «لا يمكن أن تكون واضحة» والنظرة الأوسع إلى الحركة الحداثية قد توحي «بسلسلة غير عادية من الاستمراريات وصولاً إلى الفن الراهن»(ص٥٤). إنها «فن عالم متسارع التحديث»، «فن عالم فارقه الكثير من اليقينيات التقليدية»(ص٥٩).

تحت عنوان «الصورة المزدوجة» يقول آلان بولوك: «كانت الحرب الكبرى التي مزقت أوروبا بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ جد هدامة في وقعها، وجد بعيدة الأثر في نتائجها»، فقد أدت «إلى أزمة عامة تلف المجتمع الأوروبي»(ص٦٠) ولم «تكن الامبريالية ببساطة نظاماً لسياسات القوة والاستغلال الاقتصادي، فقد كانت كذلك ايديولوجيا، إيماناً ...» والمجتمع «هجين، القاسم المشترك الوحيد فيه هو الثروة، متعجرف ومتباه بغلظة ذوقه ...» وثمة عدم «مساواة واضحة بين الأغنياء والفقراء» وقد عومل الفقراء كأناس «من مرتبة انسانية دنيا»(ص٦٣). وفي العقد الأول من القرن العشرين تشكل عصر انتفى فيه «الخجل، يتسم بالثقة بالنفس»(ص٦٥) «عصر يبدو أنه أعسر على الفهم من منتصف العصر الفيكتوري»(ص٦٨).

في الادب ثمة مجموعتان عمريتان الأولى مولودة في القرن التاسع عشر منها ستريندبرغ وتشيكوف أما الثانية فهي من جيل أحدث «قدر لهم أن يصيروا شخصيات أدبية في العشرينات، لكنهم كانوا جميعاً يمارسون شغلهم قبل الحرب». فالحركات الحديثة ولدت قبل عام ١٩١٤(ص٦٩) والثورة في «علم الفيزياء هي أحد أهم الانجازات الفكرية لهذا القرن»(ص٧٠) ومن الواضح «أن التاريخ ١٩٠٠ هو رسم مصطنع للحدود». ومن الضروري «الرجوع إلى ثمانينات القرن التاسع عشر ...»(٧٣) إن الزمن «يمتحن الابداع بقسوة» وفترة «العقد الأول من القرن العشرين تصمد جيداً أمام الامتحان». وقد دمرت النماذج القديمة ولم «يتم استبدالها»(ص٧٤). وما تشترك فيه «التطورات الجذرية الجديدة-في الفن، والفكر، والأدب والعلم، هو وعيها بالمستقبل»(ص٧٦).

يبدأ جيمس مكفارلين كلامه على «العقل الحداثي» باقتباس من هوغو فون هوفمانستال: «يبدو، اليوم، أن شيئين اثنين على حداثة: تحليل الحياة

والهروب من الحياة ...»(ص٧٧) وقد غدا الشعر «مجاهدة لا تطاق مع الكلمات والمعاني»، جذباً «وكدّاً لقوى العقل في الفهم»(ص٧٨). «ولم يكن الأدب وحده بل فن الحقبة بكافة عاكفاً على مدّ العقل إلى ما بعد حدود الفهم البشري». وبقيت «هيبة العلم الطبيعي والطريقة العلمية بعامة لم تبرح مقامها العالي في تلك السنوات»(ص٧٩). ويذهب الجدل «باتجاه وجود كون «وضعي» إنه «عضوية منظمة تحكمها قوانين عامة قابلة التعريف القوة الرئيسة الفاعلة التي لا تمارى فيها هي العقل»(ص٨٠). وبقي الايمان «بوجود كيان للأنا ليس بالميسور تغيير طبيعته بالتدريب الروحاني فحسب بل يمكنه، على هذا النحو، أن يساهم بفعالية في التطور الأشمل للجنس البشري»(ص٨٣). «لقد كان هناك زيادة ملموسة في حركة المرور الفكرية من كافة الأنواع، وفي التجارة الايديولوجية، وفي المبادلة الثقافية»(ص٨٥).

«ولم يكن الهجوم على الحرس القديم في الأدب -والجديد غدا قديماً بسرعة بدت للبعض مذهلة- مجرد ارتداد اسلوبي، بل مطالبة صاخبة بتغيير جوهري: مواقف جديدة، مناطق جديدة في الكشف والارتياد، قيم جديدة. وأصبح عدم التوقير بمثابة عبادة، واستحوذت القساوة على الاعجاب». «وهكذا فقد شكلوا تجمعات وتحزبات، وأصدروا تصريحات وبيانات»(ص٨٦). وقد صرح نيتشه «أقسم بأن العالم بأكمله سيمور في غضون سنتين بالاضطرابات. أنا قدر صرف» وأعلن نبذه «المطلق للأخلاقية التقليدية»(ص٨٧).

«وقد سلم العلم بأن الاستمرار في تمايز صارم بين الأشياء في الزمان والمكان وبين العقل الذي تناولها بالتأمل والتفكير لم يعد مسعفاً في توضيح طبيعة الواقع الحديث»(ص٩٢) ويرى هاينز برغ أن «العلم لم يعد يقف أمام الطبيعة كملاحظ لكنه يسلم بأنه جزء من التفاعل بين الانسان والطبيعة». وقد «تقفت التطورات الحاسمة في العلم» «التبصر الحدسي والتخيلي عينه الذي استثمر في صنع القصيدة»(ص٩٣) وحسب هندسة الابعاد «فإن الخط الواحد يمثل مجمل تاريخ الجسم خلال متصل المكان-الزمان»(ص٩٤) «وعلى وجه الحصر، فإن معاجمنا تعدم الكلمة التي تحيط بكافة طرق الربط المتنوعة فيما بين

الاضداد، والعكوس، والمتناقضات، والتي تضفر ضمن مقولة دلالية واحدة افكاراً من قبيل التقاطب (تناقض القطبين)، والثنائية، والجدلية، والشيزوفرانيا، والتركيب، والاثنينية، ويتم معها قبول جمع المختلفين البسيط»(ص٩٧) «وأن «تثبت» البصر يعني أن نركز انتباهنا على كل شيء بمفرده ونهمل ما يحيط به، أن نفهم العالم على أنه مجموع أشياء لارابط بينها». ويرى تايريزياس عدم امكان «تمييز القذارة عن العظمة». «وهو لايرى أي فارق بين الماضي والحاضر»(ص١٠١) أما بارث فيرى أن «الفكر» «هو اعداد احتمالية الكلمات»(ص١٠٢) «ويغدو العمى الوسيلة التي نتفاهم بها مع الحياة» إنه عمى الذين «يغمضون أعينهم كيما يعلموا أو يحبوا أو يموتوا» انه العمى الذي «يفضي إلى شهادة موثوقة عن مغزى الحياة الحقيقي»(ص١٠٣) «وعندما يتطلب النموذج الذي يفرضه الفكر بالضرورة على الخبرة مراجعة جوهرية، وعندما يحتاز النظام اللغوي المطلوب للتعبير بالالفاظ عن الحالة الجديدة على عطالة هائلة غريزية لا بد من تذليلها، فإن أزمة في الثقافة ومعها تدشين «مرحلة حضارية» جديدة بالكامل هي حتمية الوقوع»(ص١٠٤).

ومن «الملامح اللافتة اكثر مما عداها في الحركة الحداثية انداحها الجغرافي الواسع، وتعدد جنسيتها»(ص١٠٧) فلا غرابة أن يتكلم مالكولم برادبري على «مدن الحركة الحداثية» «وقد كانت هذه المدن، بالطبع اكثر من مجرد مراكز التقاء ونقاط عبور عارضة. فقد كانت بيئات مولدة للفنون الجديدة، وبؤرة للجماعات الفكرية»(ص١٠٨) «ولطالما كان هناك ارتباط وثيق بين الأدب والمدن. فها هنا توجد المؤسسات الأدبية الاساسية»(ص١٠٩) وقد نمّى الفن الحداثي «علاقات خاصة مع المدينة الحديثة ومع دورها كمتحف ثقافي وبيئة جديدة في آن». ثم ان المدينة «كانت جزءاً من عملية كلية لتحلل العلاقات، والالتزامات القديمة الاقطاعية والطبقية»(ص١١٠) «وفي انغماسه المطرد في المدينة آل الفنان إلى أن يقارب شرط المفكر». وحركة الحداثة هي «فن جمعي، فن متخصص، فن فكري...»(ص١١٤) واحدى المدن «تقود الى اخرى في الرحلة الجمالية المتميزة داخل تحولات الشكل». والهجرة أو «المنفى هما اللذان يحققان عضوية بلد الفنان الحديث في كثير من الأحيان...»(ص١١٥)

«وداخل المدن الكبرى تقع القرى العالمية للفنون، والبوهيميات، والمناطق المجاورة حيث جد في طلب الوظيفة الجمالية: مونبارناس، سوهو، قرية غرينتش»(ص١١٦). وكانت «الحركة الحداثية» «استقطاراً من عواصم وأمم كثيرة، ومساع وامزجة فكرية وجمالية مختلفة كثيرة»(ص١١٧).

عن «برلين ونشوء الحركة الحداثية١٨٨٦-١٨٩٦» يكتب جيمس مكفارلين» ... ففي عام١٨٨٦ تأسست جمعية ادبية فعرفت «المدينة صخب النشاط الأدبي» وولدت «حماساً ثقافياً مركزاً»(ص١١٩) ومع افول عقد «كان زخم الحركة التعبيرية على وشك استعادة الحماس»(ص١٢٠) وكانت مدن الأمصار في المانيا «مدن جامعات»(ص١٢٢) «وكان منبثا في كل هذا وذاك الشعور السياسي المكثف للعصر، الانتشاء بأن المرء قدم ولاءه للحركة الاشتراكية الديمقراطية المحظورة، والايمان المتقد بوعدها المستقبلي»(ص١٢٤).
ثم «استعرت المنافسة بين برلين وميونيخ على الزعامة الثقافية خلال السنوات الباقية من الثمانينات، وحتى بعد ذلك في التسعينات»(ص١٢٥) ونشأ «المسرح الحر» ثم نافسه «مسرح الشعب الحر»(ص١٢٨) وقد آل حل «الجدل الحداثي لهذه الأيام» إلى مناقشة الكيفية «التي تحل على الوجه الصحيح هذين العنصرين: «قطعة الحياة» و«مزاج» المؤلف» ولم يكلف بالأدب إلا «رجال الشرطة» إذ ظل الشعب بعيداً(ص١٣١). «وكان الكاتب مأخوذاً بالشوارع المكتظة أقل منه بالادمغة المحشوة بالأفكار، وفجأة يتدنى التنظيم الاجتماعي في الأهمية عن النماذج العقلية. وقد أصبح الشعار الجديد (فن الاعصاب)»(ص١٣٣) وابان بعض الكتاب «احتقارهم للمجتمع البرجوازي عن طريق السلوك الفاضح عن عمد. وعلى نحو انتقائي سلموا أنفسهم للشيطان، والفوضى-والكحول»(ص١٣٥).

ويكتب يوجين لا مبرت حول «الحركة الحداثية في روسيا(١٨٩٣-١٩١٧) حيث سارت ا قطاعية البورجوازية «جنباً الى جنب مع تبرجز الاقطاعية». وكان التغير «مديناً بشيء ما للاحتياطي في النقد ووقت الفراغ لدى الطبقات الوسطى» ولحقيقة ان الفن «أصبح مجزياً»(ص١٣٩). «واصبح النشاط الفني ذاته مهنة فيها بعض من رومانسية، وبعض من هروبية ...» وكان

الميسورون «يشربون الشمبانيا الدبقة مع عصارة الشعر الحداثي بصحبة متذوقي الجمال»(ص١٤٠). وكان هناك «عرض غير عادي للموهبة، الأدبية والفكرية التي تمور نشاطاً وفصاحة» وقد تبلور معظم «هذا في شكل محاباة ومراوغة شديدتي التطلب ...» «واستعداد للتضحية بالحقيقة في سبيل الارضاء الجمالي أو الهناءات الميتافيزيقية ...»(ص١٤١) وكانت المظالم الاجتماعية في روسيا «أوضح منها «في الغرب»»(ص١٤٢).

وتألق في روسيا ميريجكو فسكي وزوجته زينايدا جيبيوس... أما هو فمال الى استبدال الاسطورة والغموض بالرأي الفصيح وقد حبي بمواهب اسطورية «سوداوية، رؤيوية، وعادمة للفكاهة»(ص١٤٢) وكانت زوجته روائية وشاعرة... وكانت «أقل نفوذاً إنما أكثر موهبة منه». وكانت اكثر «ضبطاً للشكل وتمييزاً»(ص١٤٣). «وقد آمن بالخلاص عن طريق العملية الجنسية...»(ص١٤٤) اما «سولوفييف، فلورينسكي، بولغاكوف وامثالهم من هواة الفلسفة المتشوقين» فقد بحثوا عن المعادلة «النهائية للواقع» «والحكمة القدسية» «لكن الارتباط بين الشهواني والميتافيزيقي لا تخطئه العين»(ص١٤٥)

وشكل بيرديايف وآخرون ندوة عنوانها «نقاط علام»(ص١٤٧) وكان ما يلاحقهم «هو المأزق المستديم لليبراليين الروس من الألوان والعقائد كافة». وكان سوء حظهم يكمن في عزلتهم...(ص١٤٩)

وجاء الكسندر بلوك «القامة السامقة بين الرمزيين الروس» واستبدل «باللغة الدارجة ذات الطبقة العالية لغة البساطة». وكان «مسكوناً بصوت «الأحداث، والأشياء، والأفكار، أفكاره هو غير المنطوقة، وأوهى الاشارات التي أبانت عن مكمن مرض العالم القديم ومكان تمثيل دراما العالم الجديد»(ص١٥١).

وفي مجال «الرسم والنقد الفني» ترجع صدى بل نشأت «التكعيبية، والتكعيبية المستقبلية، والبنائية، والتجريد المحض...» ووجد فنانون «انتجوا المعادلات المرئية للديناميات في شعر مايا كوفسكي الثوري»(ص١٥٢). وقد برز عدد من الفنانين الموهوبين حقاً»(ص١٥٣)

ووقع الدور «على لينين الثوري الذي لا يلين» «الذي يستطيل ظله بينما

تزداد قامة خلفائه قصراً». والعبقرية «هي مخرج يبتكره المرء» ومخرج لينين لا يعني «تعديلاً يطال قوانين اللعبة، بل تغييراً في اللعبة ذاتها». «والعبقرية كذلك هي تجميع الخبرة المركزية لعصر المرء في حياته وعمله. «وقد جسد لينين بحث الانتلجنسيا الراديكالية» عن «الشعب» و«عن القوة التي ستعيد صياغة الحياة البشرية»(ص١٥٥). وكان مكسيم غوركي «طائر النوء البحري» الذي «دب القشعريرة في ظهور النخبة الثقافية والذي لقبوه بـ«الوعد الكبير» فقد «ابتكر صورة للانسان الذي يحمل معه كل علامات العالم السفلي المترب الذي قدم منه، إنما كذلك لكل ملامح المستقبل الذي حلم به». وكان يلزم «كثير من نفاذ البصيرة للتفريق بين آلام احتضار العالم القديم وآلام ولادة العالم الجديد». وقد رأى في الاتجاهات «الحداثية في روسيا»، «ترديا وليس تجديداً»(ص١٥٦).

«فيينا وبراغ(١٨٩٠-١٩٢٨) هو عنوان مقال فرانز كونا فلهاتين المدينتين الواقعتين «على الطرف الشرقي لخريطة الحركة الحداثية الأوروبية» سيماء «اقليمية معينة» فقد «تعددت فيهما اللغات وكانتا مركزين فكريين يموجان بأفكار على غاية من التنوع. لكنهما كانتا أيضاً في نواح عديدة تقليديتين أو محافظتين بشكل عصبي على الاصلاح». وضمن نطاقهما تم انتاج «أكثر الاعمال مركزية» وأثيرت بعض «اكثر الأفكار خصوصية مما يقرن عادة مع الحركة الحداثية»(ص١٥٨) وكان هناك «المحدثون من أصحاب الفكر الجديد، وكان هناك المحدثون على نحو مَرضي، وكان هناك المحدثون الذين تكيفوا مع الجديد كما في الموضة»(ص١٦١).

لقد «تركت تقليدية فيينا» اثراً قوياً «جاذباً على الحركة المحدثة» على الرغم من كره فرويد، وريلكه، وكافكا لها وقامت «هناك مراكز الحركة الحداثية»(ص١٦٤) وبقي شنيتزلر حتى مماته «الكاتب الفييني الممثل بشكل فائق، الذي يتلاعب ببراعة بأقنعة الحياة وخيالاتها-الفيينية بخاصة»(ص١٦٦). لكن الشخصية الطاغية في تلك الفترة هي «هوغو فون هوفمانستال (١٨٧٤-١٩٢٨)» وشعره، وهو الانجاز الاكثر طلاوة «في تاريخ الشعر الالماني» يثبت أن «ثلاثة هي واحد: الرجل، والشيء والحلم»(ص١٦٧). وقد رسم «صورة قائد أخلاقي خارج من انقاض ليبرالية القرن التاسع عشر» وقد مزج «الابداع

الفكري» بالتقليد أما الانجازات الرئيسة للحركة الحداثية الفيينية فكانت «من حجم يصعب الوقوع على ما يضاهيه في أي مكان آخر» وحيث تكون الحداثة تولد «شكلاً صحياً باللاشخصي والمجرد في الفلسفة»(ص١٦٨)

لم يعرف الأدب الالماني «في براغ» أية موجة «مبكرة من موجات الحركة الحداثية تتصف بأية أهمية»(ص١٧٠) «ولم يكد يوجد أي قاسم مشترك بين الأقليات» ولم يوجد بدوره بين الاقليات «وبين الطموحات الدينامية والوطنية للسواد الأعظم من التشيك». وقد اشتد الصدام بين «الاشتراكية والصهيونية والنزعة الوطنية الالمانية»(ص١٧١) أما كافكا فكان أحد عظماء «الكتاب الذين استعملوا اللغة الالمانية» و«كان تصوره للجنة أنها مكان يخلو من الكتب، لكنه تميز باهتمام طاغ بالاعمال الأدبية الخيالية من النوع المتسم بقوة بالسيرة الذاتية(غوته، دوستويفسكي، ستريندبرغ، غريلبارزر، كلايست، كيركيغارد) وفي الأعمال التي تستخدم اللغة في شكلها التحليلي»(ص١٧٢)

«شيكاغو ونيويورك-صورتان من الحركة الحداثية الأمريكية» هو عنوان مقال ايريك هومبيرغر... وفيه تاريخ كثيف وموجز لتطور حركة الحداثة في شيكاغو ونيويورك... فتراجع بوسطن ونشوء المراكز التجارية الكبرى في المدينتين «يشكل نقطة البداية بالنسبة للثقافة الامريكية المحدثة». وكانت نيويورك «ساحرة لكن غير واقعية على نحو مريع»(ص١٧٦). وكانت «الحداثة جد شيكاغوية، وجد بسيطة، وجد معدومة التأمل»(ص١٧٨). لكن «فضلى المجلات الصغيرة» سرعان ما انتقلت إلى نيويورك كما انتقل بعض الكتاب(ص١٧٩). و«قد كلف الروائيون والشعراء في شيكاغو، بالنتيجة، بالمادة أكثر من الطريقة»(ص١٨٠) ولا يقع المرء «في مناخ شيكاغو على أي شيء من قبيل البرامج والبيانات والكلف الاستحواذي بالاسلوب مما وجد في نيويورك والمراكز العالمية في اوربا»(ص١٨١). وقد غير المهاجرون «ثقافة نيويورك بشكل عميق». «اصبحت الروح جد جديدة، وراديكالية، وسياسية»(ص١٨٢).

وقد حاججت «انتقاذات باوند وإليوت» «بأن الفنان الجاد بحق يجب أن يكون دولياً ومتعدد اللغات ومحترفاً كما العالم»(ص١٨٥). وقد اختار الشعراء

الحداثيون في نيويورك «أن يستبعدوا معظم الاشياء التي فهمها قدامى القراء عن طريق الشعر نفسه . فقد كتبوا لجيل جديد من أقرانهم الفنانين واولئك المتعاطفين مع التجريبية الجديدة» «اما الرواية فقد كانت جنساً أدبياً أكثر ملاءمة لفن أمريكي بشكل خاص»(ص١٨٦) . «إن القلق المادي لشيكاغو ونيويورك وتلاشي الكثير مما يلقى ديمومة في انكلترا هو بمعنى ما كناية عن تدمير سلسلة كاملة من الثقافات الغابرة»(ص١٨٨) .

ويكتب ايريك كـاهم في مـوضـوع «الثـورة، المحـافظة ورد الفـعل-في باريس(١٩٠٥-١٩١٥)» حيث كـانت الصـدامـات «بين المتـمـردين الحـداثيين والمؤسسة الثقافية والسوسيو سياسية ...» وكان أبو لينير يكتب شعراً صريحاً «بتخطيه للتقليد الرمزي» وكذلك «في نبذه للماضي»(ص١٩١) . وقد حل «جو من عـــدم اليــقين بينمــا بدأت مــقــاييس القــرن التــاسـع عــشــر تفــقــد معناها ...»(ص١٩٤)

«كانت طليعة ما قبل الحرب في باريس لا تزال تسعى، في عام١٩١٨ إلى خلق ثقافة جديدة من أنقاض الثقافة القديمة في وقت كانت فيه عقائد ما بعد الحرب الثورية بكاملها تستفحل بباريس عما قريب» «وقد انبثق المناخ الثوري الذي شـوهد سـابقـاً في النقـابيـة الفـوضـوية مـا قـبل الحـرب واضحـاً في الداداتية والشيوعية»(ص٢٠١) .

ويكتب مالكولم برادبري حول «لندن١٨٩٠-١٩٢٠» يقول المؤلف «في تاريخ الحركة الحداثية كانت سمعة لندن دوماً ملتبسة» فمع ما انتجت من حركات وفترات تجريبية «على غاية من الأهمية» ظلت مدينة «تفتقر الى مجتمع فني حقيقي، ومراكز حقة، وشلل، ومقاه»(ص٢٠٣) ثم ذهب الميل «إلى تطعيم معقد للتقليد الانجليزي الموروث بالنزعات الاوروبية»(ص٢٠٧) «وكان محور الحـركـة الحـداثيـة باللغـة الانكليـزية يتـغـيـر بوضـوح . لكن المأثورات باللغـة الانكليزية-البريطانية، والايرلندية، والامريكية- تتقاطع مع بعضها وتصب في لندن»(ص٢١٠) وثما جـمـهـور «جديد غيّر من النـاحيـة السـوسيـولوجيـة اسس الانتاج الفني» . ثم بدأت «حركة الثقافة الأدبية الانكليزية بكاملها تتوجه وجهة جديدة»(ص٢١١) وشهدت لندن «حركة اضطراب فني غير عادية على مدى

السنوات الحاسمة ١٨٨٠-١٩٢٠» وغدت لندن «النقطة الأمامية لتمركز الثقافة الوطنية لاحقة وسابقة دور المدن الاقليمية الكبرى»(ص٢١٢). وقد قال بروك في عام ١٩١٠: «لست أدري أن «التقدم» مؤكد، كل ما أعرف هو ان التغير هو كذلك»(ص٢١٣) «وكانت صور التكاثر والنمو العشوائيين تكمن في قاع الثقافة»(ص٢١٤) «على أن لندن التقابلات والمواجهات الغريبة وغير الواقعية قد كانت حاضرة في الرواية منذ ديكنز»(ص٢١٥) وقد قُدّر للورانس «أن يرى مباشرة ليس فجراً بل غسقاً، عالماً قديماً يأفل وليس عالماً جديداً يبدأ»(ص٢٢٣). ومن ثم تم «الاقرار، عموماً، بأن الحركة الحداثية كانت الى حد بعيد حركة الحركات»(ص٢٢٩).

ويكتب مالكولم براد بري وجيمس مكفارلين حول «الحركات والمجلات والبيانات-تركة الحركة الطبيعية» ويوردان رأي ريناتو بوغيولي الذي يرى «أن أحد الملامح المميزة للفنون الحديثة هو وجودها في الوسط وطراز الحياة اللذين تولدت عنهما-طراز حياة الطليعة الذي يعمل فيه الفنان كنوع من محارب مغوار جمالي»(ص٢٣١). ومن تفسير البوهيمي للطليعة أن عمله «كان متكيفاً ليس مع الحاضر بل مع المستقبل» وقد ورثت «الحركة الحداثية» ذلك(ص٢٣٣). لكن على المحلل الثقافي للقرن التاسع عشر «أن يتحرى الحركة الطبيعية والتطور المنطلق منها والمتجاوز لها»(ص٢٣٤). وقد رأى بعضهم أن سلوك الطبيعتين قد احال الطبيعية إلى «قوة مستنفدة» «تعتمد على المحاكاة المتأنية اكثر من الاستيعاب التخيلي» وتنبع من رؤية إلى الحياة «محدودة» وآلية اكثر منها من فهم حدسي». «والجديد في نظرهم كان التحول في الحركة الطبيعية وليس رفضها»(ص٢٣٧). فقد «يتطور الابداع أحياناً مما سبقه» و«قد يرفضه» ثم إن التسميات «ليست دلائل حاسمة على الأساليب»(ص٢٣٨). وأحياناً «تبدو الحركة شغل جيل أو بلد بعينه» وقد لانرى «منظومة متعاظلة بل سعاراً من أشكال وطاقات فنية متنوعة التعبير والتبرير ...»(ص٢٣٩) «وليس لها من القواسم المشتركة بينها سوى الفتوة والحماس والسخط». والاسماء «المتشابهة لا تعقد روابط فيما بينها»(ص٢٤٠). والبارز في «عصر الحركة الحداثية هو التسارع الذي لاسابقة له في حركة المرور الفكرية بين الأمم ...»(ص٢٤١) «ومع ذلك، تبقى المشابهات

لافتة للنظر»(ص٢٤٢) والحركة الحداثية «كانت أكثر من الحركات، والمجلات، والبيانات التي تنضوي تحتها، وهي قريبة لأن تكون، أخيراً، اسلوباً حديثاً شمولياً»(ص٢٤٦).

ويكتب كلايف سكوت حول «الحركات الرمزية، والانحطاطية، والانطباعية» وهي حركات «لامرية في أهميتها الشاملة بالنسبة لقرننا» وما تخلّفه حقاً «هو الجدل المستمر حول الأولويات»(ص٢٤٨) ... ومع الرمزية تغدو القصيدة «حشداً من المقاطع المنطوقة الموحدة والشاملة ... »(ص٢٥٠) «في الفراغ الأبيض تكمن الواقعية الصرف للفكرة»(ص٢٥١) والقصيدة مركبة من الكلمة والنحو. والرمز من الشيء والفكرة، والحضور والغياب»(ص٢٥٢) والرمز «يلهم القصيدة بكاملها ويمكن أن تندرج القصيدة تحته كما العنوان»(ص٢٥٢). وما انجزته الثورة الرمزية هو أنها «أيقظت الشعور الحاد باللغة ولم تعد اللغة تعامل على أنها بروز الشخص بل كمادة لها قوانينها واشكال حياتها الخاصة بها»(ص٢٥٥) والفجوة التأملية «بين الشاعر واللغة مملوءة بالتحرج أو التريّب». والشعائرية «الفارغة للغة تحاكي الشعائرية الفارغة ليوم الأحد»(ص٢٥٦).

«ولعل بودلير أول من صوّر الفنان المحدث والانحطاطي على أنه شخص يمتلك جهازاً عصبياً مفرطاً في النمو» والاعصاب «هي محركات الطاقة الابداعية» اضافة «لكونها سجلات للاحساس فائقة الحساسية»(ص٢٥٨).

«والانطباعية، كما الرمزية، تفصل الخاصة النوعية عن الشيء. وهذا يؤدي في الأدب «غالباً» الى «تحويل الأفعال والنعوت إلى اسماء بينما في الرسم ينحو اللون الى تخطي الشيء»(ص٢٦٤). وتقنية «تيار الوعي» «هي نتيجة للانطباعية بقدر ما هي نتيجة للتقدم الذي شهده علم النفس»(ص٢٦٨) يقول كرونيجر «إن تفتيت عالم العقل والمادة إلى ذرات، والنسبية، والذاتية، تسم الرؤية التركيبية الانطباعية للعالم»(ص٢٧٣).

عنوان مقال ناتان زاخ هو «الحركتان: التصويرية والدوّامية» فبعد نصف قرن «على زوال شتى التجمعات» «لا تزال التصويرية موضوع النزاعات الأدبية والمشاحنات الحزبية»(ص٢٧٧) «هذا، وإن التناقضات، الحقيقية أو الظاهرة، والاختلافات متجذرة في طبيعة التصويرية بالذات»(ص٢٧٩). وتؤلف

«التصويرية حركة تنتمي الى القرن العشرين بحق. وفي هذا فهي قريبة من المستقبلية التي تشاركها بعض معتقداتها الأساسية، بقدر ما هي قريبة من التعبيرية، التي تختلف عنها في كثير من الوجوه الحاسمة»(ص٢٩١). وقد بدا «أن اندلاع الحرب العالمية الأولى يزكي الحركة التصويرية على أنها فلسفة الأسلوب»(ص٢٩٢). وقد اعادت «تأكيد أهمية الخطاب الحي بالنسبة لشعر حي. كما ادخلت الايقاعات غير المنتظمة على نطاق واسع وأكدت على أنه لا يمكن أن يتحمل الشعر طويلاً تخلفه عن النثر إذا لم يكن يرغب في أن يكون نابياً عن حساسية جديدة تنحو نحو التصلب». «وبمساواتها بين التجريد والبلاغة الفارغة» ويحظرها «الوصف والتوشية، واهمالها لتركيب الجملة، والمعمار، والتطور، والتابعية»... «ووقوعها، غالباً، في نوع من تبلد الاحاسيس وتفاهتها فقد مضت تعيد بناء القصيدة الحديثة مما اعتبرته، على نحو صائب أو مجانب للصواب؛ خليتها الأصغر، والاكثر عضوية والأكثر وثوقية...»(ص٢٩٤)

«الحركة المستقبلية الايطالية» هو عنوان مقالة جودي راوسون... وقد ظهر بيان الحركة المستقبلية أول ما ظهر في «الفيغارو» عدد(٢٠) شباط١٩٠٩ وكان كاتبه ايطالياً، فيليبو توماسو مارينيتي». وقد أعلن فيه: «من هنا من ايطاليا نحن نذيع بياننا هذا للعالم باجمعه... هذا لأننا نريد أن نحرر هذا البلد من الغنغرينا النتنة لأساتذتنا، وعلماء آثارنا، وادلائنا السياحيين وتجار عادياتنا»(ص٢٩٧). وسرعان ما اكتسبت «المجادلات نكهة شوفينية وطنية...». وكان سبب «الخلط السهل بين المستقبلية والفاشية يعود إلى هذا العنصر الشوفيني فيها»(ص٢٩٨) ونحن «نستذكر المستقبلية، في الأغلب، كحركة فنية وليس كحركة أدبية»(ص٣٠٠) لكن كانت هناك «حاجة ملحة لاعتاق الكلمات، لسحبها من سجن الجملة اللاتينية»(ص٣٠١) وكانت البيانات لا تفعل شيئاً «اكثر من أن تلخص تاريخ الحركة وتكرر تعاريف الكلمات الحرة»(٣٠٥). وقد تم «التكريز على البيانات لأنها تقدم جزئياً جوهر الحركة المستقبلية كما رآه مؤسسها، وكذلك لأنها الصيغة الأدبية للحركة بامتياز»(ص٣٠٦). وقد اعلنوا في بيان١٩١١ «يجب أن تطغى الكلمة ايطاليا على الكلمة حرية». وكان الاساس «الايديولوجي معادياً للكهنوت ومعادياً للاشتراكية...»(ص٣١٠).

عنوان مقال ج . م . هايد هو «الحركة المستقبلية الروسية» . ويبدأ بقول فلاديمير مایاكوفسكي «الموهبة الأكبر إن لم تكن الاكثر تجديداً وابتداعاً في الحركة المستقبلية في الأدب الروسي» عن نفسه بأنه «زرادشت الاكثر صخباً في عصرنا . على أن هذا لم يكن اللقب الفخم الوحيد الذي أطلقه على نفسه»(ص٣١٩) . ولم ير النقاد «في أعمال مایاكوفسكي وأصدقائه أكثر من اسراف فاضح ودعاية ذاتية»(ص٣٢٠) . «وقد صورت الانفعالات البشرية العظيمة بصورة درامية ... »(ص٣٢١) والحركة «المستقبلية الروسية، خلافاً لنظيرتها الايطالية، لا تسعى إلى ميكنة الانسان بقدر ما تسعى إلى الاحتفاء بالانسان كمنتصر على الطبيعة» . وكانت البلشفية كما نوه المستقبليون «تشابه حركتهم في أنها مسعى للامساك بالمستقبل وربطه من ذنبه بعربة الثيران التي تمثل الحاضر والتي تدج في سيرها ... »(٣٢٢)

ويقع «الجهد لتحرير الكلمة ذاتها مما غشيها من التقليد الأدبي الموروث في المركز من الجانب الجمالي للحركة المستقبلية» والقصيدة المستقبلية «هي المثقب الذي يغلق الصخر ليظهر المعدن الثمين للعيان ... »(ص٣٢٤) وقد رأوا أن «وطن الفن هو المستقبل» . والشعر «يتقيد بقوانينه الذاتية الخاصة به، وتختزل وظيفته التواصلية الى الحد الأدنى . وتماماً مثلما أن قوام الفنون الأخرى بكافة هو تشكيل «المادة» المشروعة ذاتياً كذلك يفعل الشعر : ف«مادته» هي الكلمات»(ص٣٣١) . ويلاحظ جاكوبسون «أن الصعوبة والاحساس بالغرابة في النصوص المستقبلية ترغم القارئ على المشاركة في عملية تحققها»(ص٣٣٢) . وحدثت «ثورة في النقد واعادة تقويم جذرية للأدب الروسي الأول والادب الاجنبي» . وكان الشكلانيون الروس «هم الذين ساهموا اكثر من غيرهم في السيميائية الحديثة»(ص٣٣٥) .

والحركة المستقبلية «لم ترفض الماضي كما هو، بل فقط محاولة شرعنة الاساليب البالية في الزمن الحاضر» . وبقي مایاكوفسكي «أحد الكتاب الاكثر اقتباساً والأقل فهماً في العالم» . واستمرت المستقبلية «في شكل الحركة البنائية إلى الثلاثينيات لتخمر عجين الواقعية الاشتراكية ولتلهم الفنانين خارج الاتحاد السوفياتي»(ص٣٣٦) .

ويكتب ريتشارد شيبارد في موضوع «التعبيرية الالمانية» هذه التعبيرية التي لم يكن لتسميتها «أية مدلولات أدبية» في البداية»(ص٣٣٨). والحركة التعبيرية الأولى «لم تكن ايديولوجيا يعتنقها الجميع بل، ببساطة، تفاعل أفراد مبدعين مستقل بعضهم عن بعض». انهاسلسلة انفجارات «اكثر منها حركة لها برنامجها الخاص»(ص٣٣٩). ويشمل المصطلح «حشداً من الناس يعملون في ميادين متنوعة -الشعر، المسرح، الرسم، السينما، العمارة- ولا يسلس قياده لتعريف بسيط». وقد رأى التعبيريون أن «مؤسسات الرأسمالية الصناعية كانت تعطل وتشوه الطبيعة البشرية باظهارها العقل والارادة في خدمة الانتاج المادي واهمالها الروح والمشاعر والخيال»(ص٣٤٠). «إن ثمن النظام الاجتماعي السائد هو «مكننة الروح»، وتحويل الكائنات البشرية «إلى علاقات ووظائف» غير متجسدة»(ص٣٤١). وانحصرت الروح البشرية «داخل عالم جواني لم تفتأ أبعاده عن الانكماش...» وقد رفض التعبيريون ايضاً «الفن الانطباعي والادب الانطباعي...» لانهما يخفيان «خبث المجتمع الذي انبثقا عنه»(ص٣٤٢). وغامرت الكتابة التعبيرية «بالانحدار إلى مجرد لفظ بلاغي» وحيثما أمكن تفادي ذلك «كانت النتيجة شعراً ومسرحية يتسمان بجدة وحيوية مذهلتين»(ص٣٤٣). «وقد حاول كثير من التعبيريين، بعد أن واجهوا عالماً خالياً من كل معنى، أن يفرقوا الفراغ بذواتهم» وعندما فشلت هذه المحاولة «كانوا غالباً ينقادون إلى الجنون أو اليأس المدمر، أو يبيعون أنفسهم إلى نظام توتاليتاري»(ص٣٤٨). وقد أفلحت كل مدينة في بلورة طابعها التعبيري المميز. فقد كانت ميونيخ، على سبيل المثال، أقرب الى المركز العالمي من برلين. وقد اجتذبت بتقاليد بوهيميا الفن فيها الفنانين التصويريين من اسكندنافيا والبلاد السلافية»(ص٣٥٢).

أما الحركة الدادائية الالمانية فقد بلغت «حد الشعور الشديد بالذات جزئياً كردة فعل ضد الحركة التعبيرية الناشطة والطوباوية من الناحية السياسية التي واجهتها في زوريخ» وقد شعر الدادائيون «بأن الحركة التعبيرية الادبية «في منتصف الحرب كانت تفتقد شيئاً حيوياً»(ص٣٥٣). «وحيث وقف التعبيريون، غالباً، متوفزين فوق القرن غير واثقين من التزامهم نحوه، ينظرون، في آن

واحد، للوراء إلى ماضٍ مثالي، وللامام الى مستقبل طوباوي فإن الدادائيين قد رفضوا -رغم أن التزامهم كان دائماً تهكمياً- أن يتخلوا عن صلتهم بالاشياء المبتذلة في القرن العشرين» وكان الدادائيون مدركين نسبية «أناتهم ضمن قوام الصيرورة»(ص٣٥٤). «وحيث بدا أن التعبيريين يرغبون في ثورة مرة وإلى الأبد كان الدادائيون ملتزمين بثورة دائمة-بعملية الجري بغية البقاء في البقعة نفسها»(ص٣٥٦). وبينما «انتهت الدادائية الالمانية كالتزام ازدرائي تهكمي للذات ضد وضع سائد مترسخ، فإن التعبيرية انتهت كصرخة يأس شاك أضل سواء السبيل مفادها أن وضعهم لم يثوّر مرة وإلى الأبد ...»(ص٣٥٧).

«ويبدو ان الحركة التعبيرية في الراهن قد أصابها الاعياء بفعل الاعتقاد الخاطئ أن من الممكن تغيير العالم بحمله على المواءمة مع مجموعة من المثل موجودة مسبقاً. وبالمقابل، يبدو أن الحركة الدادائية تعلن أن الخطوة الأولى نحو التغيير تكمن في قبول الأشياء كما هي، على علاتها، وأن الخطوة الثانية تكمن في اقناع موقف ما على التغير بفعل القوة الدافعة لديناميته المتأصلة فيه، وأن الخطوة الثالثة تكمن في الضحك والقهقهة لملاحظة أن شيئاً في الواقع لم يتغير البتة»(ص٣٥٨).

ويكتب روبرت شورت تحت عنوان «الدادائية والسوريالية»: (حاولت الحركات الحداثية قبل الحرب أن تعيد خلق بنيان الجملة في الفن كيما تستوعب الخبرة الحديثة وارتأت على نحو مطرد أن الأفكار العامة بخصوص واقع ثابت لا يتغير، والانسان العقلاني الشديد الشعور بذاته وقد آلت الى الافتضاح». «قد ارتأى الدادائيون أن الواقع كان على درجة من المراوغة وعدم التماسك جعلت من المتعذر تصويره شكلياً»(ص٣٦١) والكلمات شوهت «وخانت الطابع الحقيقي للحياة من حيث هي متوالية متقطعة من الخبرات المباشرة» وزعم الدادائيون والسورياليون أنه «يجب أن يكون عمل الشاعر أو الفنان وضع كل حساسيته في اتصال مباشر مع الكون في وضعية من السلبية الواسعة». وقد عانت البلدان المنتصرة في الحرب «من انهيار الافكار والأخلاق مثير كما الانهيار الذي تعرضت له الأنظمة، والارستقراطيات، والحدود بين الدول المنهزمة»(ص٣٦٢). «وقد رحب الدادائيون والسورياليون بتحطيم البروج

العـاجـيـة»(ص٣٦٣). وكـانت «نيـويورك وبرشلونة، وزوريخ، وبرلين، وهانوفر، وكولونيـا، وباريس، جـمـيـعـهـا مـراكـز للنشـاط الدادائي» بين عـامي(١٩١٥-١٩٢٣) ولم تكن «الدادائيـة لتـقـتـرن، اثبـاتاً لهـويتـهـا، بأية شخصية، أو وجهة نظر، أو اسلوب، كما لم تستحوذ قط على برنامج متماسك واحد»(ص٣٦٤). وقد وضع اسـمـها «هوغـوبال الصوفي، الساذج صاحب العقل البناء اكثر منه تريستان تزارا الزئبقي والعدمي بشكل متنام». يقول آرب: «كنا ننشد فناً مبنياً على الاساسيات لشفاء العصر من جنونه ونظاماً جديداً للاشياء يعيد التوازن بين السماء والجحيم»(ص٣٦٥).

«نحن نؤمن بفن أخوي: هذه هي مهمة الفن الجديدة في المجتمع. إن الفن يتطلب الوضوح، ويجب أن يسعى نحو تكوين انسان جديد». ومع ظهور هذا النص «وصلت دادائية زوريخ إلى نهايتها»(ص٣٦٦). وقد شددت دادائية كولونيا كما شدد السورياليون على «أن التآلف بين العمل الخارجي والحرية الداخلية كان لا غنى عنه للحركة الثورية»(ص٣٦٨). وكان تزارا يدرك أنه «يترتب على الدادائية أن تبقى هائمة ولا وزن لها، وأنها ستموت لحظة شروعها بحمل نفسها على محمل الجدية أو اتخاذها أي موقف ثابت»(ص٣٧٠). فمع خطاب اللا شعور «فقدت الكلمات تجعداتها» «وكفت عن أن تلعب دور رجال الأمن الفكريين وأعطت نطقاً للافكار الجديدة والفاعلة»(ص٣٧٢).

ولم تكن السوريالية «بكل بساطة الدادائية» مع تغيير الاسم «وزيادة الاهداف» «كانت السوريالية وريثة التقاليد المحلية الضاربة الجذور في الرومانسية». «كانت الدادائية مبحث النجس وفضلات الانسان بينما تعلي السوريالية بصورة غنائية من شأن الحب والشهوة». وقد اكدوا «على مسؤولية الانسان عن المعنى الذي أنيط بالاشياء-اي انتقاص يطال المادة يتضمن بالمقابل تثميناً عالياً للخيال»(ص٣٧٣). قال اوكتافيو باز: «لا تقترح السوريالية كيفية صنع القصائد بقدر ما تقترح تحويل الناس الى قصائد حية»(ص٣٧٥). وعلى الفنان أن «يتنكب عبئاً ثقيلاً من المسؤولية الاخلاقية وحتى السياسية». وقد انتصرت السوريالية «للثورة ضد كل شيء يشوه حياة الانسان الجوانية أو يقيد خياله لصالح «الأمن والهدوء» القانون والنظام والدوران السلس للماكنة

الاجتماعية»(ص٣٧٦) وقد تنكرت «المجموعة السوريالية بأنواع شتى من الهيئات» فقد شابهت «الساحرات وعصابة من قطاع الطرق، وفرقة من الهراطقة أو خلية ثورية»(ص٣٧٧). وقد ألحوا دوماً على «أنه ليس هناك مراتبية في الشر» وأن كل عمل يهدف الى تغيير الحالة الاجتماعية للانسان يجب أن يترافق مع تأويل واصلاح حالته الداخلية». وقد هيمنت «على السوريالية السلطة الاخلاقية والفكرية الفريدة لاندريه بريتون» وقد لعب أدوار «المحكم، والمنظر، والأديب المبجل، والضمير، والنبي، والقدوة الحسنة، وعندما تقتضي المناسبة سيد الفوضى والاضطراب». والتنوع الواسع «في ما انتجته السوريالية من أعمال، والتطور المستمر لطروحاتها الأصلية يشكلان برهاناً على القدرة العظيمة على التجدد الذاتي». وظل «العمل الفني وسيلة السورياليين اكثر مما هو غاية نشاطهم»(ص٣٧٨). «لقد كان الهدف الثابت للفن السوريالي هو إبانة درجة نفوذية العالم للخيال»(ص٣٧٩) والسورياليون «يجلون الحب على أنه العمل السوريالي الذي يُحتذى لأنه يحقق الانصهار الذي يبدو مستحيلاً بين «الذات» و«الاخر» لأنه تحدٍّ دائم للمعادلة الناكرة للحياة، معادلة النافع والجيد، ولأنه التجلي الأسمى لمبدأ اللذة. أما شاعر الحب بامتياز فقد كان بول ايلوار» فقد احتفى «بالحب بطهارة بسيطة أسبغت قداسة على الشهوانية الدنسة»(ص٣٨٠).

والسورياليون «يدافعون عن مزيد من تحكم الانسان بمصيره، وهم ينقبون خلف فوضى الخبرات والتجارب على مبدأ أسمى من النظام» ويتوخون «ظهور عقلانية أغنى واكثر علانية من المواجهة بين العقل ونقيضه. وهم ليسوا صوفيين باطنيين». ويرون أن «الحاجة ملحة لعلاج مادة الانسان مثلما هي ملحة لعلاج حرمانه الروحي».

وتبقى مسألة ما اذا كان الانسان الكامل «في عيني المجتمع الذي فيه نعيش «جريمة أو أعجوبة»(ص٣٨١).

* * *